موسوعة
الأمن والإستخبارات في العالم

تأليف د. صالح زهر الدين

ملف الإستخبارات الفرنسية والبريطانية

موســوعــة
الأمن والاستخبارات في العالم

موســـوعــة

الأمـــن والإســـتخبارات في العالـــم

د.صالح زهر الدين

ملف الإستخبارات الفرنسية والبريطانية

الجزء الرابع

المركز الثقافي اللبناني

المركز الثقافي اللبناني

للطباعة والنشر والتأليف والترجمة والتوزيع

بيروت ـ هاتف: ٠٥/٤٦١٧٧٧ ـ ٠٥/٤٦١٨٨٨ ـ ٠٣/٧٥٣٦٦٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال بدون إذن خطي من الناشر.

الفصل الأول

ملف الإستخبارات الفرنسية

صراع العمالقة بين
نابليون بونابرت وجوزف فوشيه

لكل عصر رجاله. وقليلون جداً أولئك الرجال الذين يستمرون خالدين في العصور التي تلي عصرهم. انهم يولدون من جديد في كل عصر ومِصْر، بفضل نبوغهم وعبقريتهم وشهرتهم، فتتحطم أمام هذه الصفات جميع الحواجز والفواصل، كما تتحطم الحدود والمسافات، للإرتقاء الى سلم المجد والشهرة، ليس على صعيد وطنهم الأم، بل على صعيد البشرية جمعاء، باعتبار أن العبقرية والنبوغ ليست حكراً على أمة من الأمم، وعلى دولة دون أخرى، والانسان في النهاية هو الهدف والمبتغى ومن هذا المنطلق، يعتبر «جوزف فوشيه» وزير شرطة نابوليون بونابرت أحد أعاظم الرجال في عصره، كما في العصور اللاحقة، وهو أول من أدار جهاز مخابرات شامل وواسع وأخطبوطي، والذي أصبح نموذجاً لأجهزة المخابرات بعد ذلك، حتى يصح فيه القول أنه مؤسس صناعة المخابرات بمفاهيمها وأشكالها الحديثة. .

فمن هو «جوزف فوشيه» هذا؟ وما هي أسرار مهماته؟ .

يُروى أن نابوليون شكا مرة الى أخيه بمرارة، وهو في نوبة غضب شديد، من وزير الشرطة الذي كان يستطيع أن يكون حاضراً في كل مكان، بقوله: «اليوم يدس أنفه في سريري، وفي اليوم التالي يتجسس على أوراقي الخاصة».

التهمتان صحيحتان. والواقع أن «جـوزف فوشيـه» دوق أوترانتـو، وزير الشرطة، كان يعلم عن شؤون نابوليون المالية والغرامية ما لا يعرفه الامبراطور نفسه. وفي احدى المناسبات وجه نابـوليون خـطأ بعض التأنيب الى «فـوشيه» على ما اعتبره تقصيراً منه في التيقظ والرقابـة، ولكن قائـد شرطتـه سرعـان ما بادر الى عرض وصف مفصل للزيارات الليلية التي كان يقوم بها «رجل قوي، بدين الجسم لمغنية الأوبـرا الايطاليـة الشهيرة، غـراسيني الحسناء. ولم يكن ذلك الرجل الصغير غيرك انت. أما تلك المغنية المتقلبة الأطـوار فكانت غيـر مخلصة لك. كـانت تفضل عـازف الكمان «رود» عليـك». ولم يعش فوشيـه ليـروي هذه الحكـاية فحسب، ولكنـه عُيِّن في المنصب المهم ذاتـه في وقت لاحق أثناء الأيام المئة التي عاد فيها نابوليون الى تولي السلطة بعد عـودته من المنفى الأول. ولقد كان فـوشيه مـرهوبـاً في حياتـه، وقد أخـذ على نفسه أن يكون ضرورياً لأية حكومة، ولا مجال لها للإستغناء عنه. «أنه ولا ريب أبـرُع الجميع وأكثرهم مكـراً». هكذا وصفـه نابـوليون قبـل ان عينه قـائداً للشـرطة والأمن للمرة الثالثة. وليس لنا أن نغالط نابوليون في رأيه بفوشيه وامتداحه له، حتى بالمقارنة مع مواهب وزير خارجيته الداهية «تـاليران» منـافسه وخصمـه. وكـالكثيـرين من الـرجـال الـذين يملكـون السلطة والنفـوذ في زمن التغيـرات العميقة، كان فوشيه يُؤثر أن يعمل في الظل بدلاً من وضح النهار. كان بحّاثـةً خبيـراً ينقِّبُ في أكداس المعلومـات التي يأتيـه بهـا أفـراد شبكتـه التجسسيـة الواسعة،ويرفض مظاهر السلطة الخارجية في سبيل السلطة الحقيقية الدائمـة. وفيما كان معاصروه يسعون لجمع أمجاد القنصلية والامبراطوريـة وامتيازاتهـا، كان همّ فوشيـه الوحيـد أن يجمع المعلومـات التفصيلية التي تمكنـه من لعب الدور البارز في الدولة. صحيـح أنه لم يكن غيـر مكترث بـالألقاب والثـروة، ولكن ذلك كان عرضياً اذا قيس بـالرضى الـذي ينالـه من السيطرة على حيـاة الملايين. كان تبريره لأعماله بسيطاً «كل حكومة تتطلب شرطـة يقظة خـاضعة لرؤساء حازمين، أصحاب رؤية واضحة ونـافذة كضمـانة رئيسيـة لسلامتهـا». هكـذا كتب في مذكـراته التي يقـال فيها أنـه، وهو الـرجل الـذي نعرف، لم

يكتبها، وقد قال الشاعر «هايني» بسخرية «إن فوشيه بلغ به الخداع والتضليل الى حد نشر مذكرات مزوّرة بعد موته». تلك عملية مدهشة حتى بالنسبة لفوشيه. غير أن ملاحظة «تاليران» الجارحة جاءت أكثر دقة اذ قال: «إن مدير الشرطة رجل يهتم بشؤونه، ويعمل على الاهتمام بشؤون الآخرين»..

ولكن ما بالنا نتحدث عنه وهو في الذروة، وقد كانت بداياته متواضعة جداً؟.

ولد «جوزف فوشيه» بجوار ميناء «نانت» على المحيط الأطلسي، سنة ١٧٥٩، وسرعان ما اتضح أن الشاب النحيل البنية لن يتحمل حياة البحر، ولذلك عهد بتربيته الى جماعة دينية معنيّة بالتعليم بالدرجة الأولى معروفة «بالخطباء». وفي المدرسة في باريس تلقن فوشيه أصول التنظيم العقلي وضبط النفس، متحاشياً الانغماس في اللهو والرذيلة. وقد بقيت معه هذه الخصائص طيلة حياته. وأضاف اليها شعوراً داخلياً عميقاً بالحذر والشك. على أن فوشيه لم ينتسب الى هذه الجماعة الدينية ولم يَنْذُرْ نفسه لها ولو أنه ظل معها يدرس العلوم والرياضيات في أراس. هناك تعرَّف الى «كولو» الذي أصبح جنرالاً فيما بعد، والى المحامي الناشىء «ماكسيميليان روبسبيير» أحد قادة الثورة الفرنسية الرهيبين فيما بعد أيضاً، حتى إنه أعاره مبلغاً من المال كفاه لرحلته الى باريس بعد أن صادق شقيقته لفترة قصيرة. غير أن المغامرة لم تسفر عن شيء. وبعد اندلاع الثورة الفرنسية بوقت قصير، عاد فوشيه الى بلدته.

كانت جماعة «الخطباء» الدينية مؤيدة للإصلاح. ولكن فوشيه استطاع في فبراير، أي بعد الثورة الفرنسية بسنتين، أن يضمن انتخابه رئيساً لجمعية أصدقاء الدستور المحلية. ثم نجح بنشاطه واعتداله وهو ليس بالخطيب المفوه، أن يقنع مواطنيه في «نانت» المؤيدين للملكية بأن ينتخبوه عضواً في «المجلس الوطني» (أي البرلمان أيامها) في باريس، حيث التقى هناك «بون جان كواكند» التي أصبحت زوجته فيما بعد. ثم ظل وفياً ومخلصاً لها مدى

حياته،ولو أنها لم تكن تلك المرأة الجميلة اللبقة. كان فوشيه ليبرالياً بشكل عام، لكنه لم يلتزم بتنظيم أو حزب، ألا أنه مال الى التعاون مع احدى الفئات السياسية في تلك الفترة وهي «الجيروند يون» أو الجناح المعتدل منهم بكلمة أدق.

وراح يعمل بنشاط وجهد من وراء الستار في مختلف اللجان، والقيام ببعض المهمات الخاصة، غير أن هذه السرية لم تكن لتدوم الى ما لا نهاية في زمن كان الاستقطاب والعنف الثوري والتعصب يتزايد ويشتد، وكان إصرار روبسبيير على الاستفتاء العام بشأن مصير الملك لويس السادس عشر الذي كانت تحتجزه الثورة، والآراء في مصيره متضاربة، يجعل مواصلة التهرب مستحيلة. ولعل فوشيه كان يفضل التصويت للإبقاء على حياة الملك، ولكنه لاحظ الحماس الراديكالي المتزايد فأيد إعدام الملك. وكان هذا الانقلاب غير المبدئي في موقفه كافياً لتأمين الصوت الواحد للأكثرية المطلوبة. وبعد ذلك ظل فوشيه حتى مماته يوسم بأنه: «قاتل الملك».

وبعد نجاته من المصير الذي انتهى اليه الجيرونديون الذين صفتهم احدى تطورات الثورة الرهيبة، أدرك فوشيه أن صديقه السابق روبسبيير ينظر الى تقلباته بحذر وريبة. وحين أرسله المجلس الوطني الى «نانت» لتنظيم الميليشيا لضرب الانتفاضة الملكية في منطقة (الفانديه) سُرَّ فوشيه بهذه المناسبة التي أتاحت له الفرار من الارهاب. وفي هذه الآونة كان هذا المدرس الذي تربى على أيدي جماعة «الخطباء» الدينية قد أصبح متحمساً واشتراكياً ثورياً. وفي «نيفير» و«ترويس» صادر الأملاك الخاصة واستولى على الذهب والفضة في الكنائس لدعم الوضع المالي للحكومة في باريس، وللفت انتباه ذوي السلطة اليه..

وبمبادرة منه حثّ رجال الدين على الزواج أو تبنّي الأبناء، وأنكر في الوقت ذاته وجود حياة أخرى معلناً «أن الموت نوم أبدي»..

وفي فرنسا الثورة، مثل هذا الحماس يستحق المكافأة. ولما ثارت

ليون، كما فعلت مدنٌ أخرى كثيرة، على سلطة حكومة باريس، كان لابد من يـد حديـدية لإخضـاع الثورة. وبعد استسلام المـدينة التي سميت بـالمـدينـة المحررة. أرسل «فوشيه» و«كـولوديـربوا»، الممثـل سابقـاً، من قبل المجلس الوطني لتدميـر المدينـة، وتلقينها درسـاً، وجعلها مثـالاً لبقية المـدن، وإعدام جميع المواطنين الذين اشتركـوا في الانتفاضـة. وفي بضعة أسـابيع لقي على الأقل ١٦٠٠ شخصٍ من معارضي الثورة، حتفهم على أيدي فـوشيه، ودفنـوا في مدفن جماعي، أو ألقوا في نهر الرون. .

وفي السادس من شباط/فبراير ١٧٩٤، أصدر فوشيه أمراً بوقف عمليات الإعدام الجماعية بالرصاص. ولكن ذلك لم يعْنِ وقف الإرهاب. فقد لقي عدد من الناس حتفهم بعد ذلك على االمقصلة. أدرك فوشيـه أن عمليات الإعـدام لم تعد تحقق الهدف المطلوب، اذ خلقت جواً من الاتهـام والعداء قضى على المذنب والبريء معـاً. وكان لهـذا الدرس أثـره العميق على سيرتـه في وقت لاحق. أصبح يرى أنه من الأفضل من جميع النواحي أن يُعْـدَم زعيمٌ أو اثنان ثم يترك أتباعهما يتأملون مصائرهم. وممـا له مغـزاه أن آخر اثنين أمـر فوشيـه بإعدامهمـا في ليون همـا الجلاد ومسـاعده. ولكن المجلس الـوطني لم يقنع بذلك، بـل طلب عودة فـوشيه الى بـاريس لتفسير «اعتـدالـه». كـانت التهمـة الخـطيرة المـوجهة اليـه هي إلحادُه الصـارم، لأن إلحادَهُ يخـالف إلحاد قـادة الثورة في باريس. فقد أعلن روبسبيير عندئذ إلحاده الخاص القـائم على مبدأ الكائن الأسمى، مشيراً بـذلك الى عصمته، ثم دعا فـوشيه لشـرح موقفـه أمام لجنة السلامة العامة الرهيبة، وهي دعوة تعادل الحكم بالإعدام. .

لقـد وجد فـوشيه نفسـه في وضعٍ حَـرِج للغايـة. وبصفتـه منـدوبـاً من المجلس الـوطني طلب أن يرفـع تقـريـره أمـام المجلس لا أمـام الهيئـة التي اختارها روبسبيير. . لم يكن فوشيه يبقى أكثر من ليلة أو ليلتين في بيت واحد تجنباً لاعتقاله، ثم عمل على زعزعة مركز منافسه الخـطر ببث روح الشجاعـة والـوحدة بين الأعضـاء، حتى أنه انتُخب رئيسـاً لنادي اليعـاقبـة، ممـا أغـاظ

روبسبيير أشد الإغاظة. والواقع أن الكثيرين من أنصار هذا الرجل المعصوم كانوا قد أخذوا يُبدون استياء متزايداً من عجرفته واستبداده. حتى أن المقاعد الفارغة في المجلس كانت دليلاً بليغاً على هذه الأشياء عوض عن ضعف بلاغة فوشيه الخطابية. وجاءت نهاية روبسبيير سريعة وأكيدة. فشل في اقناع أعضاء المؤتمر بسلامة اتهاماته، فهتفوا بسقوطه، ثم اعتقل وأعدم. وبذلك انتهى عهد الإرهاب. لكن فوشيه، نفسه، وهو الارهابي السابق، الذي واجه خطر النفي والموت في مستعمرات «غيانا»، أصر على إلقاء اللوم على الآخرين، بمن فيهم زميله «كولو»، وأنكر أن يكون مسؤولاً عن أعمال الإرهاب، فاستطاع أن ينجو من الموت. لكنه كان قد فقد كل شيء: منصبه، ثروته وسمعته، إلا حياته وزوجته الوفية.

قليلة هي المعلومات عن تحركات فوشيه بين ١٧٩٣ و١٧٩٧. ولكنه وجد نفسه، على ما يبدو، مضطراً بأن يحيا حياة بائسة في غرفة زريّة. والظاهر أنه تورط في هذه الفترة بأعمال مصرفية مشبوهة وبالتهريب قبل أن يعمل جاسوساً في خدمة «باراس» أحد رجال الإدارة الخمسة الذين كانوا يحكمون فرنسا آنذاك. كما أنه بدأ عمله ذاك في المناطق النائية ثم عاد الى باريس لمساعدة «باراس» في القضاء على ثورة «بابيف» التي توخت المحافظة على طُهْرِ الثورة ونقاوتها، ليعمل بعد ذاك في الإعداد لانقلاب استهدف هيئة المديرين بالذات. وكان باراس يود أن يكافىء هذا الرجل الذي خدمه اعترافاً له بجميله. ولكن فوشيه، كما يقول بنفسه، ثابر على رفض المكافآت الصغيرة التي كانت تعرض عليه: «كنت مصمماً على القبول بالمهمات الكبيرة فقط، المهمّات التي تدفعني على طريق الأعمال السياسية الكبيرة. تحليت بالصبر، صبرت طويلاً، ولم يذهب صبري سدى». وفي وقت لاحق عين سفيراً الى جمهورية سفوح الألب التي أنشأها نابوليون شمالي ايطاليا سنة ١٧٩٧، ثم الى هولندا. وفي المنصبين حققت سياسة الليبرالية المستنيرة نجاحاً ملحوظاً، مما ترك انطباعاً جيداً على «باراس» الذي

كان يواجه وضعاً قلقاً في الوطن، فاستدعاه الى باريس وعينه مديراً للشرطة . .

كـانت إدارة الشرطـة التي تسلمها فـوشيه مـوبوءة بـالفسـاد والعجـز في مجتمع منشغل، بالحياة المتـرفة. ولكنـه سرعـان ما نجـح في تركيـز السلطة بيديه، ثم عمد لتأمين تمويل شبكة الجواسيس الآخـذة بالاتسـاع، الى فرض الضـرائب على القمار والبغـاء، وهما مصـدران لا ينفذان. «كـانت الخـزينـة فـارغة. بـدون المال يستحيـل قيام أيـة شرطـة. وسرعـان ما تـوفر المـال في الخزينة اذ جعلت الموبقات والرذائل الملازمة للمدن الكبيـرة، مورداً لتمـويل الشرطة». ولتوفير حرية أوسـع للعمل ولتجنب نقـد الرأي العـام، أوقف عدداً من الصحف، ثم قام بنفسه بإغلاق أبواب نادي اليعاقبة ـ المعـروفين بتطرفهم وتطهرهم ـ الذي يدين اليه بالكثير. وواصل مراقبة النشاطات الملكية باستمرار، لكنه سمح للكثيرين من صغار النبلاء المهاجرين بأن يعودوا الى البلاد. وحجته في ذلك أن اعتماد سياسة التساهل أكثر جدوى وفعالية اذ يجعـل الكثيرين من النبلاء مدينين له. وقد استطاع أن يبرر انشاء شبكة التجسس الواسعة، وحفظ الملفات الضخمة عن ألوف المواطنين بقـوله أن فـرنسا ستعـرف بنتيجة ذلـك استقراراً داخلياً لم تعرفه من قبل. والواقـع أن ذلك تحقق بحـدوث الإنقلاب الذي أوصل نابوليون الى السلطة . .

وبصفته مديراً للشرطة، كان فـوشيه على علم بـأن هنالـك انقلابـاً آخر يعده نابوليون نفسه في وجه «باراس» المتواطىء ورجال الإدارة. كان «باراس» قد عين فوشيه في هذا المنصب بغيـة الحؤول دون نجاح هـذه المؤامرة، لكن فوشيه كان يخلص للجهة التي تبدو مضمونة النجاح. وبـواسطة جـوزفين التي قدم لها رشوة كبيرة، عرف فوشيه بعودة نابوليون الباكـرة من مصر وبمخـططاته للمستقبـل، وتصـرف بـالتـالي على هـذا الأسـاس. وحين وجـه المتـآمـرون ضربتهـم، كان باراس محجوزاً في حمّامه على يدي مدام تـاليران، في وضـع محرج في كل حال. وبينما كان الإنقلاب يأخذ مجـراه في «سانت كلود» على مسافة قصيرة من العاصمة، كان فوشيه قـد حمل المجلسين التشـريعيين لعقد

الاجتماع هنا بحجة الأمن.

ثم عمد الى سد جميع المنافذ والمداخل الى باريس بعدد من رجال الفرق الخاصة لتأمين مزيد من السيطرة والسلامة. ثم نظم فوشيه جيشاً من المخبرين ينقلون اليه تطورات الوضع كل نصف ساعة. وهكذا أصبح في وضع يمكن وزير الشرطة أن يرحب بالإنقلاب اذا نجح أو ينقض عليه بكل قوة اذا فشل. فقد تعلم دون شك درساً من مغامري سباق الجياد بضرورة الرهان على كل الجياد لئلا يفلت واحد منه.

هكذا قام تحالف مصلحي ورخيص، ولكنه لم ينته إلا بانتهاء سلطة نابوليون السياسية بعد ١٥ سنة. كان في أحد طرفيه ذلك الرجل نابوليون الذي وسم نفسه بالعبقرية وانطلق الى الأعمال والمغامرات البطولية والمزاجية والعاطفية. وكان في طرفه الآخر فوشيه، رجل الشرطة والأمن الذي لا يستسلم للعاطفة، بل يجمع بجد ونشاط معلومات عن جميع الناس والأمور، بتحفظ وحذر، ولو أنه كسيده راغب كل الرغبة في ممارسة السلطة. ولولا كفاءة فوشيه ومعرفته الدائمة لجميع الأحداث في فرنسا، لكان من المشكوك به أن يستطيع نابوليون التغيب تلك الفترات الطويلة لشن حروبه في الخارج. والواقع أن وجود فوشيه، على رغم العداء الشخصي بينهما، كان عاملاً حيوياً في تنفيذ سياسيات نابوليون في الداخل والخارج على السواء..

ولو أن القنصل الأول، ثم الامبراطور بعد ذلك، اكتفى بالاعتماد على وزير شرطته للحصول على المعلومات السرية، لكان بالإمكان على ما يظن، تجنب الكثير من الأخطاء اللاحقة. ولكن فوشيه وجد نفسه في صراع مع مجموعات أخرى كثيرة من الجواسيس، منها من يعمل لنابوليون مباشرة، ومنها من يعمل لتاليران أو للوسيان بونابرت، بالإضافة الى جواسيس آخرين للعسكريين وللوزراء. ثم ان الكثيرين من هؤلاء الجواسيس والمخبرين كانوا يعملون في خدمة أكثر من سيد واحد. كما أن الكثيرين من الموظفين الكبار كانوا يؤمنون مداخيل اضافية لهم بإفشاء بعض المعلومات.

وقد اعترف فوشيه فيما بعد أنه كان يدفع الى «ديروك» السكرتير الشخصي لنابوليون مبلغ ٢٥ ألف فرنك شهرياً للتجسس له على سيده. ولقاء مبلغ آخر محترم كان طباخ لويس الثامن عشر في انكلترا يعمل لحساب وزير الشرطة. مثل هذه الشبكة الواسعة من أجهزة المخابرات المتنافسة كانت مصدر أربعة تقارير مستقلة ومتناقضة أحياناً، أو غير دقيقة أحياناً أخرى، يتلقاها نابوليون صباح كل يوم..

وهكذا مثل «جوزف فوشيه» قوة وسلطة لا مثيل لها في عصره، وكان الشخصية الأولى في الظل، كما في العلن، يحسب حسابه في جميع الأمور، باعتباره يملك أضخم وأغنى بنك للمعلومات في فرنسا، و«من يملك المعلومات يكون الأقوى دائماً»..

فما هي أهم المحطات الحاسمة في حياته؟ وكيف كانت نهايته؟ هذا ما سيوضحه الفصل القادم عنه.

فوشيه صانع المخابرات الحديثة

لم يتألق نجم في فرنسا، كما تألق نجم «جوزف فوشيه»، وقد برهنت التطورات والأحداث أنه من الشخصيات الدولية المرموقة في مجال الأمن والمخابرات والتجسس. ومن خلال ذلك تفوق على سيده نابوليون، وعلى الكثيرين من أسياده الآخرين. اضافة الى أن حياته كانت مليئة بالمغامرات والمخاطر، ولم تكن المقصلة سوى احدى الوسائل التي تنقل الانسان الى الأبدية، وبأسرع ما يمكن، وقد استطاع الإفلات مرات عديدة من هذه الآلة الجهنمية التي فصلت رؤوس الكثيرين من الزعماء، ومن أصحابه بالتحديد، عن أجسادهم. ففي سنته الأولى كوزير للشرطة في ظل نابوليون، واجه فوشيه أزمتين صعبتين. بعد الاطمئنان الى أن كل شيء في الداخل على ما يرام، انطلق القنصل الأول باعتباره القائد العسكري عبر ممر «سانت برنارد» لضرب النمسا التي استعادت شمالي ايطاليا. كانت باريس تنتظر أنباء المعركة الحاسمة ساعة فساعة. وكانت التقارير الأولى تشير الى أن الفرنسيين لاقوا هزيمة ستؤدي بالتالي الى القضاء على مطامح نابوليون السياسية... تردد فوشيه وتريث، هل يبقى على ولائه لنابوليون أم يقفز الى عربة المعارضة، فهو لا يعرف حقيقة الموقف العسكري في الجبهة. ولم يتخذ موقفه النهائي، ولم يعد الي تولي مقاليد السلطة إلا حين اتضح له أن المعركة في «مارينغو» كانت نصراً رائعاً لنابوليون. غير أن القنصل الأول لم يعد بعد ذلك يثق بمدير شرطته. وقد أقر فوشيه بنفسه أن معركة «مارينغو» كانت نصراً للقنصل الأول على فرنسا، لأنه بعد ذلك صار حاكمها الفرد الذي لا ينازع.

وتناولت الأزمة الثانية محاولة اغتيال جادة عشية الميلاد سنة ١٨٠٠، فيما كان نابوليون وجوزفين في عربتهما الى حضور عرض لهايدن. كانت الشائعات حول المحاولة قد راجت في اليوم السابق، ولكن رجال الشرطة الخاصة للقنصل الأول ـ لا شرطة فوشيه ـ أكدوا له أنه تم الكشف على الطريق والمسرح، وتبين لهم انهما خاليان مما يريب، وأنه ليس هنالك ما يخشى منه، ولكن. . . ما إن انعطفت عربة نابوليونِ الى شارع «سانت نيكيز» الضيق حتى انفجرت آلة جهنمية ـ هي عربة محشوة بالبارود أو فلنقل مفخخة بلغة اليوم ـ ونجا نابوليون بأعجوبة بدون أي أذى، لأن سائق عربة القنصلِ الأول اندفع بسرعة تجاوزت المألوف وهو في حالة سكر. وسمع فوشيه تعنيفاً شديداً، وأهين بقوة في وجهه، وقيل له أنه كان عليه أن يراقب أصدقاءه اليعاقبة الذين اتهموا بالمحاولة. ولكن فوشيه رد بكل هدوء يطلب مهلة أسبوعية ليثبت أن الاعتداء كان من صنع الملكيين. وبعد التدقيق والمتابعة وجمع كل الأدلة واحداً بعد الآخر، ونتفة بعد نتفة، اعثر فوشيه على الحداد الذي صنع حدوة الجواد الذي استخدم في المحاولة واعترف بأنها من صنعه. ثم أدى ذلك الى اعتقال المتآمرين الملكيين الذين اعترفوا بأنهم قاموا بالمحاولة قبل إعدامهم. . . صحيح أن نابوليون أعجب بمقدرة وزير الشرطة لكنه لم يفوت المناسبة لترحيل عدد من اليعاقبة الأبرياء الى أفريقيا.

وكان نابوليون وفوشيه على خلاف حول قضايا عديدة، لكنهما كانا يدركان أن جماهير الشعب قد سئمت الفساد والرشوة، وملت الادعاءات الفارغة عن الحرية والشعارات الكاذبة التي لا تعني شيئاً والكلام الضخم المنمق دون أي محتوى أو مضمون عن الثورة. ان الأمة تنشد النظام والأمن والاستقرار. بما في ذلك بعض حسنات النظام الملكي السابق. . . لذلك تميزت الأشهر الأولى من عهد القنصلية بالاعتدال وبالحكم المستنير، مما أدى بالتالي الى شعور عام بالاستقرار والطمأنينة. حتى أن نابوليونساير اليمين السياسي وأعلن عفواً عاماً عن أكثرية المهاجرين، ولم يستثن منهم غير لويس الثامن عشر. وفي ٢٥/٣/١٨٠٢، وقعت معاهدة «آميين» بين انكلترا وفرنسا

في أجواء من الحماس الشعبي بعد أن ملّت البلاد عشر سنوات من الحرب الثورية. جاءت هذه الخطة تعكس معتقدات فوشيه أيضاً الذي كان يعتقد بأن فرنسا تستطيع عندئذ أن تبدأ مشاريع تنمية اجتماعية واقتصادية. وفي يوم «عيد الفصح» دقت أجراس «نوتردام» لأول مرة منذ سنوات ايذاناً بالسلام، ودعوة لصلاة حضرها القنصل الأول نابوليون نفسه، بعد أن تحول على ما يبدو الى «مؤمن صالح».

ووقف فوشيه الى جانب العديد من القادة العسكريين والسياسيين الجمهوريين الذين عارضوا اتفاقية «الكونكوردا» مع البابا والكنيسة الكاثوليكية في السنة السابقة، باعتبارها خطوة مشبوهة لتوحيد الشعب لأسباب سياسية. والحقيقة أن صلح «آميين» و«الكونكوردا» كانا تدبيرين تمهيديين قام بهما نابوليون لتأمين انتخابه قنصلاً مدى الحياة، مما شكل الخطوة الأولى نحو إعلان نفسه امبراطوراً في وقت لاحق. آنذاك أعرب القيصر الجديد عن امتنانه بأن حرم مجلسي الشيوخ والنواب من أية صلاحيات، اذ لا يجوز للصغار وذوي النظرة الضيقة أن يقفوا في وجه العباقرة. واستدار فوشيه الى سيدة عبثاً. قال: «حقاً انني لم أر في ذلك غير الخطورة والفوضى. وقد عبرت عن ذلك بكل وضوح. قلت للقنصل الأول أنه أعلن نفسه ملكاً مدى الحياة ولكنه ليس لذلك في نظري أي أساس غير سيفه وانتصاراته». هنا نابوليون، كان قد بدأ يتضايق من تزايد شهرة فوشيه... وللمرة الأولى أخذ يعير أذناً صاغية للنقد الذي كان أشقاؤه وشقيقاته يوجهونه لوزير الشرطة، وهو يعلم أنهم لم يجتمعوا إلا على العداء لفوشيه وجوزفين فقط. وفي عام ١٨٠٢، أبلغه رئيس الدولة أنه قام بواجباته خير قيام الى درجة أن منصبه لم يعد ضرورياً. وتقديراً منه لخدماته منحه مكافأة تجاوزت مليون فرنك، وعينه عضواً في مجلس الشيوخ للتأكيد على عدم وجود أي استياء منه. لم يشأ نابوليون أن يغامر في هذا المجال. فالرجل مستودع أسرار. ورجاله السريون في كل مكان. ومن يدري؟ ان انساناً بمقدرة فوشيه قد يكون لازماً له في المستقبل. وفي مايو ١٨٠٣، نشبت الحرب في أوروبا من جديد. وفي أقل

من عشر سنوات انتقل فوشيه من الخياة في منزل حقير الى امتلاك مساكن فخمة في شارع شيروتي في فيريير، بجوار باريس، وفي اكس في جنوب فرنسا، غير أن حياته الهادئة نسبياً في هذه الفترة أزعجته وحملته على ترقب استعادة مركزه السابق. وتسنّت له الفرصة حين دخلت باريس مجموعة من المتآمرين الملكيين من غير أن يعرف بهم رجال المباحث. ولكن هذه المؤامرة التي تورط فيها جنرالان من أشهر جنرالات فرنسا كشفت في اللحظة الأخيرة. وبناء على معلومات غير دقيقة، وتأثرا بتربيته الكورسيكية، أقسم نابوليون على الانتقام. وأمر سراً باعتقال دوق دانجيان، الأمير الهارب ومن المطالبين بالعرش والمقيم في المانيا، ظناً منه بأنه الأمير الملكي الذي يقف وراء المؤامرة. ونقل الأمير الذي حل به غضب نابوليون الى قلعة بجوار باريس، وجرت محاكمة هذه الضحية البريئة على يدي عديل القنصل الأول، ثم أعدم رمياً بالرصاص. وكل ذلك خلال ساعات معدودة. تدخل فوشيه من غير جدوى، ونوه بالتأثيرات السياسية المؤذية التي ستنجم عن مثل هذا العمل غير المدروس. . . . المهين للعدالة والشرعية. وصفه بأنه «أسوأ من جريمة. انه خطأ فاضح». والواقع أن هذا الخطأ وحد أعداء فرنسا وزج أوروبا في حرب دامت احدى عشرة سنة. وفي العاشر من يوليو، استدعي فوشيه لتسلم منصب مدير الشرطة مرة أخرى ومن جديد.

ان هذا الوضع، لم يمنع من استمرار نابوليون من توجيه الإهانات لوزير شرطته في وجهه ووراء ظهره، وبعد أن أعلنت الامبراطورية في١٨/ ٥/ ١٨٠٤، أصبحت العلاقة بين السيد والخادم تزداد رسمية وشكلية، حتى أن فوشيه كان يتردد في محادثة الامبراطور بصراحته السابقة. لكن ذلك، لم يمنع فوشيه من مواصلة الرقابة على المخدع الامبراطوري. والواقع أن فوشيه كان من أول الذين شكوا بأن جوزفين، رغم أن لها ولدين من زوجها الأول، لا نابوليون، هي التي تعجز عن انجاب وريث. وفي الوقت نفسه، فإن مخبري نابوليون الشخصيين لم يجدوا شيئاً مثيراً أو أية اشاعات في حياة فوشيه ينقلونه الى سيدهم، لأن فوشيه لم يكن يدخن السجاير، ولا يبالغ في تناول

المشروبات، ولا يخون زوجته. وباختصار إنه كان مثالاً للفضائل النابـوليونيـة المفترضة. ولعل أقصى ما كان يمكن اتهامـه به هـو أنه يقـوم بنشاطـات «غير فرنسية».

وأثناء الحملات الخارجية الكثيرة التي كان يقـوم بها الامبـراطور، كـان فوشيه هو الحاكم الفعلي في فرنسا. كانت طريقتـه تقوم على الإقنـاع لا على العقـوبة، ومثـل هذا الأسلوب يتـطلب جهازاً أمنيـاً واسعاً وكثيـراً ما يتبجـح فوشيه بأنه «كلما اجتمع ثلاثة معاً، كان لي بينهم واحد يتنصت». هذه مبـالغة ولا ريب. لكنها أفادته كثيراً في الحد من المؤامرات. غير أن خصومـه وجدوا أنفسهم ملزمين بالاعتراف باعتدالـه وبسياسـاته المستنيـرة. مدام دي شتـايل، وهي الخصم الدائم لنابوليون، أقرت بأن وزير الشرطة «لم يرتكب أي خطأ لا تقتضيـه الضرورة». وقـد استطاعت في فتـرات ابعـادهـا عن العـاصمـة، أن تـدخلها خلسـة، فيما كـان فوشيـه يغض الطرف. وعلى هـذا التغـاضي تلقى فوشيه تعنيفاً صريحاً من نابوليون الذي علم بذلك من رجال مخابراته السريين وهـو في بولـونيا. وبـالمقابـل كان فـوشيه يتلقى تقـارير يـومية عن غـراميـات الامبراطور بالكونتيسة ماري واليفسكا.

وبنتيجة ايقاف العـديد من الصحف في فـرنسا وإخضـاع ما تبقى منهـا للرقابة، تمكن فوشيه من تخصيص قسم كبير من وقته لفيلق أنبـاء المنشورات الأجنبية، وهضمها وفهمهـا وانتقاء جـوهرهـا، وهو العمـل الذي شكـل الجزء الأساسي من تقاريـره اليوميـة لنابـوليون. ولا ريب أن الـدبلوماسيين الأجـانب كانوا خاضعين لرقابة صارمة، كما أن منح أذونـات التنقل أو حجبهـا كانـا من صلاحية فوشيه. وقد أدرك فوشيه تزايد صعوبة الفصل بين السيـاسة الـداخلية والسياسة التوسعية الخارجية التي لابد لها بالتالي، اذا لم تتوقف عند حد، أن تؤدي الى القضاء على الامبراطورية. كان واضحاً أن حـروب نابـوليون تفـرغ البلاد من شبابها وتقضي على ازدهارها، فيما كـانت طموحـاته تتسـع مع كـل حملة عسكرية جديدة.

وأدى غزو اسبانيا سنة ١٨٠٨، ونبأ الهزائم الأولى في ميادين المعركة الى اتحاد أدهش المجتمع الباريسي. فقد ظل تاليران، وزير الخارجية، وفوشيه، وزير الشرطة والأمن، على ما هنالك من تشابه في خلفياتهما الدينية، خصمين على مدى سنوات، لا يتحدث أحدهما للآخر، وهو وضع أرضى نابوليون وأثار ارتياحه. غير أن رغبة مشتركة بالسلام دفعتهما الى التفاهم العلني وإعداد المخططات للمستقبل. واشتم نابوليون رائحة انقلاب، فبادر الى العودة من اسبانيا بسرعة، وعزل تاليران من منصبه بصورة علنية ومثيرة، أما فوشيه فاستطاع كعادته أن يتجنب العاصفة. وفي السنة التالية حين كان الامبراطور في النمسا، نشأ وضع جديد أشد حرجاً. جاء نزول القوات الانكليزية «لشيرين» في هولندا تهديداً مباشراً «لأنتورب» ولشمالي فرنسا، وكان لابد من دحرها على الفور. وبمبادرة منه جند فوشيه الحرس الوطني وعين الجنرال برنادوت قائداً للحرس، رغم سخط الامبراطور عليه. وفي رسالة مليئة بالروح القومية أعلن فوشيه: «لنثبت لأوروبا أنه اذا كانت عبقرية نابوليون تضفي البريق والمجد على فرنسا، فإن حضوره ليس ضرورياً لصد العدو». تصريح خال من الكياسة، لكنه كان مصيباً كل الصواب، كما تبيّن عند نجاح الهجوم المعاكس. واضطر الامبراطور لكتم غضبه، وبعد أسبوع منح فوشيه لقب «دوق اوترانتو». بعد ذلك، ارتكب فوشيه سلسلة من الأخطاء التي لا نجد لها تبريراً، إلا اذا اعتقدنا أنه بدأ يعمل لحسابه، أو أنه بدأ يتحول عن نابوليون ويعتقد بأن مصلحة فرنسا تقتضي تغييره. ولكن هذه الأخطاء أبعدته عن منصبه للمرة الثانية... لعله بالغ بالثقة بنفسه اذا استنفر الحرس الوطني ثانية، انما لرد هجوم لا وجود له هذه المرة. واتبع ذلك بعمل سياسي يتسم بالتربص والخيانة. اتصل فوشيه بجوزفين ونصحها بوقاحة بأن تسهل من جانبها عملية الطلاق من نابوليون. وبخه نابوليون على ذلك. ثم وقع فوشيه في خطأ آخر أكثر أهمية حين قرر أن يقوم بدور السياسي، وأن يعقد صلحاً مع انكلترا... ولم يكن ذلك بدون معرفة الامبراطور فحسب، بل وباستخدام اسمه في المفاوضات أيضاً. هذه المرة أغفل فوشيه أن يتخذ

الاحتياطات الكافية، وأخذ على حين غرة حين فاجأه نابوليون الغاضب متلبساً بجرم الإزدواجية والخيانة. وفي الثالث من يوليو/سنة ١٨١٠، عزل فوشيه وعين سافاري، الجنرال المتبلد الشعور محله في منصب وزير الشرطة.

أسف على سقوط فوشيه كثيرون كانوا قد استفادوا من معاملته اللبقة وأسلوبه الراقي المتطور في التعامل مع الناس، حتى الأعداء. لكن نابوليون الذي كان يعرف شعبية فوشيه، ولعلها تعود الى تطور آرائه السياسية حول علاقات فرنسا الخارجية والسياسية والداخلية، عينه حاكماً على روما، ولكن سافاري أبلغ الامبراطور أن سلفه أحرق ملفات سرية قبل انتقاله الى روما. ثارت ثائرة نابوليون وطلب اعادة ما تبقى من مراسلات سرية ومواد أخرى حيوية... ونزل فوشيه عند طلب الامبراطور لكسب الوقت قبل أن يفر الى ايطاليا. بعد حين سمح لفوشيه بأن يعود الى فرنسا ليواجه فقد زوجته التي توفيت سنة ١٨١٢. وفي أواخر شهر اكتوبر، حين كان نابوليون يتراجع مهزوماً من موسكو وقع في باريس ما أسعف فوشيه بالفعل.

لقد تجلى بوضوح في ظل قيادة سافاري لأجهزة الشرطة والأمن أن القسوة والعنف والتعذيب بديل سيء للرقابة واليقظة. ولما فر الجنرال «ماليه» المتآمر اللدود الدائم لنابوليون، من السجن، كان سافاري على جهل تام بتحركاته ونواياه. والواقع أن مخطط «ماليه» كان البساطة بعينها، عندما أعلن أن نابوليون قتل في روسيا، وأن حكومة مؤقتة قد تسلمت السلطة. ثم أعلن اعتقال سافاري، لكنه عجز عن التحرك بسرعة، فانهارت المحاولة الإنقلابية.

وأصيب نابوليون بالذعر التام إزاء امكانية نجاح مثل هذه المحاولة وما لاقته من دعم واسع بناء على مجرد اشاعة. والأسوأ من ذلك أن شرطة سافاري عجزت عن سحق المؤامرة في مراحلها الأولى، ومثل هذا العجز غير مقبول، وغير مسموح به أبداً. وقد سر فوشيه إزاء ارتباك سافاري، ثم شعر بالمزيد من الإرتياح حين استدعاه نابوليون الى «درسدن» لاستشارته. اذ أن هذه الخطوة كانت أبلغ دليل على اعتراف الامبراطور بخطئه.

آنذاك كان فوشيه في أواسط عقده السادس. كان لا يزال رقيق الجسم، ناحلاً كعادته، لكن قواه قد أخذت بالوهن، كأنها بذلك تواكب وهن الامبراطورية بالذات. وعلى غير عادته اتبع أسلوباً سياسياً متأنياً في شباك ودهاليز السياسة الايطالية. حينذاك أضاع بسببه أربعة أشهر في محاولة التأثير على الفئات العديدة في ايطاليا قبل العودة الى باريس التي وصلها متأخراً.. اذ أن لويس الثامن عشر كان قد تسلم العرش وجلس الى جانبه تاليران. وعبر فوشيه عن حكمة حين رفض منصباً في الحكومة الجديدة، قائلاً عن البوربون أنهم لن يبقوا في الحكم أكثر من سنة. كان في الواقع مؤيداً للسلام، معارضاً لعودة نابوليون، لكن قصر نظر الكثيرين من المهاجرين العائدين أقنعه بأن النظام الملكي سيكون قصير العهد. ولم يأت نبأ عودة الامبراطور وزحفه الظافر مفاجأة له. وفي اللحظة الأخيرة قدرت السلطات البوربونية اعتقال فوشيه، لكنه تمكن من الفرار بمغامرة الهبوط على سلم عبر جدار في حديقة «هورتنس» الخلفية، وهي ربيبة نابوليون ونسيبته أيضاً. وعند وصول الامبراطور السابق، عين فوشيه وزيراً من جديد.

وبين الوزراء الذين عملوا أثناء فترة الأيام المئة، وهي الفترة ما بين عودة نابوليون ونفيه من جديد بعد معركة «واترلو» كان فوشيه أقدرهم وأكثرهم كفاءة، وكان يعتبر الصلة المجدية الوحيدة بين نابوليون والملكيين. وعلى هذا الأساس دخل في مفاوضات سرية مع مترنيخ ـ الداهية النمساوي ـ من خلف ظهر الامبراطور، غير أنه هذه المرة كان على أتم استعداد حين صرخ به الامبراطور: «انت خائن... كان يجب علي أن أعلقك على حبل المشنقة».

فقد رد عليه فوشيه: «سيدي، انني لا أشاطر جلالتك هذا الرأي». وكشف له معرفته بأن نابوليون نصب له فخاً في فندق «دا دراي كونيغ» في «بال» حيث كان مقرراً أن يتم الاجتماع بمندوب مترنيخ الدبلوماسي. وواصل الامبراطور صراخه مدى ساعة لكنه كان لابد له من الاعتراف بهزيمته في

النهاية. وجاءت هذه المناوشة مقدمة بسيطة لهزيمته الساحقة في معركة «واترلو» أمام خصمه الانكليزي «ولنغتون».

هنا رأى فوشيه ضرورة استقالة نابوليون. وباعتباره الرئيس المؤقت للحكومة كان في وضع يمكنه من إرغام الامبراطور على مغادرة باريس، وأن يفسح المجال ثانية أمام لويس الثامن عشر.

كان الملك يكره من صوت لإعدام شقيقه، وكان صوته هو الذي رجح إعدام الملك لويس السادس عشر. لكنه عين فوشيه وزيراً للشرطة للمرة الرابعة. ويروى أن الملك لويس الثامن عشر قال في نفسه: «يا أخي المسكين. لو أنك رأيتني لسامحتني» فعودة الملكية - المؤقتة - الى فرنسا كانت تقتضي مصالحة واسعة. واذا كان الملك أكرم فوشيه في وقت لاحق بحضور حفل زواجه من فتاة جميلة تصغره بنحو ثلاثين عاماً، فإنه كان واضحاً أن وزير الشرطة قد استنفد نفعه للبوربون بعد أن رسخوا سلطتهم. وقد ظلت «دوقة دانغوليم» ذات الإرادة القوية والشخصية العنيفة، وهي ابنة الملك المعدوم لويس السادس عشر والملكة المعدومة ماري انطوانيت هي «الرجل الوحيد في العائلة» كما قال عنها نابوليون، تكره هذا الرجل الذي أسهم في إعدام والديها. وحملت لويس الثامن عشر حملاً على عزله من الخدمة وإبعاده الى حيث قضى بقية حياته في ما يشبه المنفى.

قضى فوشيه السنوات الخمس الأخيرة من حياته في التنقل بين براغ وميونيخ ولينز، وهو يتوسل كل مرة مترنيخ المتعجرف أن يمنحه حق اللجوء. وأخيراً وجد العزاء والسلوى في «تريستا» حيث أبدى جيروم واليزا بونابرت عطفاً كبيراً عليه، وهو الذي سبق له أن قدم لهما خدمات كثيرة في الماضي. وكانت نهايته في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٢٠. أخيراً وجد هذا الراهب السابق، والارهابي، واليعقوبي، والملحد، والجمهوري، والثوري، والمناصر للملكية حيناً من الزمن سلاماً مع الكنيسة التي رضيت بدفنه في أحد قبورها.

إلا أن ما يجب قوله أخيراً، أن أمثال جوزف فوشيه قليلون جداً في كل عصر. ولو أن نابوليون أصغى لوزير شرطته البارع على نحو أفضل، وأخذ برأيه في وقف المغامرات الخارجية، وتحقيق أوسع الإصلاحات والمصالحات الداخلية لكان من المحتمل أن لا ينهي بقية حياته في منفاه التعيس في جزيرة القديسة هيلانة. فجوزف فوشيه مدرسة سياسية وأمنية تصلح لكل عصر من العصور، لأن السياسة والأمن مستمران في الوجود، طالما أن الأرض تعج ببني البشر، ذوات الأفكار المختلفة والمصالح المتناقضة.

وطالما هناك انسان على سطح الأرض، فسيبقى التجسس قائماً وملازماً له.

المراجع

١ ـ مجلة «الجيل» (القبرصية). عرض ميخائيل الخوري «فوشيه أبو المخابرات الحديثة». العدد الأول. المجلد السابع. شهر كانون الثاني / يناير ١٩٨٦. ص ٩٤ ـ ١٠٧.

٢ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». دار الحياة. بيروت. لا تاريخ. ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

٣ ـ حافظ ابراهيم خيرالله «المخابرات الفرنسية». دار النهار للنشر. بيروت.

سليمان الحلبي
ومصرع الجنرال كليبر في مصر

عندما يركب الغرور والكبرياء رأس أحد الأشخاص العاديين، يفقد الكثير من توازنه وتختل عنده مقاييس عديدة. فكيف اذا ركب هذا الغرور رأس أمة من الأمم، أو رأس قائد سياسي وعسكري كنابوليون بونابرت؟ فالقضية عندها ولا شك في مستوى الكارثة.

فمن منطلق التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا من جهة، والموقع الاستراتيجي الهام لمصر من ناحية أخرى، كانت حملة نابوليون بونابرت على مصر، ومقاومة الانكليز لها بكل ثقلهم لأن التحكم بهذا الطريق كان بحد ذاته تهديداً مباشراً لاستمرارية السيطرة البريطانية على الهند التي كان يطلق عليها اسم «درّة التاج البريطاني».

وعلى هذا الأساس، كتب الكولونيل تشرشل في منتصف القرن التاسع عشر يقول: «اذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق، ينبغي لها بشكل أو بآخر، أن تدخل سوريا ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها».

وقد أعلن نابوليون أنه سيجعل من مدينة عكا مفتاحاً للشرق. وكانت عبقريته العسكرية على صواب في تقديرها أهمية هذه البلاد المسمّاة «بالشرق الأدنى»، التي عبثاً حاول الاستيلاء عليها ليجعل منها مركزاً ومنطلقاً في أعماله الحربية ضد الامبراطورية البريطانية في الهند... لقد كانت القضية قضية حياة أو موت بالنسبة لهؤلاء الاستعماريين، الذين يطمحون الى التحكم بالعالم وامتصاص خيرات البشرية ونهب ثروات بلدانها في سبيل ديمومة نفوذهم

وتأبيده (بمعنى جعله مؤبداً).

وفي سبيل ذلك، قام نابوليون بحملته على مصر في سنة ١٧٩٨، حيث تحولت بعدها الى ساحة صراع وقتال بينه وبين الانكليز، وكانت معركة «أبي قير» من أشهر هذه المعارك الحاسمة التي أثبتت عملياً بأن مصر هي شريان حيوي وعصب حياة لا يمكن الاستغناء عنه.

إلا أن ما حصل في فرنسا لاحقاً من تطورات على الصعيد الداخلي، واضطراب في أحوالها، دفع بنابوليون الى مغادرة مصر، وتسليم قيادة الحملة الى الجنرال كليبر.

فماذا حدث بعد ذلك؟ وكيف كانت نهاية هذا الجنرال؟.

تولى الجنرال كليبر قيادة الحملة الفرنسية في مصر بعد أن غادرها نابوليون بونابرت بعد سماعه نبأ اضطراب الأحوال في فرنسا، وتألب دول أوروبا وملوكها على الثورة الفرنسية. وقد اتخذ كليبر من «قصر الألفي» المشرف على بركة الأزبكية مسكناً له ومركزاً للقيادة العامة، ولكنه أقام حيناً في الجيزة القريبة من النيل بجوار المركز العام لأركان الحرب حتى يتم اصلاح القصر. وليس من السهل أن يخضع شعب من الشعوب رضع الكرامة والحرية مع حليب الطفولة، لأبشع أنواع الذل والمظالم على أيدي أناس لا يمتّون اليه بصلة. وليس من الممكن أيضاً أن تهدأ الثورة في النفوس أمام حكم الحديد والنار، مهما كان جائراً ودموياً. ولم يكن المناضل العربي «سليمان الحلبي» الذي اغتال الجنرال كليبر، إلا النموذج الحي لشعب رفض حياة الذل والعبودية أمام جميع الغزاة على مر التاريخ.

فكيف كانت عملية اغتيال كليبر؟ ومن هو البطل «سليمان الحلبي»؟.

ان كيفية وقوع هذه الحادثة والتي أدت الى تصفية أحد رموز الاستعمار الفرنسي في مصر وكبير قادته العسكريين، فقد وردت على لسان «الجبرتي» المؤرخ الكبير وحجّة عصره. كما صورها التحقيق الرسمي وأقوال الشهود على الشكل التالي: بينما كان الجنرال كليبر في منزله في الساعات الأخيرة من يوم

السبت في ١٤ يونيـو سنة ١٨٠٠، خرج مع كبير المهنـدسين الى الحديقـة الكائنة بين منـزله ومنـزل وزيره دامـاس. وفي هذه الأثنـاء دخل عليـه الشاب «سليمان الحلبي» الذي كان يرتدي ثياباً بالية، ومد اليه يده بورقة، فأخذها كليبر. وبينما كان يمعن في قراءتها، انقض عليه ذلك الشاب وضربه بسكين كان محتفظاً بها تحت ثيابه، فجاءت الضربة بخاصرته، فسقط على الأرض وصرخ صوتاً قوياً، ثم ضربه ثانياً وثالثاً ورابعاً، حتى أجهز عليه. وقد بادر المهندس الى القاتل وبيده عصا قوية فضربه بها على كتفه فجرحه. وهجم سليمان الحلبي على المهندس وضربه بتلك السكين فجرحه جرحاً بليغاً ووقع على الأرض بين ميت وحي، ثم فر سليمان هارباً غير أنه ما كاد يختفي حتى وثب الحراس الى مكان الاستغاثة، فوجدوا قائدهم صـريعاً في ممشى الحـديقة، والـدم يقطر من جـراحه. كمـا وجدوا زميله المهندس «بروتان» ملقى على قيد بضعة أمتار منه، ولم يروا أثراً للقاتل، فذعروا واشتد اضطرابهم وطار الخبر الى الـرؤساء والضبـاط فهرولـوا من كل صوب، واشتد الضجيج والهرج، وانطلق عشرات الجند الى الجهات المجـاورة يفتشون عن الفـاعل. واعتقـد الرؤسـاء أن تلك الجريمـة انمـا هي نتيجـة لمؤامرة كبيـرة دبرهـا أهل القـاهرة. . . فـاستنفروا بـالقلاع والحصـون واحتـاط الفرنسيـون بالمـدينة، وسـرى الرعب الى القـاهريين، وأغلق التجـار حوانيتهم، واقفرت الطرق، وساد المدينة سكـون رهيب. غير أن هـذه الحال لم تدم طويلاً، حيث لم تمض ساعة حتى عثر الجنـد على سليمان وقـد كان مختفياً في البستان المجاور لمنزل كليبـر. وفي الحال قـدّم للإستجـواب أمام مجلس عسكـري انعقد في منـزل الجنـرال «دامـاس» رئيس أركـان الحـرب. واستجوبه الجنـرال «مينو» أقـدم الضباط في حملة مصر، وقد خلف كليبـر في القيادة العامة. ولكن الجنرال الجريح يعاني حشرجة النزع عندما قدم لفحصه كبير الأطباء في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر في مركـز القيادة. وقـد ظهر من الفحص أنه طعن بآلة قاطعة ذات حد واحد، وأنه أصيب بأربعة جروح بالغـة أحدها تحت الكـتف الأيمن، والثاني تجاه الكلية اليمنى والثـالث في ذراعه الأيسر وقد شقه من ناحية الى أخرى، والرابع في الخد الأيمن، أما المهندس

«بروتان» فقد ثبت بالفحص أنه ضرب أيضاً بآلة قاطعة ذات حد واحد وأنه أصيب بستة جروح في كتفه ووركه وجنبه الأيسر وشدقه الأيسر وصدره من جهة اليسار. وقد أسلم كليبر الروح بعد فحصه ببرهة وجيزة. لكن المهندس «بروتان» لم تكن جراحه خطرة بالرغم من كثرتها، فأسعف بالعلاج.

هذا وقد ظهر من الاستجواب الأول أن الشاب المقبوض عليه يسمى «سليمان الحلبي»، وأنه ولد في مدينة حلب بولاية الشام، وعمره أربع وعشرون سنة. قدم الى القاهرة مع احدى القوافل، ثم نزل في الجامع الأزهر. وقد تليت عليه الأدلة الأولى للإتهام وهي كما يأتي:

أولاً: وجد الجند في أحد مماشي الحديقة خنجراً ملوثاً بالدم، وعلى مقربة من المكان الذي كان مختفياً فيه.

ثانياً: قبض عليه الجند وهو مختفٍ في الحديقة. وقد رد المتهم على ذلك بأنه لم يكن مختفياً لأن الجند سدوا عليه المسالك.

ثالثاً: وجدت قطعة قماش أخضر في المكان الذي سقط فيه القائد وهي تماثل قماش ثيابه.

رابعاً: وجدت برأسه ووجهه خدوش ورضوض وكدمات. وهذه الإصابات هي نتيجة اشتباكه مع المهندس «بروتان» الذي ضربه بعصاه عدة ضربات.

خامساً: تعرف عليه بعض الجند وقرروا أنهم رأوه في صبيحة ذلك اليوم في الجيزة حيث كان القائد العام، ولوحظ أنه يتتبعه أينما سار.

وبعد تلاوة حيثيات الاتهام قرر المجلس إحالة المتهم الى العذاب (طبقاً للعرف القانوني آنذاك). فشد وثاقه وما زال يجلد حتى ادمي جلده، ثم وضع قيد الاستجواب ثانية فقرّ أنه قدم الى القاهرة من غزة منذ واحد وثلاثين يوماً. ولم يكن قدومه مع احدى القوافل بل كان على هجين استحضره خصيصاً لذلك، فقطع المسافة بين القاهرة وغزة في ستة أيام. وأنه

جاء الى القاهرة ليقتل كليبر، ولم يحرضه أحد على ذلك، وليس هو بطامع في مال أو منصب. وسئل هل حرضه أحد في مصر بعد وصوله اليها فأجاب أن أحداً لم يحرضه في مصر، غير أنه تعرف منذ سكنه في الجامع الأزهر بأربعة مشايخ هم: السيد محمود الغزي، والسيد أحمد الوالي، وعبدالله الغزي، والسيد عبد القادر الغزي، وأنه أطلعهم على مشروعه فلم يظهروا استياءهم،غير أنهم أظهروا له عدم ثقتهم بإمكانية التنفيذ. واعترف أيضاً أنه تردد على الجيزة لرؤية كليبر والاستفهام عنه وعن غدواته وروحاته، فعلم أنه ينزل أحياناً الى الحديقة، وأنه رآه في هذا الصباح يجتاز النيل في قاربه حتى قتله. وقد كان يقوم بمهمة الترجمة أثناء التحقيق «داميان برشويش» سكرتير القائد العام. فأصدر القائد العام «مينو» في الحال أمراً بالقبض على الأربعة المذكورين، حيث لم تمض ساعة حتى قبض على ثلاثة منهم فأحضروا في الحال الى المجلس، وبديء باستجوابهم في الساعة الثامنة من نفس اليوم الذي وقعت فيه حادثة الاغتيال. وقد أدى استجواب المشايخ الأربعة الى القبض على شخص آخر هو «مصطفى البورصلي» والذي قال عنه السيد أحمد الوالي أن سليمان يذهب للقراءة في منزله، وقد قدم هو الآخر للإستجواب. ولما انتهى التحقيق البدائي، أصدر الجنرال «مينو» في اليوم التالي قراراً بإنشاء محكمة لمحاكمة المتهمين مؤلفة من تسعة أعضاء هم: الجنرال رينييه وهو الرئيس، وفريان، وروبين من القواد، وموران، ورجنيه، ولوري، وبرتران، وسارتلون، وليبر من كبار الضباط ورؤساء الأقلام، على أن يقوم ليبر بوظيفة المدعي العمومي، وسارتلون بوظيفة مقرر المحكمة، وفوض لهذه المحكمة أن تتخذ كل الإجراءات التي ترى اتخاذها من قبض وتفتيش وتحقيق للوصول الى إظهار الحقيقة والقبض على جميع من تظهر له أية علاقة بالحادث، وأن تقضي على المسببين بالعقاب المناسب، وأن تبدأ بعقد جلساتها في الحال. فبدأت المحكمة بسماع شهود الإثبات وهم: العسكري الخيال يوسف برين من حراس منزل كليبر. والعسكري الخيال روبر. والعسكري الفرنسي فورتونيه الضابط في فرقة الفرسان ومن مرافقي كليبر،

والمهندس كونستان بروتان عضو البعثة العلمية. وقد أجمع كافة الشهـود أنهم شاهدوا مقتل القائـد العام كليبـر وشاركـوا في القبض على قاتله. ثم أعـادت المحكمـة استجواب سليمـان الحلبي فـاعتـرف بمـا قـام بـه من مقتـل قـائـد الفرنسيين كليبر، وأفاض هذه المرة في تفصيل الحـوادث التي سبقت ورافقت ذلك. كما اعتـرف سليمان أيضاً بأن الخنجـر الملوث بالـدم الذي ضبط في مكان الحادث هو خنجره، وأنه اشتراه من سوق غزة لهذه الغاية. وقد استغرق التحقيق في القضية يوماً واحداً، واستغرق استجواب المتهمين أمام المحكمة يوماً آخر هو اليـوم التالي: وفي ختـام هذه الجلسـة التي لبّثت طوال اليـوم عهدت المحكمة الى المترجم «لوماكا» الدفاع عن المتهمين.

وفي يـوم الاثنين ١٦ يـونيـو سنـة ١٨٠٠، عـادت المحكمـة الى الانعقاد، وكانت المحاكمة علنية شهدها جمهور من العرب المصريين. بدأها المقرر «سارتلون» بمرافعة قرئت بعدها أوراق التحقيق ثانية وأحضر المتهمـون الى قـائمة المحكمـة. حيث سألهم رئيسهـا الجنـرال رينييـه بحضـور وكيلهم المترجم «لوماكا» عدة أسئلة فلم يغيروا شيئاً من أجوبتهم السابقة. فعندئذ أمر الرئيس بإخلاء الجلسة من الحضور، واختلت المحكمة للمداولة، ثم عـادت الى الانعقاد وأصدرت حكمها بإدانـة كل من سليمـان الحلبي ومحمد الغـزي وعبـدالله الغزي وأحمـد الـوالي، وبـراءة مصـطفى البـورصلي. وقضت على المحكوم عليهم بالعقوبات الآتية:

١ ـ أن تحرق لسليمان الحلبي يده اليمنى ثم يعدم فوق الخازوق وتترك جثته فريسة للجوارح، وأن يكـون ذلك خـارج البلد فوق التـل المعروف بتـل العقارب، وأن يقع التنفيذ علناً عقب تشييع جنازة الجنرال كليبر.

٢ ـ أن يعـدم عبد القـادر الغزي على الخـازوق وأن تصادر أمـوالـه من عقار ومنقول لحساب الجمهورية الفرنسية.

٣ ـ أن يعدم كل من محمد الغزي وعبدالله الغزي وأحمد الوالي بقـطع الرأس، ثم توضع رؤوسهم فوق الرماح وتحرق جثثهم بالنار، وأن يكون ذلـك

فوق تل العقارب أيضاً، وأمام سليمان الحلبي قبل أن ينفذ فيه الحكم.

وقرئ الحكم على المتهمين بواسطة المترجم «لوماكا» وذلك بعد أن استغرقت هذه القضية من تحقيق ومحاكمة أربعة أيام فقط.

وفي اليوم التالي تأهب الفرنسيون لدفن الجنرال كليبر، فجمعوا جنودهم وساروا به من حي الأزبكية الى باب الخلق فدرب الجماميز فالناصرية حيث وصلوا الى قلعة كانوا قد بنوها هنالك. ولما وصلوا الى تل العقارب أحضروا سليمان الحلبي وزملاءه، فنفذوا فيهم الحكم وسط حراسة عساكرهم، ثم استأنفت الجنازة مسيرتها حتى وصلوا الى باب القصرالعيني، وهناك دفنوه في كثيب من الرمل والتراب، وأحاطوا مكانه بسياج من الخشب، وزرعوا حوله أعواداً من السرو.

وقد تولى الجنرال «مينو» بعد كليبر قيادة الحملة الفرنسية في مصر، وهو الذي قام بالمفاوضات مع الإنكليز فيما بعد لضمان انسحاب ما تبقى من الحملة الفرنسية على مصر الى الشواطئ الفرنسية.

وهكذا برهن «سليمان الحلبي» بأن الايمان بالأرض والوطن والحرية والكرامة، هو أقوى من كل الأساطيل والجيوش، والدم لن ينقلب الى ماء في أرض العرب، وفي أرض الكنانة على وجه الخصوص. كذلك الحال بالنسبة للبطل «سليمان خاطر» الذي نفذ حكم الإعدام بالصهاينة السبعة الذين كانوا يدنسون تراب مصر العربية، وكان نسخة طبق الأصل عن «سليمان الحلبي» في هذا العصر، وجاء الحكم عادلاً باعتبار أن هؤلاء الصهاينة هم نسخة طبق الأصل عن الجنرال كليبر وأسياده. فالحرية واحدة لا تتجزأ، وكذلك الكرامة الانسانية. ولا يمكن صون الكرامة ونيل الحرية إلا بالدم..

المراجع

١ ـ محمد عبدالله عنان «قضايا التاريخ الكبرى». أو أشهر المحاكمات والجرائم. القاهرة ١٩٢٥.

٢ ـ هاني الخيّر «أشهر الاغتيالات السياسية في العالم». الجزء الأول. دار الكتاب العربي. دمشق ١٩٨٥. ص ١١ ـ ١٥.

٣ ـ مجلة «الشرطة» (السورية). تقديم المساعد الأول حسن محمد الخطيب. السنة الثامنة. العدد ٨٧. يناير ١٩٧٣. ص ٣٨ ـ ٣٩.

محاكمة الماريشال بيتان
بين المجد والخيانة

قليلون جداً أولئك الرجال الذين يجبرون التاريخ على احترامهم، رغم الكثير من أخطائهم؛ ويضطر العظماء والقادة أن يحنوا هاماتهم أمام أمثال هؤلاء القلّة من الرجال. وطبيعي أن يكون الماريشال الفرنسي «فيليب بيتان Philippe Petain» أحد هؤلاء العظماء الذين يقدرّهم الأعداء قبل الأصدقاء، رغم تعاونه مع المانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية، وتهمة «الخيانة العظمى» التي كلفته أطول محاكمة لرئيس وقائد في التاريخ.

فمن هو الماريشال بيتان؟ وما هي أسرار محاكمته الشهيرة؟.

ولد فيليب بيتان في «كوشي آلا تور Cauchi - a - la - Tour». وكان من أصل فلاحي. تخرّج من كلية «سان سير» العسكرية عام ١٨٧٨ (وهو من مواليد ١٨٥٦). تسلّم بعدها عدداً من المناصب القيادية في الجيش الفرنسي، وأثبت تفوّقه وبراعته في معركة ڤردان سنة ١٩١٦ في الحرب العالمية الأولى، والتي مرت فيها معظم فرق الجيش تحت قيادته. وفي العام ١٩٢٥ استدعي بيتان الى المغرب لمجابهة الوضع العسكري المتدهور على أثر ثورة الريف. ولقد بقي حتى عام ١٩٣١ نائباً لرئيس مجلس الحرب الأعلى وهيئة التفتيش الأعلى للجيش، حيث كان شارل ديغول من أقرب مساعديه. ثم شغل من عام ١٩٣١ حتى ١٩٣٤ منصب المفتش العام للدفاع الجوي في البلاد. وبعد أحداث ٦ فبراير ١٩٣٤ اختاره «دوميرغ» وزيراً للدفاع، فانخرط بيتان منذ ذلك الوقت في الحياة السياسية. وفي عام ١٩٣٩

عيّن سفيراً في اسبانيا. وبعد نكسات ١٩٤٠ في مطلع الحرب العالمية الثانية استدعي بيتان ليكون نائباً لرئيس الحكومة، ثم غدا رئيساً لها في ١٦ يونيو ١٩٤٠.

وبعد هزيمة فرنسا أمام القوات الالمانية، رفض بيتان متابعة القتال في أفريقيا، وطلب عقد هدنة مع الألمان في ١٧ يونيو. وبعد هذا القرار، اجتمع مجلس النواب الفرنسي في ڤيشي Vichy بتاريخ ١٠ يوليو، ومنح السلطة الدستورية لحكومة الجمهورية برئاسة بيتان الذي تحمّل منذ ١١ يوليو مسؤولية رئيس الحكومة الفرنسية. وفي ٢٤ اكتوبر قابل أدولف هتلر في «مونتوار» وعبّر له عن رغبته في تنفيذ سياسة وفاق مع المانيا.

إزاء ذلك، اعتبر الماريشال بيتان متعاوناً مع العدو، وهوجم بعنف من قبل الفرنسيين الأحرار المتجمعين في لندن تحت قيادة الجنرال ديغول، والذين تصاعدت هيبتهم والتفاف الفرنسيين حولهم بسبب تصرفات الألمان الخاطئة في فرنسا...

وكان لابد من المحاكمة؛ فكانت محاكمته أطول محاكمة رئيس وقائد في التاريخ. وفي الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٤٥ بدأت محاكمة الماريشال بيتان ـ بطل ڤردان Verdun قبل أن يصبح رجل ڤيشي Vichy ـ واستمرت حتى الساعة الرابعة فجر يوم الأربعاء ١٥ آب/أغسطس من دون انقطاع، خلال الدوام وبعده، لأكثر من سبعين جلسة خصّصت للمناقشات العامة، ولسماع شهود الحق، ثم شهود الدفاع، مطالعة النيابة العامة، مرافعات وكلاء الدفاع، مذاكرة لجنة المحلفين فإصدار الحكم...

دقت الساعة الثانية عشرة ظهراً في برج قصر العدل في باريس، وكأنها صدى رنين أجراس حزن يتردد في قباب ما فوق نهر السين Seine.

بدت العدلية، وكأنها ساحة حرب؛ مئات من العناصر العسكرية، من المظليين والحرس الجمهوري وضباط الأمن العام يحاصرون المبنى بشريط

من المسلحين، يدقّقون في هويات المارة، وفي تراخيص حضور الجلسة. أما السبب في ذلك فهو سريان الإشاعات المتناقضة عن محاولة اغتيال القائد الأسير في أثناء المحاكمة، ومحاولة اختطافه لإنقاذه.

وأما القاعة، فمحكمة الاستئناف الفخمة، ذات السقف الفخم المزركش واللوحات الرائعة، تبدو وكأنها في القرن السابع عشر، مع بعض الترتيبات المتخذة لتأمين حسن سير العدالة.

حشد من المشاهدين توافد منذ الصباح الباكر لمتابعة المحاكمة، من دبلوماسيين، ومراسلي الصحف المحلية والأجنبية، والمصوّرين... والحاضرون الباقون ينتمون فقط إما الى اليسار أو الى اليمين؛ والفريقان يتبادلان المنشورات داخل القاعة، بحيث بدت وكأنها مركز تجمع انتخابي.

الديغوليون غائبون، يلملمون آثار الخراب والدمار في العاصمة، ويستعدون للإنتخابات التشريعية الأولى بعد الحرب، في شهر اكتوبر المقبل، وقد تبنوا موقف محرر فرنساالجنرال شارل ديغول، المنتصر الأكبر الذي أبدى امتعاضه وقلقه من الإسراع في محاكمة بيتان، قبل أن تلتئم الجراح، مما يزيد الخلافات والانقسامات في الصفوف الواحدة. والجنرال ديغول هو من المعجبين بشخصية القائد الأسير منذ أن كان تلميذه في كلية «سان سير» العسكرية، وبعد أن رافقه كضابط برتبة ملازم أول في معارك آراس Arrass، وفردان خلال الحرب العالمية الأولى، وكان رئيساً للفرقة العسكرية التابعة للماريشال، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، كما التقاه سراً في باريس بعد ذلك كرئيس لفرنسا قبل سقوط العاصمة والاجتياح الالماني.

أما محامو الدفاع فكلهم متطوعون، وهم من أشهر المحامين في فرنسا. وقد تميز بينهم المحامي الشاب ذو الثلاثين من عمره الأستاذ «إيزوردي Isordi» الذي اكتسب شهرة واسعة في أثناء سير المحاكمات ومناقشة الشهود والمرافعات، واستأثر بإعجاب الماريشال بيتان نفسه.

المحلّفون سبعة وعشرون، اختيروا من بين القوائم الرسمية، بحضور وكلاء الدفاع، بعد التأكد من نزاهتهم واعتدالهم وتجرّدهم وحيادهم. محكمة أمن الدولة، المنشأة خصيصاً لمحاكمة المتعاونين مع القوات الألمانية والخونة والعملاء، مؤلفة من ثلاثة قضاة، برئاسة الرئيس الأول لمحكمة التمييز «مونجيبو Mongibeaux» الذي أقسم اليمين أمام الماريشال بيتان، سابقاً، عندما تولى المركز القضائي الأعلى، فلا هو نسي ذلك، ولا الماريشال الذي يحاكم من قبل من عيّنه يمكنه أن ينسى.

«أدخلوا المتهم». . .

قالها رئيس المحكمة لقائد الفصيلة الخاصة التي تتولى حراسة الموقوف، ففتح باب الغرفة الملاصقة للمحكمة. وحبس الموجودون أنفاسهم، ثم خرج العسكري الأقدم رتبة في فرنسا، ذو القامة الفارعة المديدة، تزين صدره أوسمة الاستحقاق، وتعلو هامته القبعة العسكرية ـ المذهبة اللون ـ ويبدو رغم ثقل السنين عليه، بكل صفاء واطمئنان. ومشى باتجاه المقعد الفخم الذي خصص له في موقع الاتهام نظراً لمكانته.

وما كاد الرجل يدخل، حتى وقف الجميع عفوياً، احتراماً له، ودون أن يعرف أحد لماذا وقف احتراماً لضابط يساق للمحاكمة.

فتحت المحاكمة علناً! قال رئيس المحكمة بعدما دقّت المطرقة القضائية خشبة القوس ثلاث مرات، وبعد أن نبّه الرئيس الحضور الى وجوب التزام الصمت والهدوء، تحت طائلة إخراجهم من القاعة. وبدأ النائب العام يتلو باختصار، الإدعاء العام، وأسماء الشهود، إنه القاضي «مورنيه Mornet» الملقب بالرجل الحديدي، لتمرّسه في مهنته، ولفصاحته في الخطابة، ولكنه ارتكب خطأ مهنياً، بتصريحه قبل المحاكمة لمراسل جريدة «فرانس سوار France Soir» اليسارية أنه سيطالب برأس المتهم العجوز، وسيناله، وهذا ما تناوله محامو الدفاع في انتقادهم للمطالعة.

ـ اسمك، عمرك، مهنتك؟ سأل الرئيس السؤال التقليدي حفاظاً على أصول المحكمة.

ـ الماريشال فيليب بيتان، مواليد عام ١٨٥٦ رئيس الدولة الفرنسية سابقاً.

ذلك أنه عند تسلّمه مقاليد الحكم بعد الرئيس «ألبير لوبران Albert Le Brun» واحتلال المانيا لاثنتين وثلاثين مقاطعة فرنسية، وانكفاء الحكومة في فيشي، لم يشأ بيتان تسمية ما كان تحت إشرافه شخصياً باسم الجمهورية الفرنسية، في هذه الحالة التي كانت عليها البلاد.

ـ ليتلى قرار الاتهام! قال الرئيس، بعدما نبّه الماريشال الى ضرورة الاستماع للقرار.

وتناول أحد المستشارين كراساً ضخماً صادراً عن هيئة الإحالة، واستغرق في تلاوته وقتاً ليس بالقصير، مما أزعج الموقوف ووكلاءه، خاصة للمتناقضات الواردة فيه، ولتكرار الوقائع، ولخروجه أحياناً عن الموضوع، ولاحتوائه تفاصيل لا فائدة منها.

وأخيراً انتهت التلاوة، وسأل الرئيس وكلاء المتهم كما سأله عما اذا كان له من تعليق.

ـ لن أجيب على هذا السؤال، كما أنني لن أطلب شيئاً أثناء المحاكمة، ولن أرد على أي سؤال. وإنني في ضميري وقناعتي، أحتكم الى فرنسا والتاريخ، وهما ينصفاني بعدالة من نوع آخر.

هكذا وطيلة المحاكمة، لزم الماريشال الصمت الكامل المطبق، حتى عند استماع شهود الدفاع، كما أن المحكمة وهيئة المحلفين والنائب العام، احترموا كلامه ولم يوجه إليه أحد أي سؤال، وكأنه أدرك أن سياسة التزام الصمت هي خير وسيلة للدفاع، كما تقر ذلك اليوم، أساليب المرافعة.

ويقفز المحامي الشاب، الاستاذ «إيزوردي» من مقعده، ليصل الى أمام المنصّة القضائية طالباً قبل السير في المحاكمة بتّ الدفع الشكلي الذي أدلى به، بكل براعة ودهاء لجهة عدم صلاحية المحكمة الحاضرة للنظر في الدعوى، لأن موكله رئيس دولة، تجب محاكمته وفق دستور ١٨٧٥ الذي لا يزال قائماً، أمام محكمة رؤساء الجمهورية، التي تتألف حكماً من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وإنه لا يخضع بالتالي لمحكمة أمن الدولة الخاصة التي شكلت على عجل، خاصة بالنسبة للمحلفين الذين سيقررون مصير موكله. وتختلي المحكمة للمذاكرة، مدة نصف ساعة، لتعود بعدها مع قرار ردّ الدفاع الشكلي وإعلان اختصاص المحكمة على إعتبار أنها مقيدة بإحالة الهيئة الاتهامية القرار إليها، واعتبار أن وضع يد المحكمة على الدعوى هو بحكم المبرم؛ ويطلب «إيزوردي» تدوين كل ذلك في محضر المحاكمة.

ويتوالى الشهود يدلون بإفاداتهم وهم ليسوا فقط من كبار رجالات فرنسا، بل جزء من تاريخ فرنسا، قبل التحرير:

ـ ألبير لوبران ـ رئيس الجمهورية في بداية الحرب العالمية الثانية الذي سلّم مقاليد الرئاسة، بعد استقالته عام ١٩٤٠ الى الماريشال بيتان.

ـ بول رينو Paul Reynaud رئيس مجلس وزراء فرنسا، في حكومة الرئيس لوبران الذي استدعى من تلقاء ذاته الماريشال بيتان الذي كان آنذاك سفيراً لفرنسا في اسبانيا، باعتباره المنقذ، وذلك بتاريخ ٣٠/ ٣/ ١٩٤٠، وأدخله في الوزارة.

ـ جول جانّيني Jules Janneny رئيس مجلس الشيوخ الذي أشرف بتاريخ ١٠ يوليو ١٩٤٠ على انتخاب المتهم رئيساً للجمهورية الفرنسية بغالبية خمسمائة وسبعين صوتاً ضد ثمانين معارضاً فقط، وقد أكد أن الانتخاب حصل بكل نزاهة ودون أي ضغط، وكأن الرئيس الجديد آخر خشبة للخلاص.

ـ بيار لاڤال Pierre Laval الشهير بتعامله مع الألمان، والحاكم بأمره

في الوزارة الجديدة التي ترأسها في فيشي، والذي مارس ضغوطات شديدة على الماريشال، وكان هو أيضاً متهماً، وحكم عليه بالإعدام ونفذ به.

ـ أدوار دالاديه Edward Daladier المعروف برجل ميونيخ، عند عقد الاجتماع قبل الحرب بين الفوهرر هتلر ورئيس وزراء انكلترا تشمبرلن Chamberlain وقد لعب دوراً كبيراً في إرجاء ساعة الصفر، بتأجيل إعلان الحرب.

ـ ليون بلوم Léon Blum الرجل السياسي، والوزير في عدة وزارات قبل الحرب، وكان بيتان من عداد أعضائها، واقتصرت إفادته على ما قبل ڤيشي.

ـ الجنرال مكسيم ويغان Maxime Wegand الذي استدعاه الرئيس بيتان من قيادة قوات الشرق في لبنان وسوريا ليسانده ويتسلم حقيبة وزارة الدفاع، ولم يكن حظ ويغان بأحسن من حال بيتان، اذ حوكم هو أيضاً بتهمة الخيانة العظمى.

وبقيت أسئلة كثيرة بدون جواب، وحتى اليوم حول الماريشال بيتان وتصرفاته التي يبرر أكثرها البعض.

وكانت الجلسة الأخيرة...

الجو مكهرب ومشحون، والنفوس قلقة وحذرة، والإشاعات تملأ القاعة، والجو حار حار... لقد اختلت لجنة المحلّفين بعد أن أوضح رئيس المحكمة مهمتها لتقرير مصير الماريشال العجوز، الذي كان يبدو حتى هذه الساعة، بارد الأعصاب، وكأن الأمر لا يعنيه. وضاق الجمهور صبراً، اذ انقضى وقت طويل على انسحاب المحلفين الى الغرفة السرّية المخصّصة لهم.

أكثر من تسع ساعات، قضاها هؤلاء في المداولة والمذاكرة.

وأخيراً دخل المحلفون القاعة يتقدمهم كبيرهم وهو يحمل في يده ورقة عادية موقّعة من المجتمعين. وأعلن:

القرار: الإعدام بأربعة عشر صوتاً، مقابل ثلاثة عشرة طلبوا الإعتقال، أي بفارق صوت واحد.

التوصية: استدعاء الرحمة من الرئيس شارل ديغول لاستبدال العقوبة. وبعد أن أخذ الرئيس جواب المحلفين الخطي ووضعه في الملف، أعلن صدور الحكم القضائي، فوقف الجميع، بمن فيهم المتهم، وصدر القرار التالي:

باسم الشعب الفرنسي
. . . ولهذه الأسباب

حكمت المحكمة بإعدام فيليب بيتان، ماريشال فرنسا سابقاً، وبتجريده امن حقوقه المدنية والعسكرية، وبمصادرة ممتلكاته.

والتفت الرئيس الى الحرس قائلاً لهم: أعيدوا المحكومُ عليه الى مكانه.

ولم يدم الوقت طويلاً، إذ أصدر الجنرال ديغول أمراً بالعفو عنه بعد يومين فقط، واستبدل العقوبة بالنفي الى جزيرة ـ يو Yeu ـ حيث توفي بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٥١، بعد أن أجبر التاريخ على تسجيل صفحات مؤثرة في سجله العسكري، يصعب محوها منه بسهولة، بل يستحيل ذلك.

المراجع

١ ـ الموسوعة العسكرية بإشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٧. ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٢ ـ مجلة «الجيش» (تصدر شهرياً عن قيادة الجيش اللبناني/ مديرية التوجيه). العدد ٢٠. السنة الثالثة. يوليو ١٩٨٦. ص ٣٤ ـ ٣٦

مارغريت آندريان

و "دماغها الإجرامي" في القرن العشرين.

لعبت مارغريت آندريان دوراً هاماً في تاريخ الجاسوسية في القرن العشرين ، حتى أنها تفوّقت في هذا المضمار على الكثيرين من الرجال الذين انخرطوا في هذا "السلك"،وقد وصل يها الأمر إلى أن يطلق عليها لقب "اكبر دماغ إجرامي " في هذا القرن .

فمن هي مارغريت آندريان هذه؟ وماذا تمثل في عالم المخابرات والجاسوسية ؟ ولماذا أطلق عليها هذا اللقب ؟

المسرح: الشاطئ الابيض في طنجة .

الزمن :ليلة مظلمة من ليالي صيف عام ١٩٤٧ .

كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريباً عندما كان إثنان من السائحين البريطانيين يسيران بخطوات مترنّحة على طوال الشاطئ الرملي ، يتنــزهان لملء رئتيهما من هواء البحر المالح ، ويتحدثان فيما بينهما بلهجة ملؤها الإنفعالات . وكان من ينظر اليهما يحكم مباشرة بأنهما قد تناولا كثيراً من المشروبات الروحية المتنوعة ، ذلك لأنهما كانا يتأرجحان ويصطدمان بينما كان ضوء المصابيح اليدوية الصغيرة التي كانا يحملانها بهدف إضاءة الطريق بينهما يذهب بعيداً لينير أمواج البحر المتكسرة على مسافة ليست بالبعيدة عن موقع أقدامهما .

وكان تقدمهما المتعب يثير فيهما الضحك بين آونة وأخرى ، وبقي شأنهما كذلك الى أن وقعت أبصارهما فجأة على تلك الجثة التي قذف بها البحر الى الشاطىء ،والتي كان زبد الأمواج الأبيض يحيط بها وكأنه ستارة لتغطيتها . وعندئذ توقف كل من الصديقين ،وانحنيا الى الأمام وهما يتأرجحان قليلاً ليتأملا الجثة ، إنها إمرأة ترتدي الملابس الأوروبية، وكان هدير الموج يعبث بشعرها القصير فيجعله شبيهاً بنبتات البحر الذهبية. وانقضت لحظة وهما يجهلان أنهما أمام الجثة القتيلة ، الى أن اقتربا بوجهيهما من وجه الجثة وحدقا بأبصارهما التي وقعت على فتحة تشوه الرأس، وعندئذ صرخ أحدهما بصوت مرتجف _ يا إلهي!

بينما أدار الآخر ظهره ليتقيأ مفرغاً ما احتوته معدته.

بعد ذلك بساعات قليلة كان إثنان من الأطباء يعكفان على تفحص الجثة الممددة فوق المشرحة، وكانت تقديراتهما تشير إلى أنه مر ثلاثة أيام على وجود الجثة في البحر. وكان الوجه مشوهاً، فالأنف مصاب بكسر، بالإضافة إلى جروح أخرى، ولكن الضربة القاتلة حدثت بواسطة اداة ثقيلة، كمطرقة مثلاً تم تسديدها على الرأس من الخلف، مما أحدث فجوة في مؤخرة الجمجمة.

ولم تكن القتيلة فتاة شابة، ولكن يبدو إنها على جانب كبير من الجمال على الرغم من الجراح المريعة.

بينما كان الأطباء مستمرين في تشريح الجثة، كان رجال الشرطة في طنجة يقومون بتحرياتهم لمعرفة هوية صاحبة الجثة. ولقد ابتدأت العملية ببعض الصعوبات، ولكن تفحص الآثار وكذلك الصور التي كانت تتضمنها ملفات الشرطة كشفت النقاب عن صاحبة الجثة التي لم تكن سوى الكونتيسة مارغريت دي آندريان، وهو إمرأة معروفة في كثير من البلدان كجاسوسة، وكعميلة مزدوجة ذكية جداً.

وقد زاولت عملها في الجاسوسية خلال ثلاثين عاماً تخلّلها حربان عالميتان _ وكان عملها لصالح عدد من الرؤساء _ هذه المرأة القاسية القلب التي ولدت لتكون متآمرة ووصفتها السلطات المسؤولة بأخطر إمرأة تجد لنفسها مكاناً في أرقى الأوساط الإجتماعية أينما حلت .

ومن تقارير الشرطة الدولية، أمكن استخراج تقرير عن نشاط هذه المرأة التي سببت في وفاة أو إخفاء خمسة وعشرين شخصاً في ظروف غامضة. ولكنه في هذه الأثناء، وفي كل هذه الظروف، كان من الصعب توجيه أي إتهام بسبب فقدان الأدلة.

فلقد كانت الشرطة الفرنسية تعتبر مارغريت دي آندريان كأخطر دماغ إجرامي في عصرنا الحاضر، وقد أمكن جمع إضبارة متممة عنها، وكانت هذه الإضبارة تتضمن أربع حوادث إغتيال سياسي فقط.

ويندر أن يرى مصنف أكثر سواداً لجواسيس القرن العشرين من ذلك المصنف الذي يتضمن سيرة هذه الكونتيس، امرأة لا تخاف شيئاً، تتمتع بخيال خصب، محرومة من الضمير، كما أن الحنان لم يعرف الطريق الى قلبها ، وإذا ما صادفت وأحبت إنساناً فلن يكون ذلك إلا حباً لذاهّا، وبالإضافة الى ذلك فهي ذات مهارة لا تقل عن مهارة لوكريس بورجيا في مجال استخدام السموم.

ومما يروى عن مارغريت أنها صرخت أمام أحد عشاقها بالتالي :

إنني ذات مزاج خاص، كما إنني متقلبة العواطف مضطربة ، ولذا فليس باستطاعتي أن أكون أكثر من مجرمة كبيرة . ولا شيء يضايقني قدر تلك العواطف الأبوية التي يلهو بها الأخرون كما أن الشيء الوحيد الذي تثور له شخصيتي هو الإستمتاع بجثة رجل ميت ، وتنحصر تسليتي الوحيدة في تجاوز الآخرين والتقدم عليهم.

ولدت مارغريت في بايون في عام ١٨٩٥، وأصبحت تتكلم اللغتين الإفرنسية والإسبانية بطلاقة وهي لا تزال طفلة صغيرة .
وكان أبوها يعمل كاتب عدل، وكان يبذل جهده لتأمين إحتياجات العائلة، وكان ملكياً متحمساً، وكان يكرس كل فراغه وإمكانياته لانتصار أعمال الإصلاح التي تقوم بها الدولة الفرنسية.

ولم تكن المواضيع السياسية لتثير مطلقاً إهتمام الفنانة الصغيرة الممتلئة نشاطاً وحيوية، بل كانت تجد لذهّا في التصرف على هواها وتعمل على الإيقاع بين رفاقها ورفيقاها ناصبة شراك المكائد فيما بينهم، وبذلك تتمكن من مزاولة كل أنواع قسوها عليهم .

وفي ذات يوم ضايقها أحد غلمان القرية عندما سخر منها، وعندئذ ألّحت عليه ليرافقها الى الشاطىء كي يسبحا معاً. وهناك جذبته الى الأسفل لتغرقه. وكاد الغلام يغرق لولا أن رآهما صياد كان يمر من هناك فألقى بنفسه في الماء لينقذ الضحية التي كانت قد غابت عن وعيها. أما بالنسبة لأمومة الفتاة مارغريت وتربيتها فإن العائلة لم تقدم لها العون الكافي أثناء سني تكونها وإدراكها إذ كانت الأم فتاة شابة وجميلة ومغرية جداً هجر زوجها وإبنتها للبحث عن سعادها بين أحضان العديد من عشاقها الذين كانوا يقدمون إليها العواطف الحارة والمجوهرات، ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك السبب هو الذي ترك تلك الهوة السحيقة في حياة الفتاة الصغيرة التي كان حظها من أمها الإهمال وعدم الإهتمام .

وهناك بعض الأدلة التي تشير الى أن هذه الفتاة الصغيرة مارغريت لم تحاول مطلقاً أن تتعرف على السبب الذي كان يباعد بينها وبين والدها في الوقت الذي كانت تحتاج الى حب أمها وحمايتها لها، ذلك لأنها كانت تتقدم نحو النضج بسرعة كبيرة من الناحيتين الجسمية والعقلية.

ففي ذلك العمر وفي الوقت الذي تعتاد فيه الفتيات الصغيرات على الذهاب الى أسرة تحيط بهم رعاية الأبوين وإهتمامهم ، كانت الفتاة مارغريت تتبادل الأشربة الروحية وتدخن لفافات التبغ وتقضي لياليها راقصة مع رفاقها في المقاهي المتراصة على طول الرصيف. وكانت تلك التصرفات تثير غضب الأب المتكاسر الذي كان عاجزاً عن كبح جماح إبنته. وكان الجوار والأصدقاء يسلقون هذه العائلة بألسنتهم، ولذا فلم يكن حدثاً مفاجئاً لهم عندما علموا أن مارغريت التي لا يزيد عمرها عن الخمسة عشرة عاماً فرت مع ملازم شاب ينتسب الى سلاح الفرسان.

وعثر الأب ورجال الشرطة على العاشقين في باريس أخيراً بعد أن كان الملازم الشاب ومارغريت قد تقدما بطلب لإعلان زواجهما، ولكن ذلك لم ينفعهما في شيء لأن الفتاة كانت لا تزال قاصراً، كما أن والدها كان حزم أمره على تجنب أي فضيحة في العائلة . وكان عليها أن تطيعه، هذا ما صرحت به، ثم عادت مع أبيها الى بايون.

ثم أصبحت الفتاة ملزمة بإطاعة أوامر أبيها، ومجبرة على البقاء في المنزل، ولكن ذلك لم يمنعها من إتخاذ قرار حاسم في ركوب أول مغامرة تسمح بها الظروف ولن تنتظر بعد ذلك طويلاً قدوم تلك المناسبة.

بعد ذلك بعدة أشهر ، وأثناء فصل الخريف عام ١٩١١، ذهبت مارغريت للإسهام بحفل راقص تقيمه البحرية ، وهناك تقابلت مع

الكونت بيير د . آندريان. وعلى الرغم من فارق العمر إذ كان يكبرها بعدد من السنين فلقد رغب بها كثيراً وأغراه جمالها كثيراً وما تتمتع به من الحيوية والخيال. وفرح والد مارغريت بهذا التعارف طالما أن الكونت كان غنياً، فقد كان هذا الرجل هو الملائم لكبح جماح تلك الفتاة .

وتقدم بيير بشكل رسمي طالباً يد الفتاة، واستلمت الفتاة من أبيها هدية رمزية "كدوطة" مشفوعة ببركاته وتمنياته. وشهدت كنيسة بايون حفلة الزفاف الكبرى.

كان الكونت محباً للأسفار بفطرته ولذا فرح فرحاً شديداً وهو يرافق زوجته الشابة ليطلعها على أسرار العالم.

فقاما بزيارة للعديد من المدن والعواصم الأوروبية ثم اتجها بحراً الى أميركا الى أن ذهبا بعد ذلك الى الأرجنتين . ومن هناك الى البرازيل . وفتنت مارغريت بجمال هذين البلدين الأخيرين.

وكان الزوج رجلاً أنيقاً وصاحب تقاليد نبيلة رفيعة ولذا فسرعان ما أصبحت الفتاة إمرأة جميلة جداً وأنيقة جداً.

وفي عام ١٩١٤ عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، كان الكونت والكونتيسة آندريان يقيمان في مصر. وانقضى عام على إقامتهما هناك قبل أن يتعرف بيير وزوجته مارغريت أثناء حفل إستقبال دبلوماسي في القاهرة على ملازم إنكليزي خجول ذي تربية

رفيعة. وكان الملازم يعرف باسم ت.او.لورانس الذي إشتهر فيما بعد باسم لورانس العرب . وقد كان يعمل في تلك الفترة على التعرف على أولئك المصريين الذين يلعبون دوراً هاماً في الأوساط الوطنية . وما عليك إلا أن تكتسبي صداقتهم وثقتهم، وبذلك ستتمكنين من الحصول على أسرارهم التي نحن بحاجة إليها، وذلك بالإضافة لنشاطهم المعادي لبريطانيا والذي ستتمكنين من الحصول عليه لمصلحتنا.

تلقت مارغريت بعد ذلك تعليمات الجنرال جيل بيرت كلايتون رئيس منظمة الإستخبارات البريطانية للأمور السياسية والعسكرية . وكانت تجيب على أسئلته بصراحة ووضوح كما تصغي إليه بانتباه وهو يشرح لها دقائق مغامراتها الأولى في ميدان الجاسوسية. ويبدو أن كلايتون قد هنأ لورانس على حسن اختياره ، كما صرح أمامه بأن الكونتيسة كانت صبية جميلة رائعة وذكية.

أصبحت السيدة مارغريت دي آندريان بعد ذلك بثلاثة أشهر خليلة سعد زغلول باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر، وقد شوهدت برفقة عشيقها في كل مكان في حفلات الإستقبال وفي المسارح وفي حفلات السبق. ولقد إنتشر خبر هذه العلاقة التي لم تحاول إخفاءها، كما ذاع صيتها في جميع الأوساط، وعلى الرغم من ذلك كله فقط بقي الكونت صامتاً. فلقد أثمرت فعاليات واتصالات مارغريت ثمارها كما كان يتوقع، وكان لها أفضل النتائج.

ذلك منذ البداية ، يحسن العودة الى العام ١٩١٦ عندما داهم رجال المباحث البريطانية مع الشرطة المصرية أحد المنازل التي تقع في ضاحية من ضواحي بور سعيد ، حيث تم إكتشاف مستودع ضخم للأسلحة كما أمكن العثور على الوثائق التي وضعتها المنظمات المصرية السرية، وفيها مخطط تعطيل القناة في عدد من المناطق الإستراتيجية. وكانت هذه العملية بمثابة ضربة قوية لآمال الوطنيين نتج عنها إبعاد سعد زغلول باشا وإثنين من مساعديه الرئيسيين الى مالطا.

ولقد أمكن للصحف المصرية بسرعة من أن تربط العلاقة التي تصل بين هذه العملية وعلاقات زغلول باشا العاطفية بمارغريت، ولكن المراقبة أصدرت أمراً عاجلاً الى الصحف بعدم التعرض لإسم الكونتيسة وذلك بهدف المحافظة على مصلحة الأمن القومي .

وفي شهر أيلول من السنة ذاتها، قام رجال الشرطة باعتقال ثلاث رجال من الأتراك وإثنين من الألمان وهم يزاولون أعمال الجاسوسية. وكان في حوزت أحد الأتراك الثلاثة صورة مع الكونتيسة مارغريت أمام أهرامات الجيزة . وقد إعترف بحسرة ومرارة أنه كان يعرف الكونتيسة الجميلة الشقراء. ومما قاله: نعم كنا صديقين حميمين، وكانت تبدو لي وفية ، ولذا فلم يكن يخطر في مخيلتي إطلاقاً إنها ستعمل على خيانتي. وعملت المراقبة من جديد على منع الصحف من إثارة إسم الكونتيسة.

وخلال السنتين التاليتين ظهرت مارغريت في عدد من الأماكن الإستراتيجية من قلب شبه الجزيرة العربية، ذلك أن لورانس قد بعث بها في عام ١٩١٧ الى الرياض، المدينة التي كانت مقراً لابن سعود الذي كان لا يزال نشيطاً في حربه الرهيبة والمشهورة ضد الملك حسين ملك الحجاز .وكان من نتائج تلك المبارزة الدموية تعويض تلك المخططات التي وضعها الإنكليز من أجل كسب معركة الصحراء والقيام بالهجوم الذي كانت تجري الإستعدادات له ضد الأتراك للخطر.

وقامت مارغريت بدورها فحذرت الملك ابن سعود من أعدائه في العالم العربي وقدمت له الكثير من المعلومات الهامة،ووعدته بذهب الإنكليز فيما إذا تخلى عن حربه الصغيرة الخاصة تلك لينضم الى جانب الحلفاء ويحارب معهم. وكانت بذلك أول امرأة أوروبية تم قبولها للقيام بمثل هذه الأعمال الرفيعة.

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها إنتقلت الكونتيسة وزوجها الى دمشق، وبعد ذلك بأقل من سنة قدمت له مولوده الأول.

ولقد تساءل الأشخاص الذين يعرفونها جيداً عما إذا قررت التخلي نهائياً عن حياة المغامرات ام لا. ومهما كان من أمر فقط أصابهم

الذهول لتلك المفاجأة التي تركها الزوج وزوجته عندما قررا مغادرة دمشق مع إبنها الصغير لشراء فندق في تدمر من سوريا.

تدمر مدينة ورد ذكرها في التوراة ويعود تاريخها الى ١٢٠٠ سنة قبل ميلاد السيد المسيح، أما شهرتها الوحيدة في القرن العشرين فتعود الى موقعها الهام على مفترق الطرق الرئيسية لمرور القوافل التي تصل بين الشرق والغرب . ومنذ ١٧٠٠ سنة ، كانت تدمر نتيجة لموقعها الجغرافي هذا عاصمة لامبراطورية قوية تسيطر على المراكز الحيوية للشرق الأوسط بأكمله.

ولكنها في ذلك الوقت من عام ١٩٢٣ لم تكن سوى واحة صغيرة قذرة ضائعة في قلب الصحراء، ويندر أن تجد لها ذكراً على الخرائط الحديثة. كما كانت تلك المنازل المنتشرة ليست إلا أكواخاً صغيرة مبنية من الطين يلجأ اليها الأعراب. ولقد كان إنتقال عائلة الكونت الى تدمر موضوعاً تناقلته أحاديث الأوساط الدمشقية، كما أثار العديد من الأسئلة التي ترددت في أذهان ضباط الإستخبارات السرية البريطانية. وكانت هذه الأسئلة هي لماذا تم إختيار هذا المكان ؟ ولماذا ذهبت تلك الكونتيسة لتختبيء في تلك الزاوية المفقودة؟... ولقد عملت عائلة د. آندريان على إدارة ذلك الفندق الذي كان يعرف باسم فندق الملكة زنوبيا خلال تسعة أعوام طويلة. ولقد كان أثاث

شقة مارغريت الخاصة في هذا الفندق من المفروشات الضخمة، وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من الغرف الخاصة.

أما مفروشات ما تبقى من غرف نوم في الفندق فكانت بسيطة للغاية حتى يمكن القول أن الغرف كانت خالية ، ونتيجة لذلك فقد كانت الغرف الخاصة معدّة لنـــزول الأثرياء من الباحثين عن ينابيع البترول وكذلك مشايخ قبائل البدو وضباط الجيش الفرنسي المحتل، ومجموعة ممثلي الأعمال التجارية والذين كانوا يعملون لإخفاء مهماهم التي كانت تكلفهم بها القيادة العامة في موسكو وكانت المعلومات هي البضاعة التي تقوم الكونتيسة ببيعها كما كانت تعلن أمام زبائنها قائلة: إنني أقدم المعلومات بصورة شفهية دون تقديم أي نص كتابي، وبذلك فإننا نحتفظ لأنفسنا بحق رفض تأدية خدمتنا عندما نشاء.

وبذا فقط كانت تقوم ببيع المعلومات عن الوقائع والإحصاءات والحوادث لكل من كان على إستعداد لدفع الثمن نقضاً والى من يدفع الثمن الأكثر. ولم تكن تهتم بالأمور السياسية لأنها لم تكن تحمل الشعور الوطني الصحيح. ولذا فقد كانت منصفة في أداء الخدمات التي قدمتها الى المنظمات السرية بعدد من البلدان وذلك بقدر ما كان يسمح لها ضمير الوفاء لمهنتها التي احترفتها.

وفي هذه الفترة وقع الأمير فواز الشعلان في حب صاحبة الفندق الجميلة، فقام باصطحاب خليلته الى جوار تدمر لكي يظهر قوته ويجلب إنتباه الكونتيسة إليه. وبعد ذلك إنتحر ضابط شاب برتبة كابتن لأنها صدته عنها ، ولكن ... وبعد ذلك بأيام إنتشرت شائعة مفادها أن ذلك الضابط قد مات قتيلاً ، وإنه قد تكون هناك علاقة بين مؤامرات الجاسوسية وقتله.

ومما لا شك فيه أن مارغريت عملت في عام ١٩٢٥ بنشاط لمصلحة المكتب الثاني ، فلقد كان الفرنسيون بحاجة لخدمتها أثناء الثورة السورية ، كما كان الشيوعيون السوفييت يأملون بأن تعمل لمصلحتهم. وقام كل طرف من الأطراف بتقديم العقود لها، كما قامت هي بدورها في تقديم خدماتها لكلا الطرفين معاً. عاملة على خيانة الفرنسيين لصالح الروس وخيانة الروس لمصلحة الفرنسيين، وفي أثناء الثورة السورية، عقد ستة من زعماء العرب إجتماعاً في فندقها للقيام بمباحثات سرية ثم اختفى هؤلاء الزعماء فيما بعد فلم يعثر لهم على أثر، ولا يزال السوريون حتى يومنا هذا يذكرون بأن الكونتيسة قد نصبت ذلك الفخ الذي أوقعت فيه بزعمائهم ، ثم عملت على قتلهم.

ولقد اهتمت منظمات الإستخبارات الأميركية والبريطانية فيما بعد بأعمال ونشاط السيدة مارغريت المقيمة في قلب الصحراء المقفرة والمحرقة من بلاد العرب. وبعثوا بعملائهم للبحث في أثرها.

ولم تنشر تلك التقارير التي بعث بها هؤلاء المباحثيون ولكن هناك شيء ثابت أمكن معرفته.

هذا الشيء هو أن الكونتيسة هذه بعد أن أقامت خلال تسعة أعوام في هذه القرية المقفرة المجهولة تقريباً أصبحت تمتلك لرصيد ضخم جعلها على جانب كبير من الثراء .

بدأت الأوضاع السياسية في سوريا تستقر منذ عام ١٩٣٢، ولذا فإن منظمات الإستخبارات لم تعد بحاجة الى معلومات صاحبة الفندق التي بدأت تؤكد قائلة: لقد إكتفيت بذلك الدور الذي لعبته في فندق ملكة الصحراء. ثم بدأت تتعجل لنفض غبار تدمر الذي كان قد علق في أعتاب أحذيتها العالية منذ وقت طويل.

كما كانت مارغريت قد تعبت أيضاً من إبنها فعملت على إرساله الى أحد معاهد فرنسا. أما بالنسبة الى زوجها الكونت فلقد قضت الى جانبه وقتاً كافياً مما جعلها غير راغبة بوجوده الى جانبها لأكثر من ذلك ، فتظاهرت بإعلان إسلامها، وبذا أمكنها أن تحصل على المبرر

الذي لم يكن له في الواقع أية صلة بالدين وتمكنت بذلك من الإفتراق عن زوجها.

عندما بلغت السابعة والثلاثين من عمرها تزوجت من شاب عربي، إبن سليمان الذي كان يصغرها مقدار عشر سنوات تقريباً ولقد كتبت الى إبنها عن ذلك : إن والدك الجديد هو شخصية هامة جداً، إنه شيخ إحدى القبائل الكبيرة .

ولكن تحريات رجال المباحث ألقت الضوء بعد ذلك على الواقع ، فظهرت الحقيقة مخالفة لأقوالها. ذلك أن سليمان هذا لم يكن أكثر من رئيس لإحدى قبائل البدو الرحل ، وكان أُمياً تزوج بها مقابل مبلغ ثلاثين ألف فرانك نقدته إياها . وكان هدفها من زواجها هذا مرافقته الحج والدخول الى مكة، فلقد كانت مارغريت بحاجة الى مغامرات جديدة.

وركب الزوجان المتنافران شكلاً وموضوعاً على متن باخرة أوصلتهما الى جدة، ومن هناك استمرت الرحلة على ظهور الجمال. وأدركت مارغريت تماماً تلك الأخطار التي تتعرض لها اذا ما اكتشف أمرها وهي تدخل المدينة المقدسة. فلقد كان الموت عقوبة كل غريب "دنس " يدخل مكة . وكانت الرحلة قد أشرفت على نهايتها عندما تعرض لهم رجال لاحظوا إلتماع عيون مارغريت الزرقاء من فوق

خمارها ، فعملوا على إيقافها وطلبوا إليها الكشف عن وجهها . وللمرة الأولى في حياتها كان شعرها أشقراً ، وعيناها زرقاوان، وبشرتها صافية، تم إعتقالها ووضعت في السجن في قلب أحد الجبال لمدة أسبوع واحد كان المسؤولون العرب خلالها يتناقشون في أمر هذه السجينة.

أصيب إبن سليمان بمرض شديد أثناء سجن زوجته، فأخذ يتلوى ألماً خلال عدة ساعات ثم أضطجع لتلوه وهو يحتضر وفارق الحياة.

وكان الموت نتيجة لدس السم له . وعقد مجلس المحكمة المؤلف من أعضاء إحدى القبائل جلسته التي إستمع فيها بهدوء الى مارغريت وهي تصرح بأنها دخلت في دين الإسلام عن إخلاص وإيمان ، ولكن أعضاء المحكمة لم يقتنعوا إطلاقاً بأقوال النجسة التي قامت بدس السم لزوجها، مقترفة بذلك جريمة بشعة ، وأصدرت المحكمة حكمها على مارغريت رجماً حتى الموت، وذلك حسب العادات المتبعة في الصحراء منذ القديم.

وعندئذ إستخدمت مارغريت السلاحين الوحيدين اللذين تمتلكهما، سحرها ونقودها. فقامت بدفع مبلغ الى أحد الحراس العرب لكي يقوم بإعلام القنصل الفرنسي بجدة عن وضع تلك السجينة البائسة . وقام هذا الأخير بدوره فأعلم الملك ابن سعود الذي كان يذكر بحنين تلك اللحظات الحلوة التي كانا قد قضياها معاً، وعندئذ صدر الأمر بإطلاق سراح السجينة فوراً ، فلقد إنقضت لحظات طويلة وساعات ثقيلة من الإنتظار قبل أن تتمكن هذه المغامرة من مغادرة سجنها في الجبال .

وبعد سنتين من هذا الحادث الذي طوته زوايا النسيان ، كانت مارغريت تقيم من جديد في تدمر ، حيث عادت فتزوجت مرة أخرى من الكونت الذي كانت امارات الشيخوخة قد بدأت تظهر عليه.

وكان النازيون في هذه المرة هم رؤساء الكونتيسة الجدد، ذلك أن السلطات النازية كانت قد قررت إيجاد موضع قدم لها في سوريا،بهدف الإنقضاض على البريطانيين . وللوصول الى هذه الغاية ، فلقد بذلوا كافة جهودهم الممكنة لجمع زعماء القبائل من أجل العمل معهم من أجل إنشاء شبكات الجاسوسية .

لم يطل أمد زواج مارغريت من الكونت لفترة طويلة ، ففي صباح يوم من أيام عام ١٩٣٥فوجئ عد من عمال الفندق عندما شاهدوا جثة رئيسهم الكونت ممدده في المدخل الرئيسي للفندق ،بعد أن أثخن جسده بطعنات مدية يبلغ عددها التسعة عشرة طعنة. واهمت مارغريت مرة جديدة بأنها هي القاتلة، ولكنها نفت ذلك الجرم بحزم

ولقد صرحت أمام رجال الشرطة بقولها:

-ليست لدي أية فكرة عما حدث ، ويمكن أعتبار ذلك اليوم من الأيام الحافلة بالمتاعب بالنسبة لي، ولذا فإنني صعدت إلى شرفتي في وقت مبكر جداً.

ولقد أدلى ضابطان كانا مقيمين في الفندق باعترافات مختلفة وكان مما قالاه :

- إن السيدة الكونتيسة كاذبة في أقوالها ، فقد كنا جالسين أمام البار، ورأيناها وهي تغادر الفندق بعد العشاء بقليل، كما شهدناها وهي تعود بعد منتصف الليل، وسمعناها وهي تتناقش مع الكونت. وفي اليوم التالي تم إكتشاف جثة زوجها ، وبينما كنا نسير في الشارع على أقدامنا حاولت الكونتيسة أن تدهسنا بعربتها .

أما أقوال خدم الفندق من المواطنين السوريين، فكانت تتلخص بأنهم لم يلاحظوا أي شيء ولعل أقوالهم على هذه الصورة كانت نتيجة خشيتهم من الفصل عن عملهم، كما إنه من المحتمل بأن تكون الكونتيسة قد تمكنت من شراء صمتهم بالمال، وعلى ذلك فقد كانت الأدلة متضاربة ، وكان كل منها يدحض الآخر ، ونظراً لفقدان الأدلة الدامغة ، فلقد تم إخلاء سبيل الكونتيسة.

وبذا أصبحت حرة طليقة من جديد للقيام بمغامرات جديدة، ولقد عملت بعد ذلك على بيع الفندق، ثم إنتقلت الى فرنسا وأقامت في فيلا جديدة وجميلة جداً في هنداي. وتقع هذه المدينة على الحدود الفرنسية الإسبانية ، وقد أثبت إنتقاؤها

هذا بأنها ولا شك تتمتع بكفاءة نادرة لا مثيل لها في اختيار الأقاليم المضطربة ، وكانت تتمتع بأوضاع جيدة عندما اندلعت نيران الحرب الأهلية الإسبانية . وفي عام ١٩٣٩ حاولت بعض الصحف الباريسية التعرض الى نشاط مارغريت المشبوه ونشره على الجمهور وكانت عرضة للإتهامات التي نشرت ضدها بأنها تعمل لمصلحة النازية والفاشية الإسبانية والشيوعية.

وقد كانت في ذلك الوقت تعمل على توجيه القوافل المستمرة التي تحمل الأسلحة والذخائر والمعدات الطبية والأموال وحتى الرجال أيضاً ممن كانوا يذهبون ويعودون باستمرار عبر جبال البيرينه ، وراقب رجال الإستعلامات الفرنسية بكثير من الدهشة تلك السيارات الفخمة التي كانت تحمل اللوحات الأجنبية وهي تتوقف أمام فيلا الكونتيسة الأنيقة، وترددت الأسئلة والإستفهامات عن هذه الزيارات المشبوهة ، كما تواترت التساؤلات عن أسباب توقف بعد قادة الحزب الجمهوري من الكوت باسك عند فيلا الكونتيسة أثناء مرورهم عبر الحدود الإسبانية في زيارات مشبوهة ونشرت بعد الصحف صراحة بأن هذه المرأة تعمل على تهريب الأسلحة الى إسبانيا لتتلقى مقابل ذلك الذهب والمجوهرات. وقد طلب إليها ذات مرة الرد على هذه الإتهام والعمل على مهاجمة الصحف

المفترية، فما كان من الكونتيسة الشقراء الجميلة إلا أن أجابت وهي تضحك: إن الرد على الكلاب التي تنبح في السواقي دليل على الضعف وعلى قلة الجدارة . واحتلت القوات النازية هنداي ولم يبق هناك أي شك في تعامل الكونتيسة مع السلطات النازية حيث أصبحت الفيلا التي تمتلكها مركزاً للقيادة العامة الترفيهية للضباط الألمان الذي كانوا يتيهون بألبستهم العسكرية الملطخة بالدماء.

وكثيراً ما كان يطرق سمع الجوار صوت ضحكاتهم وصرخات البهيمة الممتزجة بالأغنيات التي كانت تنشدها الفتيات المتعاونات مع الكونتيسة والتي كانت تعمل على دعوتهن للتمتع برفقة ضباط الإحتلال.

ولكن... ومرة أخرى... إستبقت الكونتيسة الزمن ومجريات التاريخ، فقد شعرت بأن ، أيام هتلر المتبقية له قد أصبحت معدودة فأوصدت أبواب الفيلا الفرنسية واجتازت البحر الأبيض المتوسط لتقيم في الجزائر ، وكالمعتاد، ونظراً لعدم وجود الضمير بين جنبيها، فقد عملت على وضع ذاتها تحت تصرف منظمات الإستخبارات الفرنسية والبريطانية ونجحت كالمعتاد أيضاً بتقديم المعونة الأكيدة للقوات الحليفة ، كما تمكنت من جلب عدد من أنصار حكومة فيشي للعمل الى

جانب الجنرال ديغول . وعندما بدأ الإنزال في أفريقيا الشمالية تمكنت مارغريت من وضع الكثير من المعلومات السرية الهامة تحت تصرف قيادة القوات الحلفاء.

وفي عام ١٩٤٥ عند نهاية الحرب العالمية الثانية عادت مارغريت د. آندريان الى باريس حيث اختارت منزلاً لإقامتها فيه ، وكانت قد بدأت تظهر على قسماتها أثار الخمسين عاماً من عمرها الحافل. واعترفت الكونتيسة ذات يوم رغماً عن إرادتها أمام عدد من أصدقائها بأن إبنها جاك الذي أصبح الآن رجلاً يعمل كمحرر في إحدى صحف نيس وقد طلب إليها أن تعمل على نشر مذكراتها لدى إحدى دور النشر الباريسية وكانت إجابتها له بقولها : يا إلهي ؟ إنني لا أزال في بداية مرحلة شبابي لذا فإن العمل على نشر مذكراتي من الآن أمر مبكر جداً، إن حياتي لا تزال في بدايتها ، وعليّ أن أعيش الآن أفضل الفصول التي سأضيفها الى مذكراتي. عد الى رؤيتي بعد أربعين عاماً.

وكانت الأشهر التي تلت قدوم الكونتيسة الى باريس بمثابة عطلة إبتدأتها بإعادة تجديد شباب وجهها في إحدى مؤسسات التجميل ثم أتبعت ذلك بدور التربية الوطنية، وكانت تتردد على أفضل محلات الأزياء لتشتري أغلى الملبوسات وتقضي

أوقات فراغها على طول نهر السين وهي تصرف ببزخ وسخاوة. لقد إنبعثت إمرأة جديدة أكثر جمالاً من السابق وأكثر أناقة، وأكثر صفاء منها في أي وقت مضى ، وكان شعرها الأشقر الجميل الذي جعل منه الحلاق نموذجاً رائعاً للأناقة ليخفي تحته التجارب العريضة والمعارك الأخيرة عن الحياة.

وكان الرجال يعاودون المرور أمامها ليزدادوا تأملاً لجمالها. أما النساء فكنا ينظرن برغبة الى أثوابها الأنيقة الفاخرة، وأما رجال الصحافة فكانوا ينتظرون بصبر في سبيل أخذ موعد مع الكونتيسة للحصول على أنباء جديدة ، وأما رجال الشرطة فكانوا ينظرون إليها أيضاً بأعين ملؤها الحذر وبانتظار مرير موعد وقوع السيدة رقم واحد في مأزق جديد.

ولم يطل أمر انتظار رجال الشرطة طويلاً إذ تم العثور على محام لامع إسمه بيرس د.آلينيكورت وهو ميت في شقته نتيجة لتناول السم وكان ذلك في يوم من أيام شهر تموز عام ١٩٤٥ وكان كل من في المجتمع الباريسي يعرف بأنه كان من عشاق مارغريت. كما كان رجال الشرطة على اطلاع تام بانحرافات تلك المرأة الخطرة في بعض الأحيان. وعلى الرغم من القيام بتحريات دقيقة فإنهم كانوا عاجزين عن إيجاد الدليل الذي

يثبت شكوكهم فلقد كان إثبات القتل أسهل بكثير من إثبات هذه الحالة. بعد هذا الحادث بأربعة أشهر أصيب إبن أخ مارغريت وإسمه ريمون د.كليريس وله من العمر ستة وعشرين عاماً، بأزمة تشنجية حادة وذلك على أثر زيارته لعمته تمكن من بذل آخر قوة له قبل أن يموت، وكتب على بطاقة القطار التي كان يحملها عدة كلمات : إن السكاكر التي قدمتها لي- م- ذات تأثير غريب. ففي هذه المرة كان رجال شرطة باريس قد قرروا الوصول الى نهاية الشوط في تتبع أعمال هذه السيدة فمكثوا أياماً طويلة في استجواب الكونتيسة إستجواباً دقيقاً وقاسياً.

ولكن... وفي النهاية... كان لا بد لهم من الإعتراف بالمنطق السليم الذي كانت ترد فيه على الأسئلة التي طرحت عليها:"ولماذا أعمل على قتل هذا الغلام المسكين الذي لم يكن في حوزته شيء من النقود وموته لا يمكن أن يفيدني في شيء؟". ونتيجة لذلك فقد إضطر المحقق رغماً عن إرادته لإخلاء سبيلها من جديد ، وأحنى لها رأسه عندما كان ينظر إليها وهي تغادر مبنى الشرطة رافعة الرأس متزنة الخطوات ، وبعد ذلك بعام واحد عمل رجال الشرطة الباريسية بعد أن قرروا مجدداً على إعادة التحقيق في مقتل إبن أخيها ريمون كليريس وقد تم

إعتقالها من جديد بينما كانت تصب قدحاً من الكونياك في شقتها الأنيقة جداً التي تقع على الشاطىء اللازوردي.

وقد قالت لابنها جاك الذي كان برفقتها وهي تستدير للسير في أثر ضباط الشرطة المتجهين الى الباب الخارجي : يجب أن لا يزعجك هذا يا عزيزي جاك، فإنني أخشى أن يسبب لك الإزعاج آلاماً في المعدة عندئذ سيتهمني رجال الشرطة أيضاً بأنني قد وضعت لك السم. وقبعت الكونتيسة في قفص الإتهام وهي تبتسم إبتسامة عريضة لم تبتسم مثلها في أي يوم مضى، وكانت تجيب بهدوء على الأسئلة التي تطرح عليها، وتدفع بكافة الإتهامات التي قذفت بوجهها وهي تهز كتفيها ضاحكة من تلك الإتهامات، ومرة أخرى غادرت المحكمة وهي تتمتع بحريتها، ذلك لأن الأدلة التي أمكن جمعها لم تكن كافية لإثبات إدانتها.

وتعبت الكونتيسة من لعبة القطة والفأر مع الشرطة الفرنسية، فاشترت يختاً إسمه ماجلان وابتدأت تتمختر فيه عبر البحر الأبيض المتوسط جيئة وذهابا وكان هدفها الرئيسي الوصول الى البحر الأسود للقيام بالتماس الروس الذين أعلموها أنهم بحاجة إليها ، بينما استمرت الصحف على ترديد إسمها مرافقاً لتلك العمليات التي تقوم بها رجال العصابات

بالإضافة الى عمليات التهريب الأخرى والممنوعة ، كتهريب الذهب والأحجار الثمينة.

وألقى اليخت ماجلان مراسيه ذات يوم في ميناء طنجة الهادىء، وذلك بعد ظهر يوم الخامس من تشرين الثاني من عام ١٩٤٨، وغادر الركاب اليخت الى اليابسة بعد أن تركوا على ظهره الكونتيسة برفقتها إثنين من المدعوين كانا يحملان جوازات سفر بلجيكية ، وعندما عاد القبطان والبحارة الى اليخت كانت الكونتيسة وريناتو بونسيني وزوجته قد اختفوا الى أن عثر على الجسد بعد ثلاثة أيام فوق رمال الشاطىء . وبذلك قدمت مارغريت د.آندريان الى رجال الصحافة مرة أخرى أحداث قصة مثيرة وإستناداً الى ماضي الكونتيسة الحافل بالمغامرات ولقد حاول كل صحافي تصوير المشهد الأخير من حياتها على هواه.

ولقد قام جاك د. آندريان ابن الكونتيسة والذي لم يكن يحمل كبير عاطفة لأمه التي كان حظه منها الإهمال فكتب عدداً من القصص الطريفة الى حد ما عن حياة والدته، ولم يتردد مطلقاً عن كشف اللثام عن الأعمال التي مكنتها من إرتكاب إثنين وعشرين جريمة قتل، دون أن تتمكن تحريات الرجال الشرطة من الامساك بها وكان ذلك اللقب الذي أطلق عليها

أكبر دماغ إجرامي في العصر الحاضر هو من وضع إبن السيدة مارغريت.

بعد مقتل الكونتيسة بعدد من الأيام أمكن إعتقال كل من بونسيني وزوجته في الكازابلانكا حيث نقلا بعد ذلك الى طنجة للتحقيق معهما بتهمة قتل مضيفتهما الكونتيسة. وعندئذ أمكن إكتشاف سر جديد ذلك بأن هذين الإثنين لم يكونا زوجين، كما أنهما غير بلجيكيين ، وكان إسم الرجل هانز آبيل وهو نازي متطرف وعميل قديم من عملاء الغستابو ، وقد عمل هو وخليلته جيرما ايلين كيلز وبمساعدة الكونتيسة على تهريب فلذات الذهب الى داخل فرنسا . واعترفا أخيراً بأنهما دخلا في نقاش حاد مع الكونتيسة حول نصيبها من الأرباح، ثم أخذته حمية الغضب فجأة فقام هانز وصرع الكونتيسة بواسطة زجاجة الكونياك ثم ألقى بالجسد من فوق اليخت الى البحر، وجرت المرحلة الأخيرة في مذكرات الكونتيسة في ١٧ نيسان ١٩٤٩ عندما أصدرت المحكمة الفرنسية حكماً على هانز آبيل بالسجن لمدة عشرين عاماً، وعلى جيرما بالسجن لمدة عام واحد، وتنفيذاً للتقاليد المتبعة باحترام القانون الفرنسي فقد صدر الحكم أيضاً على كل من المتهمين بدفع الغرامة للتعويض على ورثة المتوفاة ، ولكن بما أنه قد تم وقوع الحادث عرضاً أي

بدون تصميم سابق فقد طلب الى كل من هانز وجيرما بدفع مبلغ فرنك فرنسي واحد عن كل منها، وكانت هذه هي الفضيحة الأخيرة في حياة الكونتيسة.

المرجع

١- كيرت سنجر "أعلام الجاسوسية العالمية" ص٢٥٩-٢٧٧.

"قطة " الجاسوسية

_ ميشيلان كاريه_

عمل عدداً من النساء دوراً بارزاً في تاريخ الجاسوسية على مرّ العصور. ولم تكن "ميشيلان كاريه" في فرنسا، إلا إحدى هذه النساء اللواتي تجاوزت سمعتهن حدود بلدها، كما تجاوزت حدود القارة الأوروبية فيما مثلته من مخاطر على صعيد العمل التجسسي في هذه القارة.

فمن هي ميشيلان كاريه هذه ؟ وما هو الدور الذي لعبته في هذا المضمار ؟

لا يزال كثيرون من الأشخاص _ في فرنسا _ يذكرون ذلك الإعلان الذي تم نشره وتعليقه على الجدران، والذي يتضمن صدور الحكم بالإعدام في يوم ٨ كانون الأول ١٩٤٨ على ميشيلان كاريه البالغة من العمر أربعين عاماً، وقد صدر الحكم عليها من قبل المحكمة الجنائية رقم ١٤.

وكانت هذه المرأة ، التي كشفت المحاكمات النقاب عن سيرتها، تحمل الإسم الذي إشتهرت به وهو القطة، وهي فتاة ذات بشرة سمراء جميلة وعينين جميلتين، وأسنان جميلة دقيقة بيضاء، وكانت القطة واحدة من أكبر جواسيس أوروبا.

أدلى العقيد مارسيل ، وهو أحد ضباط الإستخبارات ومن الذين لعبوا دوراً هاماً وحيوياً خلال الحرب العالمية الثانية، وكان عضواً في الشعبة الثانية_ المخابرات_ كما كان رئيساً لمنظمات إستخبارات الجنرال بول جوان أمام المحكمة بافادته التالية :

- لقد قامت السيدة كاريه بأداء خدمات جلى للجيش الفرنسي خلال السنوات التي قضتها في العمل معنا ، ولقد تمكنت من الحصول لنا على عدد من المخططات لمعارك الجيش الألماني وكان ذلك لمصلحتنا.

فلماذا صدر الحكم عليها بالموت من قبل محكمة فرنسية ؟...

لقد صدر الحكم عليها لأنها فعلت كما يفعل عدد من الجواسيس، عندما ينتقلون في عملهم من مصلحة بلد الى مصلحة بلد آخر. وليس ذلك بالأمر المعقد ، كما كان هناك أكثر من سبب دفعها لذلك كما يلي.

في عام ١٩٣٩ كانت ميشيلان كاريه ، مواليد بيلارد زوجة لضابط فرنسي مقيم في الجزائر ، وكان زوجها يدفع لها قليل النفقة مما إضطرها للعمل كمدرسة في إحدى القرى الصغيرة الواقعة في جنوب البلاد. وكان جوار السيدة كاريه وكذلك الفتيات الصغيرات اللواتي عرفتها

على حذر منها لأنهن وجدنها ذات تربية عالية وثقافة أكثر بكثير مما كانوا يتوقعونه فيها.

وكانت ترتدي ثياباً بسيطة لأن دخلها المحدود من عملها لم يكن ليسمح لها بأكثر من ذلك، ولكنها على الرغم من ذلك فإنها لم تكن لتعدم الوسيلة كي تبدو بمظهر أنيق ، ولو أن رجلاً قدم من العالم الخارجي ، ماراً بتلك القرية الضائعة في نهاية أعماق الجزائر، فإنه ولا شك سيتأكد حتماً من نجاح ميشيلان التي كان سلوكها مثالياً . وكان من الصعب الحكم على هذه المرأة ومعرفة ما إذا كانت سعيدة بوجودها في الجزائر أو إنها غير ذلك، ولكن من المعلوم تماماً بأنها قررت العودة الى باريس فور إعلان الحرب.

ولقد لعبت الظروف دورها في مساعدة تلك المرأة من أجل تحقيق مخططها، فقد كانت فرنسا في تلك الفترة بحاجة الى النساء من أجل تلبية إحتياجات الخدمة الصحية للجيش، ولذا تطوعت ميشيلان مباشرة للخدمة . وعندما حصلت أخيراً على بطاقتها وأصبح إذن العمل جاهزاً في جيبها، دفعت بزفرة عميقة من صدرها قائلة: لقد إبتدأت حياتي منذ الآن . هذا ما رددته في سرها، فكيف كانت تعرف ذلك؟... لقد كانت ميشيلان في الواقع بداية منذ ذلك اليوم تقوم بعملها اليومي ثم تنتهي بذكر وتدوين مذكراتها اليومية ، ولقد أتمت

هذه المذكرات فيما بعد وكانت تلك المذكرات بمثابة إعترافات تتكون منها وثيقة إنسانية نبيلة سمحت المناسبات والظروف بتكوينها.

وقبل أن تعود الى عملها، عاودت زيارة زوجها في الجزائر، والذي كان على أهبة الاستعداد للإلتحاق بالجبهة، ولم يكن ليشعر في خلده بأن هذا اللقاء سيكون آخر لقاء له بزوجته، ذلك أنه وقع قتيلاً بعد ذلك بقليل تحت وابل من رصاص الأعداء.

عندما وصلت ميشيلان الى باريس أقامت في فندق يقع في قلب المدينة، وقد كتبت في صحيفتها : أي بلاد هذه؟ وأية مدينة هذه ! إنه من الصعب تصور هؤلاء القذرين وهو يتمون إستيلاءهم على باريس، فالمباني التاريخية القديمة ، السين وأرصفته، نوتردام، قبة الأنفاليد، ونحن... إنني أرى هذه الأشياء جميعاً. الشوارع..! إنها الحياة... إنني أتنــــزه على طول الشوارع، وأجلس على رصيف هذا المقهى أو ذاك. وهذا ما يثير في نفسي أجمل المشاعر والأحاسيس إنني سعيدة، إنني في الجنة . وإنني سأبذل جهدي لكي لا تلتهم جهنم السماء وتنتصر عليها...

ذهبت ميشيلان في اليوم التالي لإستلام عملها الجديد، ولقد تم تقديرها أثناء مدة دورتها الدراسية في باريس على أنها عنصر منتج،

واثقة من ذاتها، وقادرة على إظهار كفاءة جيدة في معالجة الجرحى، ولقد كان توقيع الهدنة في عام ١٩٤٠ صدمة قاسية بالنسبة لها.

عندما كان يعمل الألمان على إجتياح فرنسا، كانت ميشيلان تهرب أمام الزحف الألماني مثلها في ذلك مثل نصف سكان فرنسا، ولقد تمكنت عند وصولها الى بوينس من تنظيم مركز للإسعاف تابع للصليب الأحمر الدولي، ثم استأنفت مسيرها على طريق فرنسا الى أن وصلت أخيراً الى مدينة تولوز، حيث عملت على تنظيم مركز جديد لتجميع الجرحى. وكان ذلك بإمكانيّاتها الخاصة، وقد ألحت على الضباط الفرنسيين بإنشاء معسكر لإستقبال المقاتلين المنعزلين عن وحداتهم، وأثناء تنفيذها لهذه المهمة الطوعية ، تمّ اجتماعها بذلك الرجل الذي كان على ما يبدو بحاجة الى عونها ومساعدتها أكثر من الآخرين. وهو ضابط من ضباط القيادة البولونية، وكان يعمل كضابط إتصال مع قيادة الجيش الفرنسي ، ومن الذين قاتلوا الألمان الى أن وقع أسيراً بين أيديهم ثم تمكن من الفرار لكي يقع بين أيدي ميشيلان. وهاهو الآن تعب وجائع ومريض، فأنقذته من شقائه ، وألبسته، واعتنت به حتى عادت إليه شجاعته.

وكان إسم ذلك الضابط رومان كزيرينا وسكي وهو من الأسماء التي يصعب النطق بها، ولذا عملت على تسمية ب آرماند كما عمل هو

بدوره على مناداها ، بقطتي، وذلك لما كان يلمس فيها من الرقة والوداعة. وكانت العلاقة التي تربط بينهما أكثر من كونها مجرد علاقة عاطفية، إذ أن آماند جعل منها جزءاً من مخططه للقيام بأعمال تنظيم شبكة للجاسوسية في فرنسا بالإضافة لتنظيم حركة من المقاومة، ولقد قبلت القطة بسرور أن تتعاون معه في كل ذلك.

وللبدء في هذا المشروع ، كان لا بد من التفتيش عن الضباط الفرنسيين الذين كان بعضهم في المنطقة الحرة بينما كان البعض الآخر يختفي في المنطقة المحتلة، وشرعت القطة في عملها بجد وحماسة، وكانت الحالة العامة في فرنسا في غاية الفوضى، إذ كان ملايين الأشخاص لا يزالون يتكدسون فوق طرق فرنسا، كما كانت الحالة على الحدود الإسبانية لا تزال غامضة ومضطربة .

ولم يكن في استطاعة العقيد البولوني التجول والسفر بحرية ، كما كان لا يجرؤ على الظهور في المنطقة المحتلة، لذا كانت القطة مجبرة على إنشاء الإتصالات الأولى ، فكانت تقوم على جمع الرجال وتقسيمهم الى مجموعات ثنائية بحيث يعمل كل إثنين منهم كخلية متصلة. وكانت تؤمن المخابىء لهذه المجموعات، وبذا أصبحت المجموعة التي كانت تسمي نفسها مجموعة الحلفاء بعد فترة قصيرة من أنشط وأقوى مجموعات المقاومة. ولقد إنضم العقيد مارسال آكارد الى هذه المنظمات.

كان العقيد آكارد شخصية هامة في تلك المجموعة ، إذ كان جميع أفراد المجموعة الباقين بإستثناء العقيد البولوني من هواة أعمال الجاسوسية، بينما كان العقيد آكارد رجلاً مفرط الذكاء والدهاء، ولقد تمكن من الإتصال بالإنكليز عن طريق إسبانيا والبرتغال، وكان هذا الرجل بالنسبة للقطة صنماً معبوداً .

وأدرك آكارد بثاقب نظرة أن القاعدة الحالية التي كانت تستخدم للحرب هي ذات مشكلة كبرى، وذلك نتيجة لغموض الموقف. وكان يتساءل : ترى هل ستتوقف ألمانيا عند حدود البيرينيه ، أم إنها ستتمكن من الإتفاق مع فرانكو للقيام بالهجوم على جبل طارق ؟... ولقد عمل آرماند على تكليف القطة بالكشف عن تلك المشاريع الألمانية فذهبت هذه الى بوردو ثم الى بايون والى بياريتز حيث كانت تتمركز في هذه الأخيرة وحدة من المدرعات الخاصة بمهمة إقامة معسكر على الحدود. وكانت تبدو وكأنها تستعد لخوض معركة جديدة، كما كانت هناك بعض الوحدات الجوية المقيمة في بوردو،وكان عدد من ضباط هذه الوحدات يتردد على مقهى باريس في بياريتز. وقد كتبت القطة قصة ذلك اللقاء لها في صحيفتها : ودخل ضابط نازي إلى المقهى وقال لي :

هل أستطيع الجلوس على طاولتك ، ياسيدتي ؟... إنني أرغب في طلب بعض المعلومات عن هذه المدينة. وأجابته :

نعم ، وأنا بدوري أحب أن أطرح عليك سؤالاً جال في خاطري :

– هيا : إطرحي سؤالك !

– إنك ترتدي لباس الطيران الألماني، بينما لا تدل هيئتك على إنك طيار، ثم إنني لم أتعرف على معنى شاراتك التي تحملها ؟

إنني أحمل الرتبة التي تسمونها عندكم في فرنسا عقيد، وأعمل في مصلحة الإمداد الجوي، وإنني المسؤول عن كل إمدادات واحتياجات الطيران لقاعدة بوردو.

وتناولا معاً شراب الشمبانيا، في المطعم أولاً، ثم بعد ذلك في أماكن أخرى . وقد وصفت شعورها في صحيفتها بقولها : لقد حرصت على أن أحتفظ بصفاء ذهني، لأنني لو لم أفعل ذلك، لفقدت كل تحفظ واحتراس .

وبعد ذلك بقليل تمكنت من إعلام آرماند بأن الألمان يتخذون التحضيرات اللازمة لاجتياز إسبانيا، في حين إستمر بقاؤها في الإقليم المحتل وهي تراقب التحضيرات الألمانية، الى أن لاحظت بأن إستعدادات الألمان ونشاطهم قد بدأ يخف تدريجياً وأدركت بذلك أهمية النبأ الجديد وهو أن الألمان تخلوا عن مخططهم في الهجوم على

جبل طارق . وإنتهت بذلك مهمة ميشيلان فعادت الى قرب آرماند وكانت بمنتهى السعادة وهي تعود إليه، وفي تلك الأثناء كان العقيد آكارد يعمل على تنظيم مجموعاته المنتشرة في جميع أنحاء فرنسا . وكانت القطة تعمل لمصلحته بجد ونشاط، ولقد أكد العقيد ذلك بشهادته التي أدلى بها أمام المحكمة، أدركا في تلك الفترة نجاحاً رائعاً وخارقاً للطبيعة، وكانت مصلحة الإستخبارات البريطانية التي كانت تعرف تلك المجموعة تحت إسم فالنتي تنظر باحترام كبير الى رجال آكارد الشجعان.

كانت لوائح البريطانيين تتضمن أسماء الأعضاء الرئيسيين في المجموعة ، وكذلك أسماءهم المستعارة ، ذلك لأن أعمالهم ذات أهمية خاصة.

كما كان البريطانيون يعرفون كل شيء عن العقيد رومان كزيرينا وسكي المعروف باسم آرماند ، وكذلك عن ميشيلان المعروفة باسم القطة ، بالإضافة لباقي المجموعة من المقاومين الذين كان منهم الأرستقراطي الفرنسي بيير دو فو مكورت .

في تلك الأثناء _ وبالإتفاق مع إنكلترا _ قامت المجموعة فالنتي بإعداد عدة مناطق من الأرض لإنزال الأسلحة المخصصة لإمداد الرجال، كما تم إعداد وإنتقاء مناطق للإنزال البحري على طول

الشاطىء، كما تمكنت المنظمة من تأمين وصول أسرى الحرب الهاربين من ألمانيا الى كل من إسبانيا وسويسرا بشكل خفي. إنهم ولا شك رجال شجعان يبذلون كل شيء في سبيل وطنهم.

في ذات يوم شعر كل من آرماند والقطة بالحاجة الى من يساعدهم في اداء بعض الأعمال الصغيرة ، كالتردد على المقاهي والمطاعم ، وقبول دعوات الألمان ومرافقتهم من أجل الحصول على كافة المعلومات التي يمكن إلتقاطها أثناء سياق الأحاديث . وابتدأت القطة في البحث عمن يصلح لإداء هذا الواجب، وسرعان ما عثرت على المرأة الملائمة لهذه المهمة في مدينة لونبفيل وكان إسمها رونيه بورني وبما أن هذه الفتاة ستصبح مساعدة مقربة من آرماند فلقد حرصت ميشيلان على أن تكون الفتاة الجديدة من النوع الذي لا يروق للعقيد البولوني.ولقد بذلت رونيه أو فيوليت كما أصبح إسمها الذي عرفت به في أوساط المقاومة ، كل جهدها لكي تدخل السرور الى قلب كافة عناصر المقاومة،كما أظهرت تفانياً وإخلاصاً كبيراً لعملها، ولذا فإن القطة لم تشعر بالاسى وهي تكتشف بعد فترة من الوقت بأن آرماند أيضاً من الذين أصبحوا يحبون تلك الفتاة.

كانت القطة تشعر بالضيق والقلق أحياناً،عندما كانت تنظر إلى فيوليت في تلك الفترة المؤقتة التي كانت تقيم خلالها في باريس. ولقد

توسلت إلى ارماند أن يرسل فيوليت إلى الريف،حيث يمكن تكليفها بواجبات تقل أهمية عن واجباها الحالية.وكان آرماند يشعر بالسرور من اقوالها ويجيبها وهو يبتسم بأن القطة بدأت تشعر بالغيرة،وكانت تحتج ميشيلان على ذلك بقولها:

إن الأمر لا يتعلق بذلك، إن لدي شعوراً بأن كارثة ستنـــزل بنا من جراء عملها.

وكان آرماند يجيبها ضاحكاً :ألا يمكن أن ينبعث هذا الإحساس من الغيرة ؟ ولكن ذلك الشعور قد تحقق فعلاً. وكانت رونيه بورلي أو من كانت تسمى فيوليت سبب كارثة أودت الى تحطيم وخراب تلك المجموعة ، فقد تلقت فيوليت أمراً بالحصول على معلومات ذات أهمية ثانوية وكانت المعلومات المطلوبة معرفة الإتجاه الذي ستذهب إليه بعض الكتائب التي سيتم نقلها بواسطة القطار من محطة الشمال في باريس.

وقابلت فيوليت على مقربة من محطة الشمال أحد صف الضباط الذي بدأ الحديث معها ثم ابتدأت هي بدورها في إستجوابه بحذر دون أن تنتبه الى وجود رجل يرتدي الثياب المدنية ويجلس الى خلف صف الضباط، متظاهراً بأنه يقرأ الصحف الفرنسية. ثم إنصرفت من المقهى بعد أن قضت وقتاً مع صف الضباط ، دون أن تلاحظ وجود شخص يسير في أثرها كما أن الشك لم يخامرها خلال الأيام التالية بوجود

أشخاص مدنيين يعملون على مراقبتها باستمرار تقريباً. وبذلك أمكن مشاهدهما برفقة كل من آرماند والقطة. ونتج عن تلك المراقبة إكتشاف مقر قيادهم العامة ، وكذلك مقر سكنها ، وفي ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٤١ وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً تم إعتقال كل من آرماند وفيوليت من قبل منظمة مكافحة الجاسوسية،التابعة للأميرال الألماني وولتر ويلهيلم كناري ، كما تم إعتقال ميشيلان كاريه بعد ذلك بساعات وألقي بها في السجن العسكري. ولقد أثار صمت الزنزانة الرهيب شعور قلق كبير في نفس القطة التي لم تكن لتعلم شيئاً عن الآخرين ؟... وكانت تتساءل: ترى هل تم إعتقال آرماند أيضاً؟... وهل أمكن إعتقال الآخرين؟... ترى هل كانت هي الوحيدة من بين الزمرة ؟ وفكرت وهي ترتعد بما ستتعرض له وبما ينتظرها! إن الليل سيهبط، وسيحمل معه كل الرعب الذي تنتظره... وهبط الليل عليها وهي وحيدة في زنزانتها المظلمة ، وكانت القطة تعرف بأنها لن تنجو من الموت. وكانت ترتجف وهي تفكر بالصورة التي ستلقى الموت فيها . وفجأة إشتعل ضوء المصباح المثبت الى السطح وانفتح الباب ، حيث دخل رجل يرتدي الثياب العسكرية الألمانية.

بقيت القطة جالسة في مكانها وألقت نظرة جذعة الى ذلك الرجل المنتصب أمامها. ولما كانت تعرف الشارات العسكرية بشكل جيد فقد عرفت بأنه يحمل رتبة رقيب ، ولو لم يكن يرتدي الألبسة العسكرية لما عرفت أنه رجلاً ألمانياً.

ذلك لأن مظاهر الوحشية لم تكن لتنطبق على مظهره . كما فوجئت بموقف ذلك الرجل منها أيضا، والذي بقي واقفاً على عتبة الباب مستنداً بكتفيه الى الجدار ناظراً إليها بثبات دون أن يقول لها شيئاً . وابتدأت القطة بعد قليل تفقد صبرها، إلا أن قالت له وهي تنهض من مكانها : ياسيد ، ترى لماذا عملتم على إعتقالي ؟... ولكن ذلك الرجل لم يجب شيئاً وكان صمته يطبق عليها آخذاً بتلابيبها . الى أن قال لها آخيراً :"لقد عشت في الجزائر، أليس كذلك" ؟. وأجابته : نعم في الجزائر. وعندئذ قال لها : إن باريس مدينة شاعرة ، أليس كذلك؟... ونظرت إليه بهلع وآنئذ أعقب على نظراتها بقوله: هل أنت خائفة؟... ولماذا تخافين؟... إنني سوف لن أقوم بأي عمل يضايقك ، وإنني أعترف بأنك إمرأة ذكية، ثم هل تعرفين بأنك بطريقة تصفيف شعرك تشبهين الى حد ما جاندارك ؟...

ولقد كتبت فيما بعد في مذكراتها شعورها عن ذلك اللقاء فقالت : لقد تملكني شعور غريب للغاية ، فلقد كان ذلك الرجل الذي دخل

الى زنزانتي إنساناً . ولم يستجوبها ذلك الرجل الإنسان عن نشاطها في منظمات المقاومة بل تكلم معها عن الجزائر ، عن فرنسا وباريس، وكان صوته يصل الى أذنيها عذباً، هادئاً . ولقد دهشت الفتاة من ذاتها وهي تنساق معه فجأة في حديث عذب مهذب ، الى أن مازحها بدعابة قاسية وهو يقول لها : إن هذا المكان يفتقد للراحة قليلاً ، فلنذهب الى مكان آخر، ما هو رأيك؟... وأدركت فجأة قسوة المكان الذي تقيم فيه ، فهزت بكتفيها بحركة يائسة وهي تطرق الى الأرض ، وعندما رفعت رأسها كان الرقيب قد إختفى، وانطفأ الضوء عليها، وكتبت عن ذلك فيما بعد : لقد عادت الى سمعي ألحان موزارت، وانيفيت ، واضحة في خيالي وكأن تلك الموسيقى الحلوة كانت تعزف فعلاً على مقربة مني. وطرق سمعها بعد قليل صوت من جديد، وأضيء النور، وفتح الباب ليظهر منه جندي مسلح ، حيث تقدم عريف من ميشيلان وأشار إليها بأن تتبعه، وسارت خلفه بين الدهاليز الموحشة ، واجتازت الأبواب الحديدية المتتالية الى أن وصلت الى مكتب وقع العريف فيه على ورقة كانت معه، ثم فتح الباب لتجتازه ثم إجتازت باباً آخر وعبرت خلال باب جديد من الحديد المتصالب الذي إنفتح أمامها، وعندئذ وجدت نفسها أمام رجل، ولكن ... من هو هذا الرجل ؟... إنه ذلك الرقيب الذي زارها في زنزانتها ، ولكنه يبدو بهيئة مختلفة تماماً . فلقد كان يرتدي الثياب

المدنية، كما كان يحمل قفازات أنيقة ويضع رباط عنق ذات ألوان زاهية ويرتدي على رأسه كمة من ذلك النوع الذي كان يرتديه رجال جنوب غرب فرنسا ، الكوت باسيك، فوق رؤوسهم وكان يعلق لفافة تبغ بين شفتيه، وكان يبدو في كل ذلك وكأنه أحد الفرنسيين المتأنقين الذين كانوا يقيمون في الحي الإيطالي.

ورافقها ذلك الرجل المتمدن الى عربة كبيرة ، وطلب إليها أن تجلس فيها قائلاً لها : على المقعد الخلفي من فضلك، واتركي الستائر مقفلة. ثم إنزلق بدون اكتراث خلف المقود. وقد لاحظت ميشيلان المساحة الكبرى للمرآة العاكسة التي كانت تقع أمام بصر السائق والتي كانت تمكنه من مراقبة الجالس الى المقعد الخلفي بوضوح ، وهدر صوت محرك السيارة، ثم إنفتح باب حديدي، ووجدت القطة ذاتها في باريس من جديد. ترى الى أين ستذهب؟... ووصلت السيارة الى ظاهر المدينة ثم مرت من أمام منزل لافييت . ولقد رأت ميشيلان ذلك بوضوح من خلال عاكس الهواء ، ترى من كان يقطن تلك الفيلا التي تقع في وسط تلك الحديقة الكبرى، إرتعدت القطة خوفاً من جديد، فلقد كان ذلك القصر الفسيح هو منزل الممثل المشهور هاري بور الذي إستولى عليه الألمان ليتخذوا منه مقراً لمنظمة مكافحة الجاسوسية في القيادة العامة الألمانية .

وأدركت أنها إذا ما وصلت الى هناك، فمعنى ذلك أنه قد افتضح عملها وأمكن إكتشاف كل شيء عنها، كما إن قوات الإحتلال لا تتلهى في إلقاء القبض عليها وجلب العناصر التي لا خطر منها الى هذا المنزل. وكان يتوجب عليهم بأن يضعوا فوق باب المدخل الرئيسي لهذا المنــزل لوحة يكتب عليها قول دانتي الذي وضعه على باب جهنمه : أنت _ يا من تدخل من هنا _ دع خارجاً كل آمالك . ولكن هل كان مقر القيادة العامة لمكافحة الجاسوسية الألمانية يقيم هنا فعلاً ؟... لقد كان يبدو كل شيء أمام ناظريها وكأنه غير حقيقي... فالخدم بغاية الأدب والتهذيب، كما كانت الصالات الفسيحة أنيقة الأثاث و ... تركوها هناك وحيدة . جلست القطة في مقعد وفير ونظرت الى النافذة حيث لمحت بالكاد الساحة الفسيحة الغارقة في بحر من الظلام الدامس، كما كان يطرق أذنيها أصداء الأصوات الخافتة لصخب المدينة وضجيجها. وبدى لها أن كل من في المدينة ينصرف الى شؤونه ولا يفكر في شأنها أحد. وفجأة، فتح الباب وطلب إليها الرجل الذي رافقها أن تتبعه ثم تقدم أمامها الى البهو وقادها الى صالة كبرى كثيرة الأثاث. وكان هناك باب آخر ينفرج عن نصف إنفتاحة . ومرت ميشيلان برأسها من خلال ذلك الباب فرأت مرآة كبيرة ، وأمامها مصباح صغير يضيء الغرفة _ لقد كانت تلك الغرفة مخصصة للنوم _ ترى ماذا حدث في تلك الليلة؟...

إن مذكرات القطة لا تحتوي شيئاً عما جرى في تلك الليلة. ولقد حاولت المحكمة فيما بعد الكشف عن ذلك عندما سألها رئيس محكمة درابي قائلاً: "قصي علينا مشاهد تلك الليلة كما حدثت بالضبط، وبعد أن وصلت الى فيلا هاري بور ؟.."

لقد قلت لك ما جرى تلك الليلة بالضبط _ ولكن سأعيد ذكر ذلك ثانياً_ بعد أربعة عشرة شهراً من النضال والعمل المستمر من أجل المقاومة ، تم إعتقالي وأخذت الى فيلا هاري بور ، وهو منزل لافييت . كنت تحت رحمة الألمان كما أن الرقيب هيجو بليخر لم يتركني ثانية واحدة أعيش فيها وحدي.

- لقد تعرفت إذاً على إسم ذلك الرقيب ؟....
- كان يدعي بأن إسمه هيجو بليخر .
- وهل كان يحمل رتبة رقيب فعلاً ؟
- إني لست أدري إطلاقاً.
- وهل كان إسمه الحقيقي هيجو بليخر ؟...
- حسناً ، لقد كنت مسجونة لدى بليخر فهل أصبحت خليلة له منذ تلك الليلة ؟...
- وهل تستطيعون أن تضعوا أنفسكم مكاني، ياسيدي الرئيس؟...
- أجيبي على سؤالي . هل أصبحت خليلة ذلك الرقيب أثناء تلك الليلة الأولى ؟...

- وهل يجب أن أجيبك فعلاً بدقة، يا سيدي الرئيس ؟...
- ولماذا أصبحت خليلته ؟...

لقد قال لي بليخر بأنك إذا لم تسخري مني _ فسأطلق سراحك في تلك الليلة _ وعندئذ عملت على أن لا أسخر منه.

- ألم يصدمك ذلك ، أنت أرملة ضابط فرنسي ، بأن تصبحي خليلة لرقيب ألماني؟...
- نعم يا سيدي الرئيس لقد صدمني ذلك. وعلى كل حال فلقد صدمني ذلك من الناحية الجسدية، ياسيدي الرئيس.
- وماذا حدث غير ذلك خلال تلك الليلة؟...

صمت.

- أريد أن أعرف ماذا حدث لك من أشياء أخرى خلال تلك الليلة ؟...

صمت.

- إننا نريد معرفة كل ما جرى لك تلك الليلة، وهذا ما يجب عليك أن تفسريه لنا . فلقد بذلت كل جهودك خلال أربعة عشرة شهراً وعرضتي نفسك لأخطار جسيمة وأنت تعملين لمصلحة زمرتك من عناصر المقاومة، ثم وفي ليلة واحدة نسيت كل ماضيك، ونسيت فرنسا _ ونسيت حتى ذاتك _ وبعد إذن ... وخلال ثماني ساعات التي تلت تلك الليلة عملت على وضع رفاقك الخمسة والثلاثين

مقاتلاً وهم من أكثر عناصر المقاومة الفرنسية أهمية بين يدي ذلك الرقيب بليخر. أذكري لنا الآن ماذا حدث لك خلال تلك الليلة؟...

وركز الرئيس درابيه نظراته الثاقبة على المتهمة خلال دقيقة كاملة.

وفي الصباح الذي تلا تلك الليلة صعد كل من القطة وبليخر وكان هذا الآخير يرتدي الألبسة المدنية من جديد وركبا سيارة صغيرة تحمل لوحة فرنسية إنطلقت بهما الى قلب باريس، حتى توقفت أمام المكان الذي كان يختفي فيه م. روشيني ، كما توقفت عربة أخرى في ذات الوقت ولكن دون أن تجلب أي انتباه لها ، لأنها كانت تحمل ركابها ممن كانوا يرتدون الألبسة المدنية والذين خرج أحدهم لشراء صحيفة يومية ، بينما إنطلق آخر ليجرب حظه عند أحد باعة التبغ .

وتسلقت القطة على درجات السلم، ثم طرقت باب أحد الشقق مستخدمة في أسلوب الطرق رمزاً متفقاً عليه، وفتح الباب مباشرة حيث ظهر كل من روشيني وفرانك وهما من الأعضاء البارزين في مجموعات المقاومة . ولقد أربكتهم الدهشة لرؤية ذلك المجهول برفقة ميشيلان التي همست في آذانهم بصوت خافت : يجب القيام بعمل ما فلقد تم إعتقال آرماند.

وذعر كل من الرجلين بهذا النبأ، ثم قالت لهما وهي تشير الى بليخر.

– لا تقلقا من أجله، إنكم لا تعرفونه، ولكنه واحد منا.

وتلى ذلك خمس دقائق تخللتها الأحاديث الودية.

ووجهت القطة أخيراً حديثها الى بليخر قائلة:

– أهبط وأدر محرك السيارة، لكي لا نضيع الوقت سدى. ثم مكثا في الشقة لمدة دقيقتين أو ثلاث وآنئذ إهتز الباب تحت وطأة طرقات ثقيلة .وفتحت القطة الباب فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع الألمان الذين كانوا قد أشهروا مسدساتهم وهم يصرخون : إرفعوا أيديكم.

ولقد تكررت إعادة هذا المشهد الذي تم إعداده وإخراجه بمهارة فائقة خلال الثماني ساعات التالية في عدد من المرات، وترك بليخر القطة تنعم بحريتها وتتصرف على هواها لمدة شهرين كاملين، فلقد كانت تعرف كل شيء، وقد عملت على خيانة كل من تعرفهم، فقذفت بذلك كل رفاقها الذين إستطاعت أن تعثر عليهم الى السجن. ولكن الشخص الذي كان يهدف بليخر القبض عليه هو العقيد آكارد ولقد يبدو ذلك غريباً فإن القطة لم تقدم على الوشاية به ولقد شهد العقيد آكارد بذلك أمام المحكمة عندما قال: إنها كانت تعرف أين أختبيء ولكنها لم تقدم على خيانتي . ولقد إختلقت القطة كافة الأعذار لكي تضلل بليخر وصرحّت له بأنها لا تعرف أي شيء عن مكان أو مخبأ آكارد وأقسمت له كثيراً ومراراً حتى إقتنع بأقوالها، وعرضت عليه أن تساعده في إلقاء القبض على شخصية أخرى لها

أهمية كبرى، وكانت تلك الشخصية بيير دو فونكورت . وقد بدت ملامح الاستثارة وللهفة على وجه بليخر وهو يستمع الى ذلك الإسم

ثم جالت فكرة في رأسه، دفعته ليتأمل قليلاً، حيث قدر موقفه خلال ذلك وإبتدأ يرسم مخططاً جديداً للعمل يتمكن بواسطته إقتناص إمكانات كبيرة ...

عادت القطة بعد ذلك الى مقر قيادتها العامة القديمة وكانت مشاريع بليخر متكاملة ودقيقة، ذلك أن الرجال الذين تم إعتقالهم لم يتمكنوا بعد من إنذار رفاقهم بما حدث ، كما أن ما وقع حتى ذلك الحين كان لا يزال بعيداً عن آذان رجال المقاومة.

واستمرت القطة في عملها وهي تمثل دورها القديم خلال شهرين من الزمن دون أن يراود الشك أحد من بين صفوف عناصر المقاومة رجالهم ونساءهم، وكانوا ينظرون جميعاً الى الرفيقة الأمنية والشجاعة ميشيلان كاريه بعين التقدير . ولذا فلم يكن ليخطر في مخيلة أحد منهم أو منهن بأن هذه القطة تعرض كل منظمتهم للخطر، ذلك أنه لم يكن هناك أي مبرر للشك بها وهي التي اعتادت على تنظيم المجموعة المتخاذلة كما انها هي التي أثارت الشجاعة في نفوس الجماعة.

ولكن، وفي كل مساء، كان يتم اصطحاب القطة بشكل سري الى الفيلا التي كان يقيم فيها بليخر حيث يتم خيانة تلك المنظمات والمخططات التي كان يتم وضعها في النهار. وفي ذات يوم، أعلنت

القطة أمام بليخر بأن الهدف الرئيسي لعناصر المقاومة هو إقامة إتصال مع إنكلترا بعد أن تم إعتقال وإيقاف كافة عناصر الإتصال.

وعندما علم بليخر بذلك، طلب من القطة أن تعمل على إستدعاء بييردو فونكورت الى باريس، وشرح لها بأن فونكورت يجب أن يذهب الى إنكلترا،كما يجب عليها أيضاً بأن تدفع رفاقها لكي يصرّوا على ذهاب فونكورت لأنه خير من يصلح لآداء هذه المهمة .

وفي الليلة التالية، ذكر بليخر أمام القطة بأنه يحمل لها مفاجأة سارة: عندما ستعودين الى مقرك ، ستجدين هناك فيوليت التي لم تعتقل في الواقع أبداً لأنها كانت تعمل معنا دائماً، وسوف لن تتكلم فيوليت عن أي شيء، وبإمكانك الوثوق منها وعليك الإهتمام بها لأن مهمتها هي البقاء في صفوف المقاومة.

ونفذت القطة كافة الأوامر التي أعطيت لها ، حيث قابلت بييردو فونكورت وكذلك بعض عناصر المقاومة الأخرى في أحد مشارب الشانزيليزيه وإسمه بام _ بام وتقدمت بعرضها الذي تقبله الجميع بالترحاب . ولقد إتخذ القرار بارسال بييردو فونكورت للإلتحاق بإنكلتر، بمهمة إعلام رفاقهم عما كان يدور في الطرف المقابل للمانش ، وطلب أية تعليمات أخرى، ولم يكن تنفيذ المهمة بالأمر السهل فلقد قام بعض الخونة على دلالة الألمان الى الممرات السرية التي كان رجال المقاومة يستخدمونها للوصول الى إسبانيا، كما كان

الألمان أيضاً على علم بالنقاط المحددة لاستخدامها في إنزال القوارب والغواصات الإنكليزية .

وعادت القطة بعد عدة أيام من إجتماع بام ـبام لرؤية أصدقائها مجدداً وأعلمتهم بأنها تمكنت من العثور على الوسيلة التي يستطيعون بواسطتها من الوصول الى إنكلترا، كما شرحت لهم بأنها يجب أن ترافق بييردو فونكورت وذلك لأنها أصبحت معروفة هناك كما أن وجودها معه من شأنه أن يذلل الصعاب في سبيل تنفيذ المهمة .

ووافق الآخرون مباشرة على هذا الإقتراح وهنؤوها على ذلك ، وهم يشعرون تجاهها بعرفان الجميل، ولقد كانت بالنسبة لعناصر المقاومة في الواقع بمثابة الهيروين وأنها تستحق تلك الشهرة، فلقد كانت أكثر الجميع تألقاً ، وأرجح الجميع رأياً وأشجعهم إطلاقاً.

حرص بليخر على أن تتمكن القطة من مغادرة فرنسا، دون أن يداهمها أي خطر ، ذلك لأنها عندما تتمكن من إجتياز فرنسا، فلن يبقى أمامها أية صعوبة للوصول الى إنكلترا وبذلك تمكن بليخر من إدخال عميلته القطة مع بييردو فونكورت الذي لم يكن ليشك أبداً في أمرها ، الى قلب وزارة الحرب في لندن.

وعملت القطة هناك لمدة تسعة أشهر ، كانت خلالها تقوم بنقل كل ما تعلمته الى فرنسا عن طريق القنوات التي أنشأها رجال المقاومة،

وكانت هذه المعلومات جميعاً تصل الى فيوليت التي كانت تقوم بدورها في نقل تلك المعلومات الى بليخر .

ولكن... أتى اليوم الأسود الثاني في حياة القطة، فلقد راودت الشكوك رجال منظمة مكافحة الجاسوسية البريطانية.

كما أدركت رجال المقاومة الشجعان في فرنسا ورجال السكوتلاندیارد وهم يدققون جميعاً بكافة ما جرى ، فتم إعتقال القطة في شهر تموز عام١٩٤٢ ، وألقي بها في أحد السجون الإنكليزية ، ومكثت هناك حتى نهاية الحرب .

ولقد كتبت في صفحة من مذكراتها، أثناء إقامتها في السجون الإنكليزية رسالة وجهتها الى رفاقها القدامى في المقاومة الفرنسية جاء فيها:

آه ! كم أتألم وأنا في سجني ، وإنني لم أتمكن أبداً من العثور على الكلمات التي أستطيع أن أعبر بها عن حزني العميق والأبدي ، كما إنني لا أستطيع أن أصف مخاوفي، ولكنني لست وحيدة هنا ، إنكم جميعاً، أنتم الذين لا زلتم على قيد الحياة، وإنكم سوف لن تتمكنوا من النوم أيضاً في هذا المساء، لأنكم ستكونون الى جانبي. وأنتم يا من قضيتم أجلكم ، وأنا منكم، إننا سنعيش ونحن نسير حسب شريعتنا الخاصة في عالم سأنتصر عليه من أجلنا جميعاً.

وفي كانون الأول من عام ١٩٤٩ ، كانت القطة تجلس أمام حكامها، وكان يبدو عليها الهدوء التام ، بينما كانت عيناها الحالمتان تنظران الى السقف الذهبي لتلك الصالة المشوشة الصاخبة.

وتكلم النائب العام للجمهورية فقال :

– لقد زاولت هذه التي أمامكم لمدة شهرين أعمال الخيانة في أرهب صورها الممكنة، ولقد كان خبثها وخداعها، وإغراقها في الشر، ومذكراتها التي قرأت عليكم نصوصاً منها، والتي تصفها كما هي على حقيقتها: عقل المفكر وامرأة بدون قلب... وعليكم أن تصدروا حكمكم على كل هذا ولا شك بأنكم لتشعرون معي بأن العقوبة الوحيدة التي يمكن تطبيقها جزاء وفاقاً هي : الموت . أما محامي الدفاع فقد أوجز دفاعه بقوله:

– إنني أعترف أمامكم بذنبها ، ولكن عليكم أن تدركوا بأن العمل الذي أقدمت عليه هذه المرأة كان نتيجة لذلك الموقف الذي لم يكن لها الخيرة، فأما الحياة أو الموت، وعليكم ألا تنسوا بأنها كانت تعمل مع المقاومة منذ البداية، ولقد كان عنصراً بطولياً من عناصر المقاومة كما يتوجب عليكم أن تصدروا الحكم بالموت على كل أولئك الذين سبقوها فعملوا على بذر بذور الثقة ثم عملوا بعد ذلك على دفعها الى الخيانة.

– وقبل أن يتم إصدار الحكم، فقدت القطة هدوء أعصابها ، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي وقع لها ذلك، فصرخت أمام المحكمة:

"ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير لأتذكر بأنه في الوقت الذي يطلب فيه النائب العام الموت لي فإن هيجو بليخر ينعم بحريته في...هامبورغ" وأصدرت المحكمة حكمها الذي كان متوقعاً _الموت _.

ولكن... وبعد عدة أشهر أنزل رئيس الجمهورية عقوبة الموت التي صدرت بحق ميشيلان كاريه الى السجن مدى الحياة.

المرجع

١– كيرت سنجر "أعلام الجاسوسية العالمية" ص ٢٩٧–٣١٤.

جان دايد

وسحق هيبة فرنسا وسمعتها

كم كان الزعيم الفيتنامي "هوشي منه" على حق عندما كان يقول : "لا شيء أثمن من الحرية والإستقلال". ومن هنا شكلت معركة "ديان بيان فو" في فيتنام "قمة الإنتصار" الفيتنامي، مقابل "قمة الهزائم" الفرنسية في الهند الصينية. سحقت فيها القوات الفرنسية بمراراة، كما سحقت فيها هيبة فرنسا وسمعتها الدولية في تلك الأيام. ولم يكن ذلك ليتم لولا العنصر المخابراتي التجسسي الفاعل والمؤثر في الحدث على مختلف المستوايات والأصعدة.

تلك الواقعة التي عرفت بـــ "فضيحة جان دايد"

فما هي تفاصيل هذه الفضيحة التي هزت فرنسا وأفقدها أهم ممتلكاها المعروفة بـــ"الهند الصينية"؟.

لم يكن التعليق الذي شاع تردده على أثر إنتشار فضيحة (دايد): بأن دمار فرنسا يأتي دائماً من داخلها تعليقاً مرتجلاً بل كان يستند الى حوادث تاريخية سابقة، وهل تمكن النازيون لسنوات مضت من إجتياح فرنسا عن غير هذا الطريق؟... ولقد قضى الفرنسيون على أثرها أربعة أعوام لا يمكن أن تنسى أبداً.أربع سنوات شعر خلالها الكثير من الفرنسيين بقيمة الحرية وما يسببه فقدانها من الألم المرير.

ومن البديهي،بأن نتائج أعمال (دايد) تسبب مأساة فادحة، ولكنها كانت على درجة كافية من الخطورة ذلك أن هذه المؤامرة قد كلفت فرنسا فقدانها لإحدى ممتلكاتها الرئيسية (الهند الصينية) والتي كانت تتمسك بها كثيراً، وإن مسؤولية هذه الخسارة تقع على عاتق (أعداء الوطن من الداخل) الذين وقعّوا وثيقة الحكم على الهند الصينية. ولقد تم ذلك عندما علم العلماء الشيوعيون في باريس بأن أميركا قد قررت موقفها بألا تبعث الوحدات المقاتلة وأن تضع حداً لمساعدتها وذلك بالإكتفاء بإرسال إمدادات الأسلحة والفنيين فقط، ولقد تسربت هذه المعلومات من وزارة الدفاع الفرنسية ونتج عن ذلك تلك الضربة القاضية ومكان الإنقضاض الرهيب الذي أطاح بالقلعة الحصينة، ديان بيان فو .

وخلال ذلك كله وعندما إنتشرت تلك الفضيحة وبعد أن انفجرت أزمتها لم يرتكب أولئك الذين يلعبون دورهم على المسرح أي خطأً حتى اهتزت فرنسا وافتضح أمر (دايد)، وعندئذ امتدت أصابع الإتهام لتشير الى كبار شخصيات الدولة ، وفي مقدمتهم تلك الشخصية التي برزت خلال هذه الحوادث (جان دايد) أحد كبار ضباط الشرطة والذي كان يبدو أنه على إطلاع بالمناورات السياسية التي أحاطت بعقدة (الهند الصينية) أكثر من المسؤولين المباشرين والذين أنيط إليهم أمر الدفاع عن شرف الأمبراطورية الفرنسية وكان أدهى باقي تلك

الفضيحة هو ذلك الدور الذي لعبه (دايد) والذي تمكن بواسطته من إدخال الجواسيس الى قلب إجتماعات مجلس الدفاع بمهمة كشف الجواسيس الشيوعيون على الرغم من أنه كان يعرف بوجودهم في هذا المجلس، فهل كان بالإمكان أن يشاهد الإنسان على مسرح الأوبرا تمثيليات أدق وأجمل من هذه؟.

كان (جان دايد) قد جاوز الأربعين من عمره عندما أنيط إليه أمر مراقبة الشيوعيين الأجانب وذلك منذ بداية حدوث أزمة (الهند الصينية) ولقد كان أبوه من قبله أيضاً ضابط في الشرطة حتى عندما إنتسب هو الى هذا النظام ، ولقد تمكن (دايد) من تكوين فكرة جيدة عنه طوال مدة خدمته، بدءاً من بدايته كشرطي عادي قبل الحرب العالمية الثانية، وحتى ارتقى بسرعة في سلم الرتب والمناصب إذ لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين حتى أصبح مفتشاً في الإستخبارات العامة .

وعين (دايد) بعد أن تم تحرير فرنسا، بمنصب رئيس للفرع الخاص (للإستخبارات العامة) وقد كان إختصاص المكتب الخامس هو (مكافحة الجاسوسية) والذي يهتم بالعملاء الشيوعيين الأجانب، وبما أن (دايد) كان من أنصار (ديغول) ومن الذين عملوا في تحرير (باريس) فقد تمّ إنتخابه لإشغال منصب هام في إتحاد شرطة باريس. كان يتمّ طبع تقارير (دايد) السرّية عن التجسس على الشيوعيين على

عدّة نسخ وتوزيع هذه التقارير الى المسؤولين في الشرطة، والجيش ، والمدنيين، وكانت هذه التقارير على درجة من الأهمية لا توصف، ولقد أذهلت هذه المعلومات عن تنظيم شبكات الشيوعيين رئيس الشرطة، (بايلو) فجعل من (دايد) مساعده الأيمن وذلك بهدف إعطاء الفرصة في سبيل المزيد من المعلومات عن نشاط هذه التي أتخذت من باريس مركزاً لها .

وعندما إستلم (لاينيل) رئاسة مجلس الوزراء ظهر أول تقرير يدرس دراسة عميقة تنظيمات وأعمال الشيوعيين في العاصمة الفرنسية ، وفي هذا التقرير كشف (دايد) النقاب لأول مرة بأن الشيوعيين قد تمكنوا عن طريق جواسيسهم من الحصول على المعلومات المتعلقة بالدفاع عن الهند الصينية.

حدث بعد ذلك أن تقدّم الجنرال (هنري أوجيني نافار) الى مجلس الدفاع الوطني في باريس بمشروع للدفاع عن الهند الصينية ولم يمض على هذا الإجتماع إلا أيام قليلة حتى ظهرت بوادر تسرّب المعلومات عن هذا المؤتمر السرّي ، ولم يكتف الشيوعيون بإظهار علمهم بخفايا هذا الإجتماع وعن مشاريع فرنسا في هذا الاقليم المضطرب ولأن المراقب (أوبسر فاتور) الأسبوعية قامت بنشر محضر إجتماع هذا المؤتمر السرّي للغاية ونوهت الى المقررات التي تمّ إتخاذها، فكيف تسرّبت هذه المعلومات؟... لا أحد يدري كيف تمّ ذلك ؟... ولقد

أنيط الى (دايد) أمر التحقيق في هذا الموضوع . لقد كانت الظواهر تشير الى أن بعض أعضاء مجلسي الدفاع على علاقة جيدة مع الشيوعيين وقد ثارت الشكوك حول المكتب الثاني للجيش وكل أفراد الإستعلامات العسكرية، ولكن الفاعل الحقيقي بقي بعيداً عن الشبهات.

وعقد مجلس الدفاع إجتماعاته بتاريخ الرابع عشر من ماي ألف وتسعماية وأربعة وخمسين ولقد كان هذا الإجتماع على مستوى عالٍ فاستعرض تدابير الأمن المتعلقة بالمواطنين الفرنسيين والمبعوثين في الهند الصينية ولقد أمكن وضع عناصر مكافحة التجسس العاملين لمصلحة (دايد) في وضع جواسيسه في قلب الإجتماعات أمر لا يزال يحوطه الغموض ولكنه ولم تنقض سوى أيام قليلة على عقد إجتماع هذا المؤتمر حتى اتضح بأن الشيوعيين كانوا على إطلاع بما يجري في هذا المؤتمر قامت المجلة الأسبوعية (أكسبرس) ونوهت الى ما دار فيه .

وتقابل (دايد) مع مدير الشرطة (م.بايلو) الذي أراد أن يعرف كيف أمكن تسريب هذه المعلومات مرة ثانية، على الرغم من إتخاذ كافة الترتيبات بوضع عناصر (مكافحة الجاسوسية) وفي قلب الإجتماع ، وبعد هذه المقابلة بثلاثة أيام تقدم (دايد) مطارد الجواسيس بمخطط للعمل بموجبه، وقد قام مدير الشرطة بدراسة هذا المخطط وكذلك فعل وزير الداخلية المشرف على منظمات الأمن الوطني .

ولقد إقترح (دايد) في مخططه بإدخال المواطن (أندريه بارنيس) . الى قلب القيادة الشيوعية والجنة المركزية، ذلك لأن (بارنيس) كان شيوعياً لسنوات مضت ثم إنسحب بصورة سرّية من (الكومينفورم) وذلك لإختلافه مع قادة الحزب الذين يجعلون إرتباط الحزب الشيوعي الفرنسي إرتباطاً مباشراً مع (موسكو).

تمكن (بارنيس) خلال عدد من الأسابيع من سرقة نسخ عن كل الوثائق الهامة الموجودة في القيادة الشيوعية ، وقام ببيعها الى (دايد)، ولكنه لم يكشف النقاب إطلاقاً عن أية تقارير من تلك التي حصل عليها الشيوعيين والمتعلقة بإجتماعات مجلس الدفاع. وبعدئذ سقطت حكومة (لاينيل) وحلت محلها حكومة (بيير مانديس فرانس) وتبعاً لتغير الحكومة فقد تبع ذلك تغييرات في أساليب وأجهزة الحكومة الحالية عن الحكومة السابقة وصدر قرار بتعيين (أندريه ديبوا) مكان مدير الشرطة السابق (بايلو) الذي قرر بأنه لا ضرورة لوجود فرع مكافحة الشيوعية في جهازه فعمل على إلغائه ذلك أنه كان يؤمن باتباع أساليب أخرى لمحاربة الشيوعيين فقام بتعيين العناصر الموثوقة من أعوانه . وكان (دايد) شخصية من بين هؤلاء الذين شملتهم حركة التنقلات والتغييرات، فصدر القرار بتسميته مفتشاً لميناء باريس الذي كان مقره خارج باريس في (جنيقيه). ولقد ذهل (دايد) لهذا الإبعاد الى الضواحي، وهو يرى كافة الجهود التي بذلها في مكافحة الجاسوسية

تذهب هدراً ، ولذا فقد صمم على الإحتفاظ بعلاقاته السابقة مع إستمرار بالإتصال مع طبقة العمال من الحزب الشيوعي وكذلك مع أفضل مخبريه . ونتج عن ذلك أن أنيط أمر مراقبة الشيوعيين الى العسكريين.

إستنفرت شعبة إستخبارات الجيش وبدأت مهمتها وبتاريخ العاشر من أيلول عقد إجتماع ثالث لمجلس الدفاع، وكان منهج الإجتماع يهدف بصورة رئيسية الى معالجة ودراسة إستراتيجية معاهدة شمال الأطلنطي ، وإعادة تسليح ألمانيا في المستقبل. ولقد أمكن سرقة أسرار هذا الإجتماع مرة أخرى، وقام (دايد) بعد هذا الإجتماع بعدة أيام بزيارة (كريستيان فوشيه) وزير فرنسا لما وراء البحار، ووضع بين يديه ملخصاً عن المحضر السرّي للإجتماع. ولقد ذهل الوزير عندما رأى هذا الملخص وهو من بين من حضروا هذا الإجتماع بنفسه ولقد حصل (دايد) على هذا التقرير من (بارانيس) مخبره الخاص الذي قام كالمعتاد بعد سرقته ببيعه له . ولقد صرح الوزير في فترة ذهوله "بأن هذا الملخص ينطبق في الواقع مع محضر الإجتماع" وتساءل عن سبب زيارة (دايد) له بدلاً من وضع هذه المعلومات تحت تصرف رجال الشرطة مباشرة ، ولكن الجواب على هذا التساؤل أتاه سريعاً عندما قال له (دايد) : (يامعالي الوزير فوشيه لقد أتيت لزيارتكم ومعي تحذير: لقد صدر أمر الى الشيوعيين الفرنسيين بجمع كافة المعلومات الممكنة

والمتعلقة بمخططاتنا في المستقبل للدفاع عن الهند الصينية).

ولكن، وعلى الرغم من الصراحة التي برهن بها (دايد) على إخلاصه وصدقه في عمله، فإن منظمات إستخبارات الجيش، لم تنظر بعين الإرتياح الى تقاريره المختصة فقط بالشيوعيين ولاسيما وأنه لم تعد له أي صفة رسمية وأن عمله هذا يعود الى دوافع شخصية بحتة ولذا فإنه ليس من المستغرب إذا ما ثبت بأن المسؤولين لم يطمئنوا الى أهدافه من عمله كما سيرى ذلك فيما بعد.

في ١٨ أيلول ، تمّ إعتقال (دايد) بواسطة ضباط المخابرات ، دون أي إنذار ، في اللحظة التي كان يغادر فيها مكاتب وزارة (الهند الصينية) ولقد أبدى (دايد) في بادىء الأمر مقاومة عنيفة ولكنه إضطر أخيراً الى مرافقة ضباط الإستخبارات .

ولقد عثر معه بعد تفتيشه على وثيقة لم يكن له الحق بامتلاكها في حوزته وتتضمن تلك الوثيقة ملخصاً عن محضر إجتماع مجلس الدفاع،ذات الوثيقة التي أبرزها أمام الوزير (فوشية).ولقد تمّ إخلاء سبيل دايد بعد إستجواب دقيق إستمر خلال المساء وقسماً من الليل.

ولقد صرّح بأنه حصل على هذه الوثائق من (بارانيس)ونتج عن إستجوابه إعتقال عضوين من أعضاء مجلس الدفاع الوطني وهما (حان توربان) و(روجر لابروس)كما عزل (دايد) من الوظائف والمهام التي كان يشغلها . وعلى الرغم من ترك الحرية له،فإن إستجوابه إستمر

تقريباً في كل يوم ، ولقد تمكن (بارانيس) من الفرار،ولكن رجال الشرطة تمكنوا من إ عتقاله ثانية بعد بحث واسع النطاق حيث عثر عليه في أحد الأكواخ في (بورجونيرو).

ولقد خيل لرجال الشرطة بأن هؤلاء الأظناء الأربعة هم رؤوس شبكة واحدة:إذ يقوم (توربان) بإعطاء المعلومات الى (لابروس) الذي يقوم بنقلها الى (بارانيس) فيقوم هذا ببيعها الى (دايد).ولقد خيل لهم،ولأول وهلة، بأن الدافع (لدايد)في نشاطه واتصالاته هو إخلاصه الكبير لأمن فرنسا ،ولكن تصريحات (بارانيس)خلفت الشكوك بصورة قوية . فهل هناك معنى آخر لتفسير نشاطه واهتمامه بأمور الهند الصينية.

ولقد قال (بارانيس) بعد اعتقاله :"إنني لست الوحيد الذي قام بإعطاء المعلومات للشيوعيين وللشرطة،فهناك آخرون قد زاولوا هذا العمل من قبلي . وكانت تقاريري باستمرار تصل الى الشرطة والى الشيوعيين بعد تقارير الآخرين ،وكان الهدف منها تأكيد ما يقوله الآخرون ، ولكن أقوال (بارانيس) لم تقنع أي إنسان . أما عندما إستجوبوه عن علاقه بـــ (دايد) فصرح مؤكداً بأن الشيوعيين كانوا يعرفون تماماً بأن المعلومات التي يقومون بنقلها إليه ستباع الى (دايد) بل أن الواقع يؤكد بأن الشيوعيين أنفسهم كانوا يقومون بتحضير التقارير التي ستسلم الى (دايد) ، وذلك بهدف إثارة جو من التضليل

في باريس. ونتيجة لذلك فقد كان من الصعب معرفة الحقيقة في قلب هذه الدوامة من الإتهامات والإتهامات المعاكسة والإشاعات، بل أن هناك ما هو أدهى من ذلك فقد أصبح الشك يحيط بالموضوع بأجمعه. أما (دايد) فقد بدأ يستعيد شخصيته ليس فقط كمفتش للشرطة بل كشخص قام بدوره وهو يغادر غرفة المسرح بعد أن أدى واجبه على أكمل وجه. وآخيراً أصبح من الممكن أن يسود الإقتناع بأنه قد أسيء فهم الدور الذي قام به (دايد) ، ولكن التعليل لذلك أنه حتى لو أسيء فهمه، فهو وحده المسؤول عن ذلك.

لقد كان (دايد) دائماً يصرح بإفاداته على أنه ضابط شريف من ضباط الشرطة ، يقوم بواجبه بضمير حي ، وإنه لم توجه إليه أية تهمة ولم يقدم للمحاكمة طوال خدمته ، وهذا ما لا يجب نسيانه ، كما أنه من الممكن أن يكون (دايد) ضحية للعمل الشيوعي المزدوج (بارانيس) الذي زاول معه العمل لفترة، من المؤكد بأنها كانت فترة طويلة نسبية، كما أنه من المحتمل أيضاً بأن يكون (دايد) قد فعل ذلك سالكاً الطريق الوعر بهدف إثارة فضيحة لإعطاء سلاح الى هؤلاء الذين يعملون لقلب حكومة (مانديس فرانس) كما فكر الآخرون بأن (دايد) لم يكن إلا (ضابط شرطة عادي) أرادت الحكومة إستخدامه والتضحية به لتظهر أمام حلفائها البريطانيين والأميركيين بأن فرنسا قد عزمت على إجراء تصفية عامة لكل تسرب شيوعي في أجهزة الدولة.

ولكن مهما كان من أمر فإن التاريخ سيسجل واقع مؤكد وحقيقياً ذلك هو أن الهند الصينية قد بيعت للشيوعيين ، وإن عقد هذه الصفقة قد إرتكب في باريس وقامت بذلك الأوساط السياسية العليا (كما إشتركت أميركا في ذلك، حيث ترددت قبل أن تعلن آخيراً أن أميركا لا تقر أي لون من ألوان المعونة العسكرية للهند الصينية المحاصرة). ولم يكن بإمكان الفرنسيين إيجاد تبرير لهذه القرارات الأميركية، فحاولوا تفسير ذلك باقتفاء آثار الجواسيس الذين عملوا تخريباً في بلادهم.

ولقد حدث أيضاً أن أوقف أخرون ، بعد أن وجه (مانديس فرانس) إتهاماته الى وزير الدفاع الوطني في حكومته بالإهمال الخطير . أما الباحثون العسكريون فلقد أدركوا بأن هدف الشيوعيين من سرقة ونشر محاضر الإجتماعات وآثار الفضيحة نفسها هو الإسراع في إنهاء حرب (الهند الصينية) .

كما أوقف (جاك دو كلور) سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي، واستجوب ثم أخلي سبيله ولكن بعد أن أدان الحكومة الفرنسية إدانة قوية عندما صرح : "ليس من حق فرنسا أن تعارض نضال (الهند الصينية) للتحرير من نير الرأسمالية الفرسية". أما النائب المعتدل (فريدريك ده بونت) :"لقد كانت حرب الهند الصينية دائماً برهاناً لاتحاد فرنسا وتضامنها تجاه الشيوعية العالمية، ولكن منذ وصل

الشيوعيون الصينيون الى حدود (تونكين) أصبحت الهند الصينية حداً فاصلاً للحضارة الغربية ، ودخلت الهند الصينية بأكملها في منطقة الحرب الباردة ".

دفعت الولايات المتحدة الأميركية مبلغ ثلاثة مليارات من الدولارات بهدف إنقاذ الهند الصينية، ولكن على الرغم من المساعدات الأميركية التي بلغت نسبتها خمسة وثمانين من مجموع ما كلفته هذه الحرب فإن فرنسا وجدت نفسها مجبرة على توقيع ذلك الإتفاق في (جنيف) والذي أمسكت بموجبه بعنق الهند الصينية إلى حذف الزعيم الجديد (هوتشيه مينه)، وبذلك تمّ وضع حد(للحرب القذرة) التي لم تكن أبداً محببة الى نفوس الفرنسيين...

كان (هوتشيه مينه) قد تمكن بفضل مساعدة روسيا له من تنظيم شبكة للجاسوسية في قلب الأوساط الدبلوماسية الفرنسية وبذلك تمكن من معرفة مشاريع مجلس الدفاع الفرنسي وذلك بعد كل إجتماع يتم عقده بمدة لا تزيد عن الثمانية والأربعين ساعة. ولقد رفضت دول الغرب ، ولمدة طويلة، الإعتراف الجدي بـــ(هوتشيه مينه) لأنها كانت تعتبره كشخص عادي لا قيمة له وكعميل من عملاء الشيوعية يتقاضى راتباً من موسكو، ولكن فرنسا إضطرت أخيراً أن تعترف به كزعيم قوي.

لقد حسب (هوتشيه مينه) حسابه منذ البداية ، فقدر ضرورة وأهمية إنشاء منظمة للتجسس تعمل في قلب باريس ، حيث كانت العقلية الإستعمارية الفرنسية ترسم خيوطها فيها.

ولقد قامت المخابرات الروسية فأمنت له الإتصالات الأولى مع الأوساط المطلعة، ثم تركت له بعد ذلك حرية العمل ليزاولها حسبما يشاء .

ولد (هوتشيه مينه) في عام ١٨٩٢ في اقليم (نجيه) المضطرب ، وكان لا يزال في مطلع شبابه عندما ركب متن إحدى سفن الشحن ميمّماً شطر أوروبا، وزار إنكلترا ثم أقام طويلاً في فرنسا،وكان كأغلب الثائرين في عصره مضطراً للتستر خلف عشرات الأسماء المكتسبة ولقد إكتسب إسمه هذا بذيوع صيته كأول رئيس شيوعي (لجمهورية فيتنام الديموقراطية) ولقد عرفته الإضبارات لدى الشرطة في باريس وخلال عدة سنوات بإسم (نجيه آي كوك) أو المواطن (نجاي).

وفي عام ١٩١٩، وعندما لم يكن لـ(هوتشيه مينه) من العمر أكثر من سبع وعشرين عاماً، حضر الى مؤتمر السلم في (فرساي)ليطلب في أن يترك لـ(الهند الصينية) حق تقرير مصيرها وذلك تطبيقاً للمبدأ الذي كان قد نادى به (وودرو ولسن) في بيانه الشهير ذي الأربعة عشر بنداً كما تمّ تقديم طلبات مماثلة من قبل ممثلين للبلاد الأخرى كالهند، وكوريا، والبلاد العربية.

ولكن هذا المؤتمر ، للأسف، كان برهاناً على تجاهل مطلب العالم المتوثب والمتيقظ، وقد أصبح واضحاً بعد هذا المؤتمر بأن فرنسا ليست وحدها من بين الشعوب التي لم تنظر الى المستقبل نظرة تجاوز مداها أبعد من أرنبة الأنف.

بقي (هوتشيه مينه) بعد فشل مؤتمر فرساي في باريس وعمل فيها كمصور ليكسب ما يفي باحتياجات عيشه ، أما نشاطه السياسي فكان بمثابة هواية له، وكان يحرر بعض المواضيع ويعمل على نشرها في صحيفة (الشعب) الإشتراكية كما كان يحضر الإجتماعات السياسية ويساهم في أعمال الحركات الإشتراكية، وقادته نزعته (الراديكالية) وتصريحاته الحماسية الى السجن في أكثر من مرة ولكن لم تثنيه عن عزمه، حيث صرح ذات يوم بقوله :(إن الزمن الذي قضيته في السجن كان طويلاً، وإن أغلب السجون متشابها ، ولكن سيأتي اليوم الذي تصبح فيه الهند الصينية سجناً يضم هؤلاء الذين يستعمرونها).

تعرّف (هوتشيه مينه) أثناء إقامته في باريس على زعماء البلاد الأخرى والتي كانت فرنسا مستعمرة لها ، كافريقية الشمالية الفرنسية ومدغشقر ، وكان يستخدم القاعدة الشيوعية منطلقاً للدفاع في سبيل الحصول على الإستقلال، وقد قام بوضع كتاب لمصلحة الحزب عنوانه (مراحل الإستعمار الفرنسي) وأمكن تهريب عدة نسخ من هذا الكتاب

الى الهند الصينية، والى مستعمرات فرنسية أخرى بحيث أصبح هذا الكتاب بمثابة إنجيل للحركات الوطنية .

وفي عام ١٩٢٥ كان أول فيتنامي يدخل الى موسكو بدعوة رسمية لحضور مؤتمر (كومنترن) ومكث هناك لمدة عام كامل، إتبع خلاله دورة تدريبية في (أكاديمية ستالين) ثم عاد الى باريس وعمل على إنشاء وإصدار جريدة (لوباتريا) والتي أصبحت الصحيفة الناطقة باسم الدولة الخاضعة لاتحاد الدول الإشتراكية والتي يسيطر عليها الإستعمار.

وقد عملت فرنسا بالإضافة الى دول أخرى على منع هذه الصحيفة من دخول المستعمارات الخاضعة لها، ولكن هذا الإجراء جعل الطلب يزداد عليها والبحث يكثر عنها كما استمر العمل على تهريبها الى داخل المستعمارات.

ومرّت سنوات، تمّ بعدها إنتخاب (هوتشيه مينه) كممثل عالمي للفلاحين الإشتراكيين، وذلك بهدف نشر الأفكار الإشتراكية بين الشعوب وتفجير الوعي في كل من أفريقيا وآسيا وكان يؤمن بأن كسب الصين الى جانب المعسكر الإشتراكي أمر ضروري كما أن مستقبل (فيتنام) يرتبط إرتباطاً وثيقاً بنجاح الشيوعية في الصين. ولقد عبّر عن رأيه هذا في إحدى مقالاته حيث قال (لا يمكن للهند الصينية أن تبقى كتلة من الجليد وهي تقع بين الهند والصين الملتهبتين).

وفي عام ١٩٢٥ أيضاً، كان (هوتشيه مينه) قد مرّ في الصين حيث اجتمع بعدد من المثقفين من (تونكين) وآخرون من (أنام) وغيرهم من الهند و(الصين) وكان يزاول عمله (كمترجم) في السفارة الروسية في (كانتون) تحت قيادة رئيس منظمة الجاسوسية الروسية في الصين (بورودين) وقد عمل (هوتشيه مينه) حسب مخطط موسكو السياسي والذي قضى بالعمل من أجل الإستقلال الوطني كمرحلة الأولى ، ومن ثم وتحت تأثير هذه الموجة الثورية الوطنية يمكن للحركة الشيوعية أن تكتسب السلطة بالتدريج وتعمل على توجيه هذه الشعوب البسيطة ، أي أن قيام الثورة الوطنية هو مرحلة أولية تليها بعد ذلك مباشرة قيام الثورة الإجتماعية.

إذن، فقد شهدت (كانتون) تشكيل نواة الثورة التي ستعمل على قلب السلطة الفرنسية في الهند الصينية وانقضى بعد ذلك ثلاثون عاماً حتى تمّ تحقيق هذا الواجب ففي عام ١٩٣١ لم يكن تعداد الحزب الشيوعي في الهند الصينية ليزيد عن ١٥٠٠ عضواً ولكن كان من بينهم عدداً كبيراً من الأقحاح ،وعند إنتهاء الحرب العالمية الثانية أصبحت قوة المد الثوري قادرة على شن حرب ضروس ضد فرنسا .

يتحدث الشيوعيون في الهند الصينية عن (هوتشيه مينه) كرجل له صفات (لينين) الثورية، وكفاءة (نابليون) العسكرية، بينما لا ترى فيه فرنسا إلا رجلاً حمل الى بلاده لوناً حديثاً من ألوان الإستعمار (الأحمر).

تتالت الأحداث بسرعة مذهلة بعد أن تمكن الجواسيس من إرسال التقارير عن مقررات مجلس الدفاع في باريس الى (هوتشيه مينه) وتجاهلت فرنسا التي كانت في يوم من الأيام أمة ثورة مشاعر ورغبات سكان مستعمراتها فحملت لواء مقاومة الثورة عوضاً عن مد يد التعاون إليهم، وقد دفعت ثمناً لذلك سيلاً من دماء أبنائها.

المرجع

١- كيرت سنجر "أعلام الجاسوسية العالمية". داز اليقظة العربية. بيروت ١٩٦٥ (ترجمة بسام العسلي).ص ٥٧-٧٠.

المهدي بن بركة واقتحام التاريخ

مثلما تتألق النجوم في السماء، هكذا تتألق رموز الحرية في سماء الوطن العربي. فكيف اذا كانت الحال في ظل وجود الاستعمار الأجنبي الذي لا يقيم وزناً للقيم ولا للمبادىء والمقدسات؟ ولم يخرج المغرب العربي في شمالي أفريقيا عن إطار السيطرة الاستعمارية التي تفننت في عملية التحكم بسكانه، وبأفظع الطرق والوسائل.

وعندما كان من أولى حقوق شعب في ظل الاحتلال، هو مقاومة الاحتلال، فقد كان طبيعياً أن يلاقي الاستعمار ما لاقاه من مقاومة باسلة في هذه المنطقة، بفضل نخبة واعية قائدة التزمت بمصالح الشعب والوطن والقضية، مفضلة الموت على الحياة الذليلة. وكان في عداد هذه النخبة، المناضل العربي الكبير «المهدي بن بركة»، حيث لم يقتصر تألق نجمه على وطنه فقط، بل تجاوز ذلك الى القارة الأوروبية والأفريقية، مما دفع بمخابرات القوى الاستعمارية للتخلص منه وتصفيته في أبشع عملية من نوعها في القرن العشرين. .

فكيف حصلت عملية اختطاف «المهدي بن بركة»؟ وما هي أسرار تصفيته؟ .

لعل من أبشع جرائم العصر، التي هزت الضمير العالمي، وظلت أنباؤها تحتل عناوين الصفحات الأولى لكبريات صحف العالم، جريمة اختطاف الزعيم المغربي «المهدي بن بركة» من شارع «سان جرمان» في باريس، ظهر يوم الجمعة في ٢٩ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٦٥، بتدبير من الجنرال «محمد أوفقير» وزير داخلية المغرب، والكولونيل «أحمد الدليمي» مساعده، بالتعاون مع المخابرات الفرنسية والاميركية والصهيونية والمغربية،

حيث نقل الى مكان ما في احدى ضواحي باريس، وخنقوه وقطعوه إرباً إرباً.

ولد «المهدي بن بركة» في الرباط سنة ١٩٢٠. كان طوال فترته الدراسية من أنبغ الطلاب في جميع المواد، وخصوصاً في مادة الرياضيات. وعلى أثر حوادث المطالبة بالاستقلال سنة ١٩٤٤، اعتقل المهدي بن بركة لأول مرة من جانب السلطات الفرنسية. ويرجع نشاطه في الحياة السياسية حينما انضم الى العمال الوطنيين سنة ١٩٤٣. وشارك في تأسيس جمعية الرباط الوطنية الثقافية، والتي منعتها السلطات الفرنسية سنة ١٩٤٤. اضافة الى أنه كان على رأس من حرروا وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤ والتي تطالب باستقلال المغرب. وبعد خروجه من السجن تحمل مسؤولية الكتابة الإدارية للجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، ومن ثم عضواً في اللجنة التنفيذية. وفي ٢٨ فبراير ١٩٥١ اعتقل المهدي بن بركة مرة أخرى، ونفي الى الجنوب المغربي حيث بقي منفياً حتى اكتوبر ١٩٥٤. بعد اطلاق سراحه لعب المهدي دورا بارزا في نشاط الطبقة العاملة المغربية. وهذا الدور هو الذي أسفر عن تأسيس المنظمة العمالية المغربية/ الاتحاد المغربي للشغل في ٢٠ اغسطس ١٩٥٥. وفي شهر أغسطس ١٩٥٥، وأثناء مفاوضات «ايكس ليبان» التي نظمتها حكومة «ادغار» ـ هذه المفاوضات التي أسفرت عن استقلال المغرب ـ شارك المهدي بن بركة في الوفد الذي شكله حزب الاستقلال لهذه المفاوضات بالإضافة الى عبد الرحيم بوعيد، ومحمد البزيدي، وعمر بن عبد الجليل، ومحمد بوستّة.

وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٦ انتخب المهدي بن بركة رئيساً للمجلس الوطني الاستشاري، وظل رئيساً له حتى حل المجلس سنة ١٩٥٩.

وفي سنة ١٩٥٦ تولى المهدي بن بركة، الإشراف على مجلة «الاستقلال» الأسبوعية، والتي تصدر باللغة الفرنسية حيث عرفت هذه المجلة أنها الصوت الثوري للجناح التقدمي داخل حزب الاستقلال.

وفي سنة ١٩٥٨ بعث المهدي برقية الى المؤتمر الأفريقي الآسيوي

بالرغم من معارضة قيادة حزب الاستقلال، عبرت عن الاختيارات التي يطمح اليها الجناح اليساري داخل الحزب.

وفي ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، استطاع الجناح اليساري بمشاركة المهدي بن بركة الفعالة تأسيس «الاتحاد الوطني للقوى الشعبية»، كما كانت طاقاته موضع تقدير عالمي من الطلائع الثورية في العالم الثالث، لذلك فقد اختارته الهيئات التحضيرية لمنظمة تضامن شعوب القارات الثلاث ومقرها «هافانا» ليكون سكرتيراً لها. ومن المؤسف أن أيدي الغدر امتدت لتنتزع روحه الثائرة، قبل أن يتاح له احتلال هذا المنصب العالمي المرموق الذي رشح له.

بعد المؤامرة الأولى ضد «الاتحاد الوطني للقوى الشعبية» والمقاومة وجيش التحرير واعتقال المناضل محمد البصري وعبد الرحمن اليوسفي، اضطر المهدي بن بركة للبقاء خارج المغرب، وأصبح الناطق الرسمي للحزب في المحافل الدولية، وأخذ يوثق الصلات بين الحزب والحركات الثورية في العالم.

وفي خريف سنة ١٩٦٣ حكم عليه بالإعدام من قبل السلطات المغربية. وفي ١٤/٣/١٩٦٤ حكم عليه بالإعدام مرة ثانية مما اضطره للبقاء خارج وطنه، حتى كانت عملية اختطافه وتصفيته جسدياً في ٢٩ اكتوبر ١٩٦٥. اشترك في عملية الاختطاف عدد كبير من عناصر وقياديي المخابرات المغربية والفرنسية والأميركية والصهيونية، نظراً لأهمية المناضل المهدي بن بركة وخطره على الاستعمار والإمبريالية ككل.

كان الكولونيل المغربي أحمد الدليمي أحد كبار المتهمين الرئيسيين في عملية الاختطاف. التحق بسلك الشرطة المغربية في أغسطس ١٩٥٥ بعد أن تخرج من مدرسة جنود المظلات.

وقد كلف الدليمي بأن يكون المسؤول عن تنظيم التعاون مع المجموعة الاميركية من أجل انشاء جهاز خاص للأجانب... ويقوم هذا الجهاز بتدريب

الكـوادر اللازمـة لعمليات التسلل الى السفـارة الاميركيـة بالـربـاط، ومعـرفـة التنظيمات النقابية والسياسية والدبلوماسية في الشرق العربي. وعلاقة الدليمي بالمخابرات الاميركية تبدأ بعـلاقته الشخصيـة مع المستـر «بدوني» الـذي كان يعمل لصالح المخابرات الاميركية في المغرب، ويتكلم اللغة العربية واللهجة المغـربية الـدارجة، ويعـرف المغرب شبـراً شبراً. وكـان يتلقى تعليمـاتـه من المستر «هار» الذي يعمل بالسفارة الاميـركية بـالربـاط، وعرف عنـه أنه حلقـة وصـل بين فرع الـوكـالـة في المغـرب والمـركـز الـرئيسي لهـا في الـولايـات المتحدة.

وقد زود أحمد الدليمي من المخابرات الاميركية بأشهر خبير أميركي في التسجيـلات السريـة وأدوات الجاسـوسيـة هـو المستـر «ويتس». وفي مجـال تخطيطاته لعملية اختطاف المهدي بن بركة، فإنه قدم الى باريس قبـل ثمانيـة أشهـر بـرفقـة المـدعـو «العـربي الشتـوكي» الـذي يشغـل مـركــزاً مهمـاً في الاستخبـارات المغربيـة، وذلك لتحضيـر عملية الاختـطاف. وقد اجتمـع مع بعض أصدقائه الفرنسيين حيث نزل في فندق الاليزيه غرفة رقم ٥٥ ، واتصل بالمتهم «فيليب لومارشان» بباريس، وهو نائب في البرلمان الفرنسي عن دائرة ليون.

وصـل أحمـد الدليمـي الـى باريس يوم ٣٠ اكتوبر ١٩٦٥ (أي بعـد يوم واحد من اختطاف المهدي) حيث استقبله المتهم «انطوان لوبيز» في مطار أورلي. واستأجر له سيارة يقـودها سـائق جزائـري أوصلته الى «فيـلا» يحتجز فيها المهدي بن بركة.

والواقع أن أحمد الدليمي عريق في الإجرام، وخاصة مع عناصر جيش التحـرير المغـربي الذي كـان يخوض الكفـاح ضـد الاستعمـار الاسبـاني في الصحراء المغربية المحتلة. كما قام بتعذيب المناضلين الاتحاديين شخصياً، وعلى رأسهم الشهيد عمر دهكون سنة ١٩٧٣.

والى جانب الكولونيل الدليمي وأوفقير، هنـاك «الغالي المـاحي» الذي

ينتحل صفة طالب مغربي في باريس مسجل في قسم التجارة بالجامعة الفرنسية، وكان يقوم بدور الوسيط بين الدليمي وانطوان لوبيز. وكذلك «السيد الحسيني» عميل الاستخبارات المغربية، ومساعد الكولونيل الدليمي، وهو ممرض مكلف بالتخدير في الفرق الخاصة التابعة للشرطة المغربية. وقد رافقه الدليمي منذ وصوله من جنيف الى فيلا فونتاي لي فيكونت. كما لعب «العربي الشتوكي» دوراً رئيسياً في إعداد خطة الخطف والإغتيال مع الكولونيل أحمد الدليمي، وباعتراف المتهم «الغالي الماحي» في مطار أورلي يوم ٣٠ اكتوبر ١٩٦٥ بعد عملية اختطاف المهدي لاستقبال الجنرال أوفقير والكولونيل الدليمي.

اضافة لكل هؤلاء، فقد كان هناك «عشاشي عبد الحق» و«الصقلي سعيد» الذي كان يتولى مهمة تمويل العملاء المشاركين في العملية، وهو صديق الجنرال أوفقير. وكذلك مساعد الجنرال محمد أوفقير وزير الداخلية، للعمليات السرية «ايلي ترجمان» وهو يهودي مغربي ويحمل الجنسيتين الاسرائيلية والمغربية. وهو الذي فاتح المتهم «فيليب لومارشان» و«جورج فيغون» و«انطوان لوبيز» في موضوع الاختطاف. والصهيوني «ايلي ترجمان» يعمل حالياً ضمن سكرتارية الحكومة ومكلف بالعلاقات الخارجية مع باقي العملاء للمخابرات الجاسوسية للولايات المتحدة الاميركية والاسرائيلية ويدير هذا المكتب.

أما فيما يتعلق بالمشتركين الآخرين الذين يحملون جنسيات أجنبية نذكر منهم: انطوان لوبيز وهو فرنسي الجنسية ومن مواليد ١٩١٣. وهو المتهم الأول في هذه الجريمة، وهو عميل المخابرات الفرنسية. وقد سبق له أن شغل منصب مدير مطار طنجة المغربي. وهو الذي أعطى الإشارة للمخابرات الفرنسية بالتنسيق مع المخابرات المغربية ـ بحكم هذا المنصب ـ لكي تختطف طائرة الزعماء الجزائريين وهم في طريقهم الى تونس أثناء حرب الاستقلال الجزائرية، وكان من بينهم «أحمد بن بللا».

وفي سنة ١٩٦١، رقي الى منصب كبير في شركة «ايرفرانس» في مطار أورلي بباريس. وبحكم منصبه في المطار أصبح «انطوان لوبيز» وكيلاً للعديد من وزراء المغرب يقدم لهم التسهيلات والخدمات. كما تأكد أمام قاضي التحقيق أنه يعتبر نفسه مرؤوساً في هذه القضية لجهات عليا. علماً أن البوليس الفرنسي استطاع تحديد مكان التلفون الذي استعمله يوم ٢٩ تشرين الأول/اكتوبر للإتصال بالجنرال أوفقير في المغرب يعلمه بنجاح عملية اختطاف المهدي بن بركة. وقد أطلقت الصحافة الفرنسيّة على انطوان لوبيز لقب «المتهم المراوغ». صدر عفو عنه في أواخر عام ١٩٧١. الى جانب «لوبيز» كان هناك المدعو «جورج بوشيس» الذي كلف ـ كما يقول ـ بعملية الاختطاف من قبل رجل الأمن المغربي «العربي الشتوكي». اضافة الى المتهم «جورج فيغون» الذي قتل في ١٧ ديسمبر ١٩٦٥، على أيدي صحفي الماني غربي له علاقة بالاستخبارات الاميركية، في الوقت الذي أشيع فيه بأنه انتحر. وكذلك الكولونيل «فانفيل» ويدعى «مارسيل لوروا» وهو رئيس مفرزة مكافحة الجاسوسية ورئيس انطوان لوبيز مباشرة. أعفي من منصبه في ١٨ يناير ١٩٦٦ بعد افتضاح دور أجهزة الأمن في تدبير عملية الاختطاف، خصوصاً أنه كان يعلم بأن الغرض من جر المهدي بن بركة الى باريس هو التصفية الجسدية. كما أقيل الجنرال «جاكييه» أيضاً وهو رئيس إدارة مكافحة الجاسوسية (سيدكو).

هذا وتضيق الصفحات عن ذكر جميع الأسماء المجرمة في هذه القضية. ويبقى للصحفي «فيليب برنييه» الدور الكبير في هذه العملية، حيث كان رئيساً للتحرير في مجلة «انترا» التي يملكها الجناح اليساري في الحزب الديغولي. . استخدم كطعم لإحضار بن بركة الى باريس. وكان قد اتصل هاتفياً بالمهدي في ٢٦ اكتوبر ١٩٦٥ عندما كان بن بركة في جنيف ٢٢ شارع دوفيفي. والصحفي برنييه صديق للمتهم «جورج فيغون»، وهو مختص في شؤون المغرب حيث كان يتردد على المهدي بن بركة منذ عدة سنوات، وله علاقات مع رئيس الاستخبارات المغربية. وقد تم الاتصال به

عبر «العربي الشتوكي» بعد أن عرض عليه مبلغاً كبيراً من المال لإحضار المهدي الى باريس.

ويرجح البعض أن قراراً اسرائيلياً نفذته «الموساد» (المخابرات الاسرائيلية) بالتعاون مع جهات فرنسية رسمية وغير رسمية، كان وراء عملية اغتيال الزعيم المغربي.

فصحيفة «بول» (المرمى) العبرية الصادرة في تل أبيب بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٦٦، صدرت صفحتها الأولى بعنوان مثير هو: «اسرائيليون في مقتل بن بركة». وهذه ترجمة لأبرز ما تضمنه المقال:

«ان شخصية كبيرة أقنعت بن بركة بأن يستقل الطائرة الى باريس حيث قتل. هذه الشخصية هي رجل أعمال سويسري، معروف جداً، عرض أن يمول فيلماً حول العالم الثالث، انطلاقاً من «سيناريو» يكتبه المهدي بن بركة نفسه... رجل الأعمال هذا يتعاطى تجارة الأفلام السينمائية. وبما أن القضية ما تزال لغزاً فإننا نود أن نحتفظ باسمه... وكل ما يمكن أن يقال عنه أنه يهودي، ويخشى عندما تنفجر القضية أن تتخذ طابعاً عنصرياً.

وكما يقول فيليب برنييه (أحد المشاركين في إخراج الفيلم) في شهادته التي أدلي بها أمام المحكمة، أن المهدي بن بركة عرف أن جهات اسرائيلية أو أموالاً اسرائيلية سوف تساعد على انتاج الفيلم، ولما عرف تراجع عن الفكرة... اذ لم يكن وارداً أن يتعامل مع الاسرائيليين».

والواقع أن «جورج فرانجو» كان هو ذاته ممول ومخرج الفيلم السينمائي المزعوم «باستا» الذي يصور نضال شعوب العالم الثالث بمناسبة انعقاد مؤتمر القارات في «هافانا» في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٦٦...

هذا وقد انضم الى عملية الاختطاف «لويس سوشون» رئيس مفرزة مكافحة المخدرات بناء على طلب المتهم «انطوان لوبيز» وقد اعترف بذلك أمام المحكمة.

وهنا لابد من الإشارة الى تصريح الوزير الفرنسي السابق «بيار جولي» الذي قال في شهادة له أمام المحكمة «اذا كانت المخابرات الاسرائيلية أو الاميركية أو غيرهما تريد اخفاء بن بركة، فلابد لها أن تستعين بالمخابرات الفرنسية».

لقد دخل المهدي بن بركة التاريخ من بابه الواسع، مسجلاً أنصع الصفحات في حياته الزاخرة بالنبوغ والعطاء والتفوق.

وليس مستغرباً أن يلاقي ما لاقاه على أيدي أعداء الانسانية، وهو القائل أن «من واجب المناضل إما أن يكون واقفاً على قمة جبل، وإما ممدداً على تبن زنزانة مظلمة»... وقد جرب الزنزانة في حياته، وبقي عليه أن يجرب التمدد الأبدي في سبيل الولادة الجديدة في ضمائر الشعب العربي من المحيط الى الخليج. وكانت حكومة الجمهورية العربية السورية سباقة في هذا المضمار، عندما أطلقت اسم «المهدي بن بركة» على أحد شوارع دمشق الرئيسية، بعد أن أصبح نضاله جزءاً لا يتجزأ من نضال الشعب السوري والعربي ضد الاستعمار أينما كان، وفي كل زمان.

المراجع

١ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». دار الحياة. بيروت. لا تاريخ. ص ٣٨٨ ـ ٤٠٥.

٢ ـ هاني الخيّر «أشهر الاغتيالات السياسية في العالم». الجزء الأول. دار الكتاب العربي. دمشق ١٩٨٥. ص ١٦٣ ـ ١٦٨.

تمثل عملية فرار نائب القنصل السوفياتي في السفارة السوفياتية في باريس عام ١٩٨٢،نيكولاي بوليانسكي ، إحدى العمليات المثيرة في تاريخ الجاسوسية . هذا في الوقت الذي كانت فيه "الحرب الباردة" بين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ، والمعسكر الشرقي بقيادة الإتحاد السوفياتي، ما زالت قائمة، تخف حدّتها أو تزداد من فترة الى أخرى، تبعاً لضخامة الحدث_ أو الأحداث_ وتفاقم الأزمات منذ قيام الجبّارين بعد الحرب العالمية الثانية، وكل أزمة منها كانت تستولد بدورها أزمات جديدة.

فما هي أسرار عملية فرار الجاسوس السوفياتي بوليانسكي من باريس الى ألمانيا الغربية ؟ وما هو تأثيرها في الصراع الخفي بين عمالقة الجاسوسية في القرن العشرين ؟.

في الواقع، كان "نيقولاي بوليانسكي" نائب القنصل السوفياتي في السفارة السوفياتية في باريس عام ١٩٨٢ ، من مواليد ١٩٣٩، وشيوعي جيد لم يسمع عنه شيء يخل بالنظام خلال عمله السابق كنائب للقنصل في السفارة السوفياتية في كل من زغرب وبرن. وقصة هروبه من باريس الى الغرب_ وخصوصاً إلى ألمانيا الغربية_ ليس فيها شيء من الغرابة، وليس لديه أيضاً أسباب جوهرية للهرب والخيانة

لوطنه، ولم يكن مضغوطاً عليه أو ملاحق أو مكروه . ومع ذلك خرج من السفارة السوفياتية في باريس للتجوّل يوم الأحد في ٢ تموز ١٩٨٢ وتوّجه بالقطار إلى ألمانيا الغربية وسلّم نفسه للمخابرات الألمانية الغربية ، حيث أعتبر بعد ذلك من ضيوف هذه المخابرات (أي لاجئاً سياسياً).

من هنا نجد من الضروري أن نورد قصته الموجزة بغية الإطلاع على طريق عمل المخابرات السوفياتية والسفارة السوفياتية في باريس. فمبنى السفارة السوفياتية في باريس ، حيث تسكن الممثلة الشهيرة (بريجيت باردو) ورجل صناعة الطيران "مارسال داسو" الذي تنتج مصانعه طائرات الميراج. وهناك يعيش ممثلو الكرملين في بناء السفارة الضخم الذي بلغت تكاليف إنشائه مائتي مليون دولار ، ولا يكاد يوجد هناك أحد من السياسيين الغربيين من تجاوز قاعة الإستقبال المرمرية الفخمة أو مكتب السفير الى الممرات ودهاليز المبنى والأرضيات المزدوجة وممرات التهوية السرية التي تحتوي على أجهزة مخابرات خفية للتنصت والتصوير التجسسي لكل زائر للسفارة ، كما توجد خلف جدران من الأسمنت المسلح طرق ملتوية تؤدي إلى أقسام السفارة المختلفة ويتكون مجمع السفارة السوفياتية في قلب العاصمة الفرنسية من سبع طوابق فوق سطح الأرض وخمس طوابق تحت الأرض منه بالطابق الأول موقف سيارات السفارة والطوابق الأربعة مصانة بآلاف أطنان المواد

العازلة حيث أصبح "ملجأً قادراً على مقاومة القنابل الذرية"ولا تكاد السفارات السوفياتية في عواصم البلدان الأخرى في أوروبا تختلف عن السفارة السوفياتية في باريس. ويعيش الدبلوماسيّون السوفيات وكأنهم في دير وإن لم يعيشوا حياة الرهبان فالحياة في الخارج محجوبة عنهم وهم محجوبون عنها، إذ يراد للمواطنين السوفيات الدبلوماسيين أن يبكوا على أقل قدر من الإتصال بخارج السفارة حيث أعداء الطبقة العاملة. وتوجد في السفارة سوق مركزي ومخبز ودكان جزارة "لحام أو قصاب" ودكان لتصليح الأحذية أيضاً. ومصبغة ومطعم يتناول به العزاب من موظفي السفارة طعامهم لكي لا يقعوا ضحية مغريات الغرب وخاصة مطاعم ساحة بيكال. كما أن أطفال جميع العاملين في السفارة يذهبون الى مدرسة داخل جدران السفارة "وتضم المدارس في الإتحاد السوفياتي عشرة صفوف" ولا توجد مدارس متقدمة جداً كهذه إلا في سفارات نيويورك، جينيف، فيينا، لندن. وأخيراً يوجد داخل أسوار مبنى السفارة وخلف الجدران السميكة دار سينما لها مسرح لعرض بعض أعمال موظفي السفارة المسرحية. وحوض سباحة وقاعة رياضة بأنواعها ومكتبة وعيادة طبية. والسفير بالذات هو المسؤول عن جميع هذه المنشآت إدارياً ومالياً وهو كذلك يتلقى راتباً كبيراً بالنسبة للأوضاع السائدة في الوظائف في الإتحاد السوفياتي حيث يحصل على ثلاثة آلاف دولار ومثله السفيرفي جنيف ويتقاضى مستشار السفارة

تسعين بالمائة من هذا الراتب بينما يتلقىالسكرتير الأول بالسفارة خمس وثمانين منه أما السكن في السفارة للسفير وجميع الموظفين فـ"مجاناً" لأن البناء هو ملك الدولة السوفياتية مثل بناء السفارة الفرنسية العريق في موسكو فهو ملك للدولة الفرنسية. أما معيشة السفير فهي الى حد ما على سحاب ميزانية السفارة ويكون لديه طباخ خاص وسائق وخادمة وبستاني بحديقة منزله وسكرتير خاص. أما الملابس فيفضّل السفراء شراؤها من الخارج وقد خصص له لذلك مبالغ لا بأس بها، وفي داخل السفارة يعتبر مجرد إمتلاك عملة أجنبية كالدولار إمتيازاً لا يقدر. كما أن الروبل يصرف للدبلوماسيين بسعر خاص فمقابل ثلاثماية روبل يحصل الموظف الدبلوماسي على مائة دولار والعكس صحيح مقابل المائة دولار يحصل على ثلاثماية روبل وأكثر. وعلى من يود الإلتحاق بالسلك الدبلوماسي خارج الإتحاد السوفياتي أن يلتحق بمدرسة الدبلوماسيين في موسكو وأن يجتاز إمتحاناتها الصعبة ومدرسة الدبلوماسيين في مبنين يقع أحدهما في شارع كسلوفكسي على مقربة من ميدان ليرمونوتوف بينما يقع الآخر في شارع لابوتاشيفكسي في الجنوب الغربي من موسكو وينتسب الدارس الى هذه المدرسة بعد حصوله على شهادة جامعية ويفضل المتخصصون بالعلوم السياسية أو اللغات ويتلقى الدارسون دروساً في كيفية التصرف كممثلين للحزب والدولة في الخارج. ويضم البرنامج الدراسي تاريخ العلاقات الدولية

وتاريخ الدبلوماسية والاقتصاد والمال والقانون الدولي وبطبيعة الحال "العلوم الماركسية اللينينية" ولا يجري تدريب الدبلوماسيين على أي نوع من أنواع علوم التجسس على خلاف ما يروى في هذا الصدد.

ويقضي الدارسون في الدرجة المتوسطة عامين في مدرسة وزارة الخارجية هذه. أما الدبلوماسيّون من ذوي الدرجة الرفيعة والذين يختارون من أعضاء الحزب العاملين فيقضون سنة إضافية.لاحتمال تعيينهم سفراء معتمدين للإتحاد السوفياتي بعد تخرجهم ولكي لا تنسى المبادىء الأساسية للدبلوماسية والديالكتيكية فإن السكرتير الأول والثاني ومستشار السفارة والقنصل يدعون لدورات تنشيطية مرة كل عامين أو أربعة أعوام. ومن أهم واجبات الدبلوماسي الإخلاص المطلق لخط الحزب والتمسك به دون محاولة تفسيره حسب المفهوم الشخصي كما فعل مستشار السفارة السوفياتية في بلغراد "سيمانوف" فقد سافر مع الملحق العسكري في السفارة الى سلوفينيا للإشتراك في إحتفال سوفياتي يوغسلافي مشترك وكان عليه أن يلقي كلمة في هذا الحفل قام السفير "روديونوف" بمراجعتها مسبقاً حسب الأصول ولكن المستشار لم ينطق من الكلمة المكتوبة سوى "أيها الرفاق" ثم إنطلق يتحدث عن الإعجاب الشديد بالشعب اليوغوسلافي الشقيق وعن الزعيم الإشتراكي العظيم "تيتو" وقد خرج سيمونوف عن فحوى الكلمة المعدة له تماماً ثم جرى تصفيق حاد له وتمّ شرب الأنخاب باسم الرفيق

تيتو وفي طريق العودة أقدم الملحق العسكري على توبيخه على كل ما ذكره في الحفل وتطور الأمر بينهما الى عراك في السفارة حتى تدخل السفير رديونوف الذي يقدر سيمانوف شخصياً لكن الملحق العسكري كان من العناصر السوفياتية الــ "كي.جي.بي" في السفارة حيث لم يمض أسبوع حتى استدعي المستشار الى موسكو ليقضي سنتين في المدرسة الدبلوماسية وهذه المدة لا تحسب له في القدم الوظيفي فيكون بذلك وكأنه قد خفضت رتبته ثم عيّن بعد ذلك سكرتيراً أول في السفارة السوفياتية في الجزائر. إذ لا يجوز لأحد مطلقاً أ، يعارض السفارة السوفياتية خاصةً إذا كان من الدبلوماسيين والأهم أن لا تكون المعارضة بعلم أو أمام عناصر المخابرات السوفياتية المتواجدة بكثرة في السفارات والقنصليات السوفياتية في الخارج. ومن المعلوم بتقدير الخبراء الغربيين أن نسبة ٤٠٪ من أعضاء السفارة السوفياتية في باريس الذي يبلغ عددهم حوالي المائة هم من المخابرات السوفياتية.كما توجد هناك نسبة أقل من أعضاء المخابرات بين الثمانمائة مواطن سوفياتي الذين يعيشون في فرنسا . وكنا قد ذكرنا أن السفير هو المسؤول الأول في السفارة إلا أن "رئيس فرع مخابرات السفارة " هو صاحب كلمة الفصل في السفارة فلا يحدث شيء إلا برضاه وموافقته لدرجة أن مستشار السفارة إذا أراد تناول الطعام مع شخص غير سوفياتي وخارج السفارة يجب أن يعلم رئيس فرع

المخابرات بذلك . لأن المستشار وغيره ملزومون بتسجيل أسمائهم لدى حارس السفارة ولدى عودتهم يقوم البواب بتبليغ ذلك لهم أيضاً . وتقوم المخابرات بالإتصال بالمراكز الرئيسية في موسكو بوسائلها الخاصة . ولا يطلع السفير على ما يقوم أعضاء مخابرات السفارة المعتمدون بواسطته إلا نادراً وهو يحاول الإبتعاد عن طريقهم ولكن إذا حدث ودعوه للمساعدة فإنه يكون ملزوماً بتقديمها. ومن مهام رئيس فرع مخابرات السفارة معرفة كل شيء عن السفير وحياته الخاصة وعاداته وسلوكه وتصرفاته أثناء العمل وخارجه. ولا تستدل من هذا العرض إن حياة الدبلوماسيين السوفيات جد في جد.. أي عمل متواصل أبداً وهناك بعض الحفلات الراقصة تقام في شقق العزاب الذين يعيشون دون أسرهم ويوجد حفلات زواج تقام في مسرح أو سينما السفارة وذلك بين موظف في السفارة وموظفة أيضاً فيها لأن هذا هو المخرج الطبيعي في الغالب من حياة العزوبية داخل السفارة . أما فيما يتعلق بالإتصالات بالأجانب وخاصةً العاملين بالسفارات الأخرى فيتمّ ذلك بتوجس وريبة بالنسبة لموظفي السفارات الغربية ، والأمريكيون هم "أعداء" دائماً ولا يستطيع أحد أن يتصل بالأميركيين دون السفير أو بمعرفة زاطلاع المخابرات . ويجتمع سفراء الإتحاد السوفياتي في بلدان الكتلة الشرقية بصورة منتظمة ولكن الريبة ليست مستثناة بينهم فالسفير اليوغوسلافي لا يحضر معظم الإجتماعات كما لا

يحضر السفير الروماني سوى بعض الإجتماعات والسفير الألباني لا يحضر مطلقاً. ولا تقل العادات طرافة عن ذلك حتى في عواصم البلدان الإشتراكية كالعمل في السفارات السوفياتية في تلك البلدان غير مرغوب فيه لأن المرتبات فيها أقل من الغرب بمقدار "الثلث" ولذا فإن العمل في أوروبا الغربية كباريس ولندن وبون وجنيف هو حلم الدبلوماسيين السوفيات ونسائهم ولا يتذمر أحد من الدبلوماسيين من العمل في الجزائر وسوريا والمغرب وموريشيوس وأكثرهم لا يجدون رغبة في العمل في جنوب شرق آسيا . ومن المؤكد أن كل دبلوماسي سوفياتي أو ضابط مخابرات ذاق طعم الحياة خارج نطاق المجتمع السوفياتي يود الإستمرار في الحياة بالخارج خاصة في البلدان الرأسمالية. وعلى كل حال فالدبلوماسيّون السوفيات ليسوا سوى بشر كغيرهم من الناس. وإن رغبة بعضهم في العمل الدبلوماسي لا تقل عن رغبة غيرهم من الدبلوماسيين الغربيين وغيرهم في العمل الدبلوماسي في هذه البلدان.

المرجع

١- سعيد الجزائري "ملف الثمانينات عن حرب المخابرات". دار الجيل .بيروت.ودار دمشق ١٩٨٩ .ص٢٨٥_٢٩٠.

الاعلام الصهيوني في فرنسا
وقضية السيد روك

المستنقع الآسن لا يفرز إلا الميكروبات والأوبئة؛ ومن تغلغل في دمه وشرايينه الهواء الفاسد وجميع ميكروبات جهات الدنيا الأربعة، لا يمكن أن يفرز هواء نظيفاً تتنفسه رئة البشرية في كل زمان ومكان. ذلك هو حال العرب - وشعوب العالم أجمع - مع الحركة الصهيونية، التي لا تتنفس إلا الإجرام والدم والعنصرية، في الوقت الذي يدّعي فيه أنصارها ومروّجو دعاياتها وأساليبها بأنهم أكبر ضحايا البشرية على سطح الأرض.

وعندما كان صحيحاً ذلك القول بأن «كل وعاء بما فيه ينضح»، فليس هناك مجال للإستغراب بما تقدم عليه الحركة الصهيونية من أعمال وممارسات وخطط وسياسة، وخصوصاً بعد أن جرعنا نحن العرب كأس المرارة - حتى الثمالة - من جراء نهجها وسياستها وأساليبها، وما زلنا حتى اليوم نعبّ من هذا الكأس - بإرادتنا أو رغماً عنا - فتزيد مرارته دون أن ينقص، وكأننا نعمل على إبقائه مليئاً دون أي نيّة لإفراغه.

اضافة لكل ذلك، فقد علمتنا التجارب المريرة أن جميع الحصانات الدبلوماسية وغيرها لا وجود لها في قاموس الصهيونية، اذا كانت خارجة عن نطاق خدمة أهدافها ومراميها؛ ومهما علت مرتبة صاحب الحصانة، يجب أن يبقى - برأي الصهيونية - مطيّة وأداة في يدها تحركه كحجر «الداما» أو «الشطرنج»؛ وإلا الى القبر. . .

والتاريخ حافل بمثل هذه المآثر؛ وليست جريمة اغتيال الكونت فولك

برنادوت/ الأمين العام للأمم المتحدة/ وجيمس فورستال/ وزير الدفاع الاميركي في حكومة الرئيس هاري ترومان/ إلا أحد هذه النماذج التي تؤكد عنصرية الصهاينة، وكل ما تحمله نازية القرن العشرين وفاشيته من عنف وهمجية.

والجدير ذكره في هذه المسألة هو أن الحركة الصهيونية كانت ـ وما زالت ـ تعتبر فرنسا حلقة مركزية هامة في السلسلة التي تريدها طوقاً لأعدائها في سبيل أهدافها الستراتيجية، رغم تركيزها أيضاً على أميركا وبريطانيا ودول حلف شمال الأطلسي وصولاً الى تمركزها وتمدّدها اليوم في القارة الأفريقية السوداء.

وليس مستغرباً على الانسان، المطّلع على سجلّ الصهيونية وتاريخها الدموي الإجرامي، أن يفاجأ بأي عمل من أعمالها، أو أي أسلوب من جملة أساليبها الدهائية الخبيثة. ومما يستحق الاشارة اليه في هذا المجال، هو القضية التي شغلت فرنسا ـ ولا تزال ـ منذ شهر يوليو ١٩٨٦، وهي القضية المعروفة باسم «قضية روك».

فما هو سر هذه القضية؟ وما هي تفاصيلها وأبعادها؟ .

كثيراً ما يعمد الصهاينة بين حين وآخر الى إثارة قضايا معينة، وكأنهم يقصدون من وراء ذلك في كل مرة، اختبار قوتهم وحجم نفوذهم بين الجمهور الفرنسي. ولقد شن الصهاينة حملة إعلامية على «كورت فالدهايم»/ الأمين العام السابق للأمم المتحدة/ ولمدة ثلاثة أشهر في الصحافة الفرنسية وعملوا على توجيهها وتحريكها بشكل يخدم أهدافهم في تأليب الرأي العام الفرنسي على مرشح الرئاسة النمساوية من جهة، ومن أجل إعادة التذكير بمذابح النازية لليهود «هولوكوست» لاستدرار مزيد من العطف لصالح اليهود والكيان الصهيوني في فلسطين من جهة ثانية. مع أن هذه المذابح لم تكن سوى خرافة وليست حقيقة.

وبعد أن هدأت هذه الحملة على شخص كورت فالدهايم الذي نجح

في الانتخـابات النمسـاويـة رغم أنف الصهـاينـة، أثيـرت قضيـة جـديـدة في الصحافة الفرنسية تتعلق بموضوع اليهود والنازية والهولوكوست، عرفت بقضية «روك».

حصـل السيد «هنـري روك» في عام ١٩٨٥ على شهـادة الدكتـوراه من جامعة /نانت/ بموجب أطروحة ناقش فيها «تقـرير جـرستين» المتعلق بوجـود «غـرف الغاز» التي زجّ فيهـا اليهود على يـد النازيين إبـان الحـرب العـالميـة الثانية، والتي أودت بحياة ستة ملايين يهودي حسب الدعاية الصهيونيـة. وكما قال السيد «روك» في صحيفة «لوموند Le Monde» الفرنسية بتاريخ ٣ يونيـو ١٩٨٦، أن أطـروحته «لا تنفي ولا تؤكـد وجود مثـل هذه الغـرف». وتتـطرق أطروحته الى تقرير يعتبـر حجر الأسـاس الذي يعتمـد عليه الصهـاينة لإثبـات مقولتهم حول «غرف الغاز» النازية. ويصل السيد «روك» الى أن هـذا التقريـر ليس صالحاً لإثبات أي شيء يحتوي على تناقضات كثيرة!!.

وهنـا يكمن بيت القصيد. لقـد ثار غضب المجمـوعات الصهيـونية في فـرنسا، التي اعتبـرت أن «روك» قد مسّ المحـرّمات الصهـيونية. وبنـاء على ذلك فقد قام «اللوبي اليهودي» في فرنسا بـإثارة هـذه المسألـة، مستنكراً ليس فقط محتوى الأطروحة، بل ومناقشتها في جامعة فرنسية ونيل درجة الـدكتوراه عليهـا. وقام بعض أسـاتذة الجـامعـات الأوروبيـة وبتحـريض من الصهـاينة، بتشكيـل لجنة مهمتهـا إعادة النـظر في درجة الـدكتوراه، والمـطالبـة بـإظهـار «الحقيقة التاريخيـة»، حسب الروايـة الصهيونيـة، وللعمل على منـع نشر أي أطروحة أو مقالة تتنافى مع «الحقيقة الصهيونية».

وفي مجال آخر قامت الجمعيات المؤيـدة والمناصـرة لليهود في فـرنسا بتنظيم تحركات ومظاهرات نظمت إحداها في باريس بتاريخ ٢٩ مايو احتجاجاً على نشر هذه الأفكار التي تفنّد وتدحض المزاعم الصهيونية.

ولم يكتف اللوبي الصهيـوني بهـذا التحـرك، بـل اغتنم الفـرصـة لشن حملة إعلامية على الحزب اليميني المتطرف وطروحاته حول الحرب العالميـة

الثانية التي يقول فيها بأن النازية ما هي إلا نظام دكتاتوري مشابه لكل الدكتاتوريات في العالم. وهذا ما لا يعجب الصهاينة الذين بنوا قاعدتهم الفكرية على أساس أنهم ضحية لأكبر عملية إجرامية في التاريخ!!.

وبغض النظر عن محتوى أطروحة السيد «هنري روك» وصحة ما جاء فيها، فإن افتعال الضجة الصهيونية حول هذه الأطروحة يعتبر تدخلاً سافراً في الحياة الفكرية والحياة الجامعية في فرنسا، البلد الذي يعتبره البعض واحة للديمقراطية الغربية.

فالصهاينة يحاولون منع أي بحث جدي، وحتى على مستوى أكاديمي، يناقش «الحقائق التاريخية»، التي يريد لها الصهاينة أن تصبح مسلّمات ومحرّمات يمنع التعرض لها. فما فرضه الصهاينة لا يمكن زحزحته طالما تسيطر النظرية الصهيونية والفكر الصهيوني على الأبحاث والفكر الغربي الخاص بقضاياهم. ومن هذه المسلّمات هو ما فرضه الصهاينة حول تاريخ اليهود وخصوصاً في أوروبا. وكلما حاول أحد الأوروبيين أن يخترق هذا الطوق الصهيوني، ترى الصهاينة يغضبون ويزمجرون، كما فعلوا منذ عدة سنوات عندما ناقش أستاذ في جامعة «ليون» نفس هذا الموضوع، واسمه «فوريسون».

ان استنفار «اللوبي الصهيوني» في فرنسا على كل أطروحة أو دراسة أو مقالة تتعارض مع الطروحات الصهيونية هو أسلوب قديم مارسه الصهاينة في كافة الدول الرأسمالية، من أجل إرهاب كل من تخوّل له نفسه أن يخرج عن الخط الصهيوني العام.

ولم يقتصر هذا الأسلوب الابتزازي على الدول الغربية فحسب، بل تعدّاه لكي يطال الدول الاشتراكية. وأصبح معروفاً بأن الصهاينة يمارسون ضغطاً كبيراً على الاتحاد السوفياتي من أجل السماح لليهود السوفيات بالهجرة الى فلسطين المحتلة.

أما على الصعيد الفرنسي، فإن الضغط الصهيوني يشكل خطراً على

البحث العلمي ويعتبر تدخلاً مشيناً في الحياة الأكاديمية لمنع إبراز الحقائق التاريخية حول الإدعاءات الصهيونية فيما يخص يهود أوروبا والقضية الفلسطينية. ومن جهة أخرى فإن المطالبة الصهيونية بإعادة النظر في منح شهادة الدكتوراه لباحث فرنسي، يشكل سابقة خطيرة في الجامعات الفرنسية. وإذا ما نجح الصهاينة في ضغوطاتهم، فإن هذا يشكل خطراً كبيراً على الحرية الأكاديمية وحرية الرأي في جامعات فرنسا، وهذا يعني أنهم سيمنعون حتى التطرق الى القضية الفلسطينية أو الظروف التي أدت الى قيام الكيان الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني..

ويبقى سؤال كبير يرتسم في مخيّلة الكثيرين: فهل سيتمكن «اللوبي الصهيوني» في فرنسا من السيطرة كلياً على الجامعات كما سيطر على وسائل الإعلام المختلفة؟ ان هذا يتوقف على يقظة الأحزاب الفرنسية والعاملين في الجامعات الذين يرفضون أسلوب الابتزاز الصهيوني.

ولكن! ماذا كانت نتيجة الضجة الصهيونية ضد السيد «هنري روك»؟.

فبناء على الضغوطات الصهيونية، وخوفاً من أن يوصم الوزير الفرنسي بمعاداة اليهود واللا سامية، فقد قرر الوزير المفوّض بشؤون التعليم والأبحاث في ٢ يوليو إلغاء مرافعة السيد «هنري روك» وبالتالي حرمانه من درجة الدكتوراه التي دافع عنها في ١٥ يونيو ١٩٨٥. كما قرر الوزير تعليق وظيفة الاستاذ «جان كلود لاريڤيير J. k. La Rivière» وإيقاف انتدابه من جامعة نانت لأنه هو الذي أشرف على المرافعة وقبل موضوع الأطروحة.

وبناء على هذا القرار، يحرم السيد «هنري روك» أن يحمل لقب دكتور، كما يمنعه من نشر أطروحته على الملأ. أما فيما يخص الاستاذ «لاريڤيير La Rivière» فإنه سيخضع الى جلسة تأديبية أمام مجلس الكلية.

ومن جهة أخرى فقد أصدر الوزير أوامره بإجراء تشديدات على مواضيع الدكتوراه وذلك للحفاظ على سمعة الجامعات الفرنسية. أي لمنع اختراقات

اكهذه في المستقبل.

ومن خلال ذلك نستطيع أن نرى أن الصهاينة نجحوا أخيراً في إثارة موضوع هذه الأطروحة التي تنفي بشكل غير مباشر وجود «غرف الغاز» النازية. كما نجحوا في إلغائها وحرمان صاحبها من اللقب. وهنا نلاحظ أن قضية «روك» تعطي دليلاً جديداً على النفوذ الصهيوني في فرنسا. كما نلاحظ بأن قضية اليهود لا تزال تشكل حساسية خاصة لدى المسؤولين الأوروبيين الذين يتحاشون الاقتراب من المسائل التي تغضب اليهود، خوفاً من أن يتعرضوا للحملات الإعلامية الصهيونية التي قد تفقدهم مواقعهم.

وقد كانت الحملة على الدكتور كورت فالدهايم خير مثال على هذه الحملات الإعلامية الشرسة ضد من يخاصم اليهود أو يغضبهم. ولكنها فشلت ضد فالدهايم، ونجحت في فرنسا.

واذا كان الاستاذ «هنري روك» قد خسر لقب «دكتور» بعد بحث وتنقيب في مئات الوثائق والمراجع والمصادر العلمية، وبعد جهد كبير ووقت طويل أمضاه في إعداد أطروحته، فإنه جدير في المقابل أن يحمل لقب «مناضل» ضد الصهيونية والعنصرية، ولقب «دكتور» أيضاً رغم أنف الصهيونية وأذنابها في فرنسا وغيرها، شرط أن لا يخاف المواجهة، وأن لا ينسحب من ساح الصراع معها ومع أنصارها، لأن قضية الحق تستحق مثل هذه الوقفة الشجاعة والجريئة، ومن يخاف الدفاع عن قضية الحق، فعن أية قضية يتجرأ الدفاع عنها.

وليتذكّر «هنري روك» وأمثاله أن الكثيرين من أصحاب الألقاب الكبيرة الذين تعربشوا إليها فوق الجثث، وعبر بحر من الجرائم والدم، ذهبت معهم الى قبورهم، وتلازم أسماءهم في كل لحظة تتلفّظ فيها الشفاه، إلا أن مصيرهم لا يجهله حتى الأطفال الذين ما زالوا على الأرض يَحْبُوْن.

وهل هناك أكبر من لقب «الفوهرر» و«الدوتشي» و«الامبراطور» و«الشاه»

في قاموس القرن العشرين؟.

وكم في هـذا الكـون من أشخـاص فقـدوا حقهـم في حيـاتهم، إلا أن قضية الحق تبقى أكبر من الأشخاص في كل زمان ومكان. . . كما يبقى لرموز هذه القضايا قيمتهم وأهميتهم على مدى التاريخ.

«والحق يعلو ولا يعلى عليه».

المراجع

١ ـ مجلة «فلسطين الثورة» (لسان حال حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» ـ المجلس الثوري). العدد ٢٠١. بتاريخ ١٥/٧/١٩٨٦. ص ٤٢ ـ ٤٣.

٢ ـ جريدة «لوموند Le Monde» الفرنسية. بتاريخ ٣/٦/١٩٨٦ و٥/٦/١٩٨٦ و٤/٧/١٩٨٦.

الفصل الثاني

ملف الإستخبارات البريطانية

الاستخبارات البريطانية

في كتابه حول «الاستخبارات البريطانية وعملياتها السرّية»، يذكر جوناثان بلوش قائلاً بأن لهذا الاستخبارات دوراً عريقاً وقديماً، بل ربّما كان الأعرق بين أجهزة الاستخبارات الامبريالية والاستعمارية الأخرى كافة. وإن كان هذا الدور قد تراجع في السنوات الأخيرة، بعد أن تعملق دور الاستخبارات الأميركية، وتضخم حجم عملياتها المستورة الى حدود شبه خيالية، وأصبحت عمليات الاستخبارات البريطانية، في حالات كثيرة، جزءاً من عمليات الاستخبارات الأميركية، أو تابعاً لها؛ مع أن الاستخبارات البريطانية هي التي رعت ولادة وترعرع الاستخبارات الأميركية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

على ضوء ذلك، تؤكد معظم المصادر، أن أقدم وأعرق استخبارات في العالم الحديث منذ النهضة، هي الاستخبارات البريطانية. حيث تأسست عام ١٥٧٣ على يد «السر فرنسيس والشينغهام» وزير الدولة والمستشار لدى الملكة اليزابيث الأولى.

والواقع أن أول وأهم عمل قامت به استخبارات فرنسيس والشينغهام في تلك الأيام الغابرة، كان التجسس على ماري ستيوارت ومصادرة الرسائل السرّية الواردة اليها في براميل البيرة. وبفضل المعلومات القيّمة، قتلت اليزابيث عدوّتها ماري ستيوارت، ومدّدت رجليها على العرش.

نظر والشينغهام الى مهمته بجدّية بالغة منذ البداية. فراح يوظف أذكى المتخرجين من طلاب أكسفورد وكامبريدج ويرسلهم الى الخارج للتغلغل في

قصور أعداء التاج البريطاني. وفي العام نفسه، كان والشينغهام يقدّم الى ملكته تقريراً مفصّلاً جداً عن الأسطول الاسباني الذي كان يرهب بريطانيا والعالم في تلك الأزمان. وبالنتيجة طار الاسطول الاسباني من الوجود.

بعد انقضاء ستة وعشرين سنة على ذلك، كان خليفة والشينغهام، جون تورلو، يقوم باستخبارات حسنة التمويل والنتيجة كوزير للدولة لدى أوليفر كرومويل، وبالشكل الذي أحبط مؤامرات كثيرة من تدبير تشارلز ستيوارت. وحتى هذه الأيام، تبدو المخابرات البريطانية شديدة التعلّق بتقاليد الماضي، ولو أنها تعمل في عصر الذرّة والالكترون. أما الوضع الحالي لهذه الاستخبارات، فهو من انتاج العصر المتقدم، حيث تقسم أجهزتها في بريطانيا الى أربعة أقسام على الشكل التالي:

أولاً: جهاز (أم. آي - ٦)، يتبع لوزارة الخارجية مباشرة، وتنحصر مهمته في الخارج.

ثانياً: جهاز الأمن (أم. آي - ٥)، يتبع لوزارة الداخلية، ويقوم بمهمة «مكافحة الاستخبارات» في الداخل.

ثالثاً: المديرية العامة للإستخبارات أو «مديرية جهاز الاستخبارات»، وتتبع لوزارة الدفاع.

رابعاً: الجهاز المتعارف عليه باسم «سكوتلنديارد». متخصص في الشؤون الداخلية ذات الطابع الاقتصادي والجزائي العام. ولها علاقة بالجهازين الأولين. حيث تأسست عام ١٨٨٦ للعمل على تحطيم النشاط الجمهوري الإيرلندي في قلب بريطانيا. وتطورت منذ ذلك الحين لتصبح الإدارة الدقيقة والفاعلة في مقاومة الحركات السرّية المشبوهة، بالإضافة الى كشف الجرائم والجنح. أما بالنسبة للجهازين الاستخباريين (أم. آي - ٦) و(أم. آي - ٥)، فقد تشكلا حوالي سنة ١٩١٠، أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بأربع سنوات.

آنذاك، أي في عام ١٩١٠، تأسس (أم. آي - ٦) برئاسة «السر

مـانسفيلد كامينـغ»، وتلقّت الأموال الـلازمة لهـا لتسلّم مسؤوليـة كـل أعمـال التجسس خـارج نطاق الامبـراطوريـة البريـطانية، وهـو أمر لا تـزال تقـوم بـه المؤسسة حتى اليوم. وقد كان كـامينغ في شبـابه ضـابطاً خـدم في البحريـة، واشترك في حملات قامت بها بريطانيا في مصر والملايو.

أمـا جهاز الأمن (أم. آي ـ ٥)، فقـد تـأسس في الـظرف نفسـه بقيـادة «السر فيرنون كيل»، وهو ضابط اشترك في قتال الصين أثناء ثورة البوكسر سنة ١٩٠٠. هذا الجهاز تأسس بتمويل من وزارة الحربيـة، كما كـان مسؤولاً عن مكافحة التجسس ضمن بريطانيا والامبراطورية. وهـذه المهمة لا تـزال قائمـة حتى الآن، رغم تقلّص الامبراطورية.

بـدأ «فيرنـون كيـل» العمـل وحـده؛ لكن تـطور الأمـور، والقبض على الجواسيس الالمان، أوصل عدد المساعدين عند نهاية الحرب العالمية الأولى الى ٨٠٠ شخص. وقـد بقي «كيل» في منصبـه حتى العام ١٩٤٠. وعنـدمـا استقال، كان عدد أفراد مؤسسته قد بلغ حوالي السبعة آلاف.

وفي صيف ١٩٤٠، أنشئت «إدارة العمليات الخاصة» كهيئة مستقلة عن الاستخبارات وجهاز الأمن، بنـاءً على أمر شخصي من ونستـون تشرشـل الى وزير الاقتصاد الحربي هيو دالتون، والذي جاء فيه بـالمختصر «إجْعـل أوروبا طعماً للنار».

هذا، وقد كان «لإدارة العمليات الخاصة» أسماء مستعارة كثيرة للتمويـه على مكـان مقـرهـا الـرئيسي في شـارع بيكـر، منهـا «مكتب الأبحـاث»، و«المجلس المشتـرك للشؤون التقنية». ووراء هـذه الإدارة كان هنـالـك عقـل رئيسي يديرها هو «السـر كولين غـابينز»، وهـو ضابط في الجيش. لكن هـذه الإدارة أنهيت أعمالها وألغيت من الوجود بعد انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة. وقد بقيت محفوظاتها مغلقاً عليها في مكان سرّي. إلا أن مـاكميلان، بعـد ما أصبح رئيساً للحكومة، فقد سمح بإصدار كتـاب عنها أثـار عاصفـة من النقمة والاعتـراض في كل من بـريطانيـا وفرنسـا، لأن المُواضيـع التي عالجهـا هذا

الكتاب، أظهرت مدى الإشراف البريطاني على حركة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال.

يبدو من خلال ذلك، أن أجهزة الاستخبارات البريطانية لا تخضع دوماً لسلطة الحكومة، بل كثيراً ما تخضع الحكومة لسلطتها.

والحقيقة ان الاستخبارات البريطانية قامت بكثير من عمليات الارهاب والفحش والقذارة الصرفة ـ على حدّ قول بلوش ـ وهي العمليات التي تمت لحماية مصالحها المفترضة، ذات الطابع الاقتصادي في الغالب، عندما بدأت الامبراطورية الاسطورية بالسعال والحشرجة قبل أن تهوي في القبر.

وقد وصل الأمر بهذه المخابرات، الى أنه لم يكد يمر يوم واحد عليها منذ الحرب العالمية الثانية، دون أن يكون للروس (السوفيات) موظفون في هذه الإدارات البريطانية، يفيدونهم عن عمليات هذه الإدارات التي يفترض بها أن تكون سرّية للغاية، بل الأكثر خضوعاً للحراسة عن قرب. .

وبالرغم من سرّيتها «الزائدة عن اللزوم»، فقد تعرضت الاستخبارات البريطانية لعمليات اختراق، قلّما تعرّض لها جهاز استخباري آخر في التاريخ، خاصة بعد أن تمكنت المخابرات السوفيائية من تجنيد «مدير المخابرات البريطانية» بالذات ـ روجر هوليس ـ للعمل في خدمتها، على رأس فريق «مكافحة الجاسوسية السوفياتية»، كان رؤساؤه بأجمعهم من عملاء السوفيات، مما وجّه ضربة قاسية جداً لهذه المؤسسة البريطانية التي بالغت في الثقة بنفسها حداً كبيراً، ولم تعد بالتالي موضع ثقة من قبل حليفاتها الغربيات، خاصة الأميركية منها (وهذا ما سنراه بالتفصيل في الفصول اللاحقة).

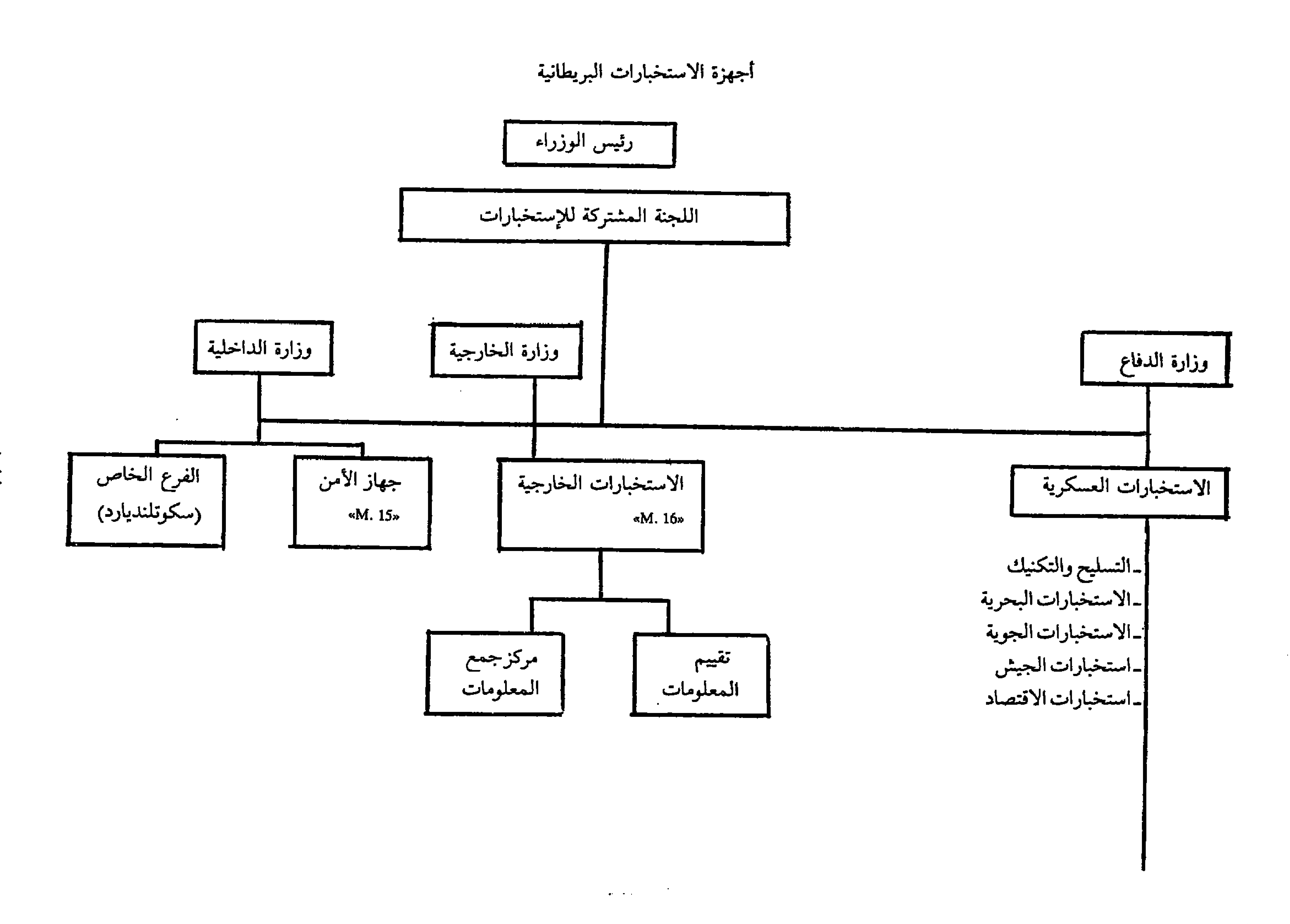
ولكن رغم ذلك، يبقى للمخابرات البريطانية دورها وأهميّتها ونجاحاتها الكثيرة، التي يصعب على أيّ إنسان نكرانها أو تجاهلها، مهما بلغت درجة عدائه لها.

المراجع

١ ـ جوناثان بلوش وباتريك ڤيتز جيرالد «الاستخبارات البريطانية وعملياتها السرّية». ترجمة عفيف الرزاز. مؤسسة الأبحاث العربية.. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٧. ص ٩ ـ ١٤.

٢ ـ حافظ ابراهيم خيرالله «الاستخبارات البريطانية». (ملف رقم ٣ من «عالم الاستخبارات»). أيار/ مايو ١٩٧١. بيروت. ص ٧ ـ ١٣ و١٨.

٣ ـ نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.. ص ٢٤٤.


أجهزة الاستخبارات البريطانية
رئيس الوزراء
اللجنة المشتركة للإستخبارات
وزارة الداخلية
وزارة الخارجية
وزارة الدفاع
الفرع الخاص
(سكوتلنديارد)
جهاز الأمن
«M. 15»
الاستخبارات الخارجية
«M. 16»
الاستخبارات العسكرية
ـ التسليح والتكنيك
ـ الاستخبارات البحرية
ـ الاستخبارات الجوية
ـ استخبارات الجيش
ـ استخبارات الاقتصاد
مركز جمع
المعلومات
تقييم
المعلومات

«لورنس العرب»
بين الوهم والحقيقة

عندما حدد مؤتمر «كامبل بنرمان» البريطاني عام ١٩٠٧ الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية كمنطقة حيوية للامبراطوريات الاستعمارية للتحكم بقارتي آسيا وأفريقيا، أدركت بريطانيا هذه الأهمية التي دفعتها للإسراع في اتخاذ الخطوات التي تضمنُ لها أفضل النتائج على الصعيد العملي. وعندما كانت «جميع الاكتشافات مع دقتها لم تستطع الحلول محل الانسان الذي يبقى العنصر الأساسي في حقل الاتصالات والشيفرة» لجأت بريطانيا الى ارسال من وجدت فيهم الكفاءة الفائقة في تنفيذ مطامعها وأهدافها، باعتبارهم اخصائيين في المجال العلمي، يمارسون من خلاله مهنة «الاستخبارات» في مختلف الحقول التي تعتمد عليها الدبلوماسية الانكليزية خدمة لمصلحتها أولاً والصهيونية ثانياً. وعلى هذا الأساس كان الدكتور «دايفيد جورج هوغارث» وتوماس ادوارد لورنس (الذي لقب بلورنس العرب) في طليعة الرجال الذين قدموا لبريطانيا والصهيونية معاً خدمات تعجز عن تحقيقها مؤسسات كبيرة.

لذلك يعتبران من أشهر رجال بريطانيا العظماء. إلا أن الأهمية الأولى في هذا المجال حاز عليها لورنس نظراً للمنجزات الهائلة التي قام بها، حتى غلب عليه فيما بعد اسم «لورنس العرب».

فما هو سر هذه الأهمية التي احتلها «لورنس العرب» في بلاد العرب وأوروبا والعالم؟.

ولـد لورنس في مقاطعة ويلز البريطانية في ١٦ أغسطس ١٨٨٨. وهو ابن غير شرعي للسيد توماس روبرت تشلبمان من السيدة «سارة مادن» مربية بنـاته الأربـع من زوجته الأولى. إلا أن تـوماس غيّـر اسم عائلتـه بعدمـا هـاجـر من ايرلندا الى انكلترا وأصبح يُعرف باسم لورنس منذ ذلك الحين.

فـي شهـر اكتـوبر مـن عـام ١٩٠٧ التحق لورنس بكليـة يسوع في أوكسفورد. وهناك سجل لنفسه عدة اكتشافات رائعة عنـدما كـان يقوم بـأعمال التنقيب عن الآثار تحت مياه البحر. واستطاع من خلال ذلك أن يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار الذين كانوا يتمتعون بمراكز هامة في الاستخبـارات البـريطانيـة وعلى رأسهم الدكتـور «دايفيد هـوغارث» استـاذ لورنس، وكذلـك «ليونارد وولي».

كان هوغارث ضابط الاستخبارات البريطانية المتخصص بشؤون الشرق الأوسط. وكانت معلوماته عن أوضاع البلدان العربية في ظل الحكم العثماني لا تضـاهى في ذلك الحين. فقـد أمضى هوغـارث وقتاً طـويلاً يـدرس أحوال هذه المنطقة من النواحي السياسية والوطنية والدينية والتحركات السرية ونوعية قياداتها ونشاط الالمان والفرنسيين والبوليس السري التابـع لهم وطبيعة الأرض الاسـلامية ونفسيـة الحكام العسكـريين فيها وجـو المعارك المتـوقع في حـال نشوب حرب.

والواقع أنه كان للدكتور هوغارث تأثير هام على مجـرى حياة لـورنس. كما لم يكن ذلك بعيداً عن نشاط الاستخبارات البريطانية في محـاولتها كسب لـورنس الى صفوفهـا، حيث أشارت الى استـاذه بضـرورة الاهتمـام بـه بعـد نجـاحاتـه واكتشافـاته وتفـوقه، وتجييـر كل ذلـك لصالـح السياسـة البريـطانية بمجملهـا. وهكذا تمكن لـورنس بواسـطة هوغـارث من الحصول على منحـة خوّلته الاشتراك في رحلة «علمية» للقيام بالبحث والتنقيب عن الآثار في وادي الفرات. كانت هذه البعثة برئاسة الدكتـور هوغـارث نفسه الـذي عيّن لورنس مشـرفاً على فـرق العمـل التي كـانت تتـألف من الأكـراد والتـركمـان والأرمن

والعرب. وقد نجحت هذه البعثة في العثور على مدينة كركميش التي كانت قديماً عاصمة الامبراطورية الحثية... هذا ويضم متحف اشمولين في أوكسفورد الكثير من الآثار التي «وهبها» لورنس إليه لعرضها فيه قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وفي معرض الاشارة الى هذه البعثة يقول الاستاذ زهدي الفاتح: «ظلت مهمة هذه البعثة سراً دفيناً. إلا أن أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمة للغاية عسكرياً واستراتيجياً. ويمكن تشبيه مهمة هذه البعثة ومموليها بأية بعثة اميركية مماثلة في هذه الأيام وتمولها المخابرات المركزية الاميركية». والجدير بالذكر أن لورنس تعرّف على جميع المواقع الاستراتيجية التي كانت موجودة في المنطقة بأسرها. كيف لا، وهو الذي تجوّل في جميع أرجاء المنطقة سيراً على الأقدام يشاهد مواقعها ويدرس ويدقق ويبحث حتى «أصبح مرجعاً للمعلومات الدقيقة عن منطقة الشرق الأوسط وطبيعة تكوينها ومعالمها الطوبوغرافية». وقد بلغ حداً من النشاط جعل الأتراك يرتابون بأمره في عام ١٩١٢ عندما شعر بملاحقته ومراقبته من قبلهم، وكتب الى استاذه هوغارث يقول: «هذه الدولة العجوز ما زال فيها بعض حياة بعد. انها تراقبني».

من خلال هذه الكلمات تتوضح مهمة لورنس بالتحديد وتجاوز العلاقة «العلمية» بينه وبين استاذه الى ما هو أبعد من ذلك بكثير، عبر استغلال اختصاصه بتوجيهات استخبارية يمثل هوغارث حلقة الاتصال المركزية فيها. ولو كان نشاطه بعيداً عن هذا الواقع لما أظهر قلقه وخوفه من المراقبة العثمانية ليبلغ الاستخبارات البريطانية وحدها بما يتعرض له من مضايقات.

هذا وقد عبّر لورنس نفسه عن طبيعة العلاقة الوثيقة التي تربطه بالاستخبارات عبر أستاذه ـ عالم الآثار ـ حيث ألحق بمدرسة الارساليين الاميركيين في جبيل لتحسين لغته العربية. الا أنه قال في ذلك: «لسبب ما يريدني هوغارث أن أتقن العربية». وبالفعل فقد توضح هذا السبب فيما بعد عندما عمدت الاستخبارات البريطانية الى تحويله من عالم آثار الى عسكري

خبير في شؤون المنطقة. وفي هذا المجال برزت موهبة لورنس العسكرية النابعة من معرفته بكل التفاصيل الدقيقة المتعلقة بمنطقة عمله. لذلك عيّن في دائرة الخرائط التابعة لرئاسة القوات البريطانية في الشرق الأوسط، حتى أن الضباط أنفسهم كانوا يستشيرونه بشأن أية خطة يريدون الاتفاق عليها. مع العلم أنه كان واحداً من فرقة خاصة تتألف الى جانبه من ليونارد وولي ونيوكومب. عهد اليه الانكليز مهمة القيام بوضع الخرائط، خاصة تلك المتعلقة بشبه جزيرة سيناء، بعد توغلهم فيها متخفّين. ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً. بالاضافة لكل ذلك فقد شغف لورنس بمطالعة الكتب العسكرية ووقائع الحروب والتعمّق في دراستها واستيعابها. ونظراً لتأثره بها فإنه اختار موضوع الهندسة المعمارية العسكرية التي شيد الصليبيون قلاعهم بموجبها، موضوعاً لأطروحته الجامعية تحت عنوان «قلاع الصليبيين»، نال عليها مرتبة الشرف الأولى، لأنه اعتمد فيها على التشويه والتزوير قائلاً بأن الصليبيين هم الذين نقلوا الى الشرق الأوسط علوم الهندسة الحربية من الغرب.

وفي يناير ١٩١٤ انخرط لورنس رسمياً في سلك الاستخبارات البريطانية العسكرية ونقل من قسم الخرائط الى دائرة المخابرات السرية التي كان عملها منحصراً في المناطق التي يحتلها الأتراك حين عين رئيساً لأحد فروع تلك الدائرة. ولكي يكون جديراً بالمسؤولية الجديدة وناجحاً في تنفيذ سياسة أسياده، فإنه سعى لتجنيد عدد من الشبان المحليين في دائرته انطلاقاً من التسهيلات المتوفرة لهم في التوغل الى ما وراء المناطق المحتلة والخروج منها بعد حصولهم على كافة المعلومات المطلوبة. وبالاضافة لذلك فإنه تولى عملية استجواب أسرى الأتراك توصلاً الى معرفة أماكن قواتهم وعددها. وبالفعل نجح لورنس في هذا المجال نجاحاً كبيراً، واعتبر رجل مخابرات من الطراز الأول، في الوقت الذي شكلت فيه الحرب العالمية الأولى نقطة بارزة في تاريخ الاستخبارات. «قبلها كان هذا العلم ذا أهمية ثانوية، في حين أصبح بعدها يشكل دعامة في مقدمة الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تعد الاستخبارات وفنونها المختلفة كما كانت قبل الحرب طفلاً

يحبو متلمساً طريقه. أصبحت مكتملة النمو، شديدة البأس تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون. وهذا ما أدى فيما بعد الى التفاعل المستمر بينها وبين المعلوماتية».

بلغ لورنس في عمله الاستخباري هذا مرتبة عالية وكانت علاقاته المباشرة مع القادة الانكليز - سياسيين وعسكريين - لها الطابع الفاعل والمؤثر على مجمل السياسة البريطانية، من خلال لقاءاته مع اللورد كيتشنر، المقيم البريطاني في مصر، والدكتور هوغارث ضابط الاستخبارات المتخصص بشؤون الشرق الأوسط، والكولونيل غيلبرت كلايتون رئيس قلم الاستخبارات البريطانية في القاهرة، والآنسة غروترود بل المستشارة السياسية للسير بيرسي كوكس رئيس المكتب السياسي في الشرق بصورة غير رسمية، والكولونيل بيتش الضابط البارز في قسم الاستعلامات التابع للفرقة التي يقودها الجنرال «تاونسند». بالاضافة الى عدد من زملائه العلماء «أمثال مارك سايكس ولوبري هوبرت وكورانواليس، ونيوكومب وليونارد وولي ولويد جورج». هذه الشبكة الاستخبارية التي لعب فيها لورنس الدور البارز كان لها أهميتها الكبرى لإنكلترا. اذ كانت بمثابة عيونها وآذانها وأصابعها في المنطقة العربية. حتى أنها شاركت عملياً في المعارك العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي كانت فيه تمارس عمل التجسس والاستخبارات.

في معرض ذلك يقول ايسر هرئيل رئيس الاستخبارات الاسرائيلية السابق «إن شبكات الجاسوسية ما هي إلا نوع من الحرب الباردة ولكنها حرب أدمغة لا حرب سلاح ونار».

وبالفعل فقد كان لورنس دماغ بريطانيا في المنطقة العربية. وبرز دوره الكبير في الحرب العالمية الأولى من خلال أية مهمة كلف بها، إن كان ذلك في مصر أو العراق أو سوريا أو في الجزيرة العربية. كما برز نشاطه واضحاً في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي والاستخباري دون أي تقصير أو اهمال.

وانطلاقاً من التوجيهات التي تلقاها لورنس من المخابرات البريطانية، فإنه زعم مناصرته للقضايا العربية والوقوف بجانب قادة الثورة ضد الأتراك دفاعاً عن الحق العربي. بيد أن ذلك لم يكن إلّا حلقة في سلسلة تهدف الى تطويق المنطقة وخنقها وربطها بالمشاريع الاستعمارية البريطانية وتفويت الفرصة على الفرنسيين. وقد عبر لورنس عن ذلك في رسالة بعث بها الى الدكتور هوغارث، أعرب فيها عن مخاوفه من أطماع فرنسا في الشرق الأوسط قائلاً: «إنني أرى أن فرنسا لا تركيا هي عدوتنا فيما يتعلق بسوريا». كما كان يكثر من الظهور باللباس العربي سواء في القاهرة أو غيرها من المدن العربية والأجنبية - خاصة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلم - كي يلفت الأنظار الى شخصه أكثر من اللزوم... وقد رفض ارتداء الملابس العسكرية عندما اشترط عليه الجنرال ويميس قائد القوات البريطانية في مصر ذلك عند مرافقته الى الخرطوم في السودان للقاء الجنرال وينغات القائد العام للقوات البريطانية في شبه الجزيرة العربية.

والواقع أن تصرف لورنس بهذا الشكل كان نابعاً من سياسة المراوغة والدجل البريطانية لإيهام العرب بأنها نصيرتهم وحامية مصالحهم وحقوقهم. هذا في الوقت الذي كان يلعب فيه لورنس دور ضابط الارتباط بين قادة الثورة العربية من جهة وبريطانيا من جهة ثانية.

في الوقت ذاته كانت التقارير التي يرفعها لورنس الى المخابرات البريطانية تكشف حقيقة السياسة الانكليزية تجاه العرب وثورتهم. ففي أحد هذه التقارير السرية حدد لورنس في شهر كانون الثاني/يناير ١٩١٦ الأهداف الرئيسية لبريطانيا وللغرب عامة فيقول: «.. أهدافنا الرئيسية: تفتيت الوحدة الاسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها... وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقل وعياً للإستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك. إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية».

في هذه الفترة أيضاً (كانون الثاني/يناير ١٩١٦) كان الكولونيل جيلبرت كلايتون يعكف في المكتب العربي البريطاني في القاهـرة مع عـدد من ضباط الاستخبارات البريطانية هناك على إعداد مخطط عملي لتطويع حركـة القوميـة العربية في خدمة الأهداف الحربية البريطانية. وقد سبق لماكس نوردو المفكر الصهيوني أن أشار في أوائـل هذا القـرن الى إمكان استغـلال حركـة القوميـة العربية لضـرب العرب أنفسهم بحكـام الدولـة العثمانيـة والقضاء على الاثنين معاً في فلسطين خاصة، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغة من السكان. ومن المؤكد أن ادعاء لورنس السعي الى منح العرب الحرية والاستقلال كان قائمـا على أساس اعتبارات محددة واضحة: فقـد كان مصممـاً على إلحاق البلدان العربية بالامبراطورية البريطانية، ايماناً منه بأن هذا الوعد هو الوسيلة الأفضـل لدفعهم للقتال الى جانب الانكليز. رغم أن السياسة البريطانيـة وهو واحـد من المخططين لأسسها، لن تنفذ أبداً ذلك الوعد الذي حلم به العرب طـويلاً ومن أجله حاربوا. وفي احدى رسائله الى صديقته شارلوت شو في ١٩ آذار/مارس ١٩٢٤، يـوضح لـورنس قـائـلاً: «لقـد سـاعـدت على حبـك المؤامـرة... وخاطرت لإيماني أن وقوف العرب الى جانبنـا هو عـامل حيـوي لتحقيق أملنا بانتصار سريع بخس الثمن في الشرق. والأفضل لنا أن ننتصر وننكث بوعدنـا من أن ننكسر».

على ضـوء ذلـك تبـدو بصمـات لـورنس واضحـة في تـوقيـع اتفـاقيـة سايكس - بيكو وبنودها، خاصة وأن مارك سايكس كان أحـد زملائه وأصدقائـه الحميمين. وقد كان هذا الاتفاق صهيونياً بصـورة كلية بـدليل اعتنـاق موقّعَيـه البريطاني والفرنسي للصهيونية قبل عام ١٩١٦ باعتراف «كريستوفر» ابن مـارك سايكس نفسه بصراحة تامة في كتابه الذي صدر عـام ١٩٥٣ بعنوان: «دراسـة مأثرتين». بعد ذلك توّجت بريطانيا علاقتها العضوية بـالحركـة الصهيونيـة في إصدارها وعد بلفور في الثاني من ت٢/نوفمبر ١٩١٧. وكان للإستخبارات البـريطانيـة دورها الكبيـر في هذا المجـال. حتى أن لـورنس نفسـه لم يُخْفِ تأييده لـوعد بلفـور الذي اعتبـره وسيلة لإبعاد مـطامع الفـرنسيين في فلسطين

وسوريا كلّها إلا أنه كان يخفي أمراً مذهلاً: فقد كان يعمل لإقامة دولة عربية قومية في سوريا تحت الحماية البريطانية، ولكن بتمويل وتوجيه الصهيونية العالمية... وعندما طُلب اليه انكار محتويات رسالة شتم وتحقير وجهها الى الدكتور «ماك آنيس» كاهن الابرشية الانكليزية في القدس لاعتراض الأخير على فكرة إقامة «وطن قومي لليهود في فلسطين»... رفض ذلك، وعاود الكتابة الى الكاهن يلومه على احتجاجه قائلاً: «كان الأفضل لك أن تفعل شيئاً آخر غير الاحتجاج، لكنك غير صالح حتى لتنظيف حذاء وايزمن». هذا في الوقت الذي كان فيه لورنس «يقدر تقديرا واضحا وكبيرا حاييم وايزمن منذ أن التقيا في فلسطين بعد سقوط القدس ليبحث مع الأمير فيصل المقترحات الصهيونية الخاصة بتوطين اليهود في الديار المقدسة».

على هذا الأساس يبدو أن لورنس لم يكن فقط ممثلاً لبريطانيا في بلاد العرب بل كان الى جانب ذلك رسولاً أميناً للصهيونية، يحمل أفكارها ومقترحاتها ويعمل بتوجيهاتها وعلى أساسها، حتى مع الذين وعدهم بالحرية والاستقلال وتخليصهم من الحكم التركي.

وهكذا تكنّى لورنس بالعرب ولبس الكوفية والعقال العربيين ليخفي وراءهما كل الدسائس والمؤامرات التي تستهدف القضاء على كل ما يمت الى العرب والعروبة بصلة.

وكم من «لورنس» يسرح اليوم ويمرح في بلادنا مدّعياً الدفاع عن قضية العرب، بينما هو في الحقيقة يحمل معول الهدم والتخريب لزعزعة الوطن والمواطن.

المراجع

١ ـ انتوني ناتنغ ولويل توماس «لورنس لغز الجزيرة العربية». مؤسسة المعارف. بيروت ١٩٨٢.

٢ ـ زهدي الفاتح «لورنس العرب على خطى هرتزل». دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧١.

٣ ـ دايفيد كان «حرب الاستخبارات» ترجمة عبد اللطيف أفيوني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٨٢.

٤ ـ عوني عبد المحسن فرشخ «الظروف الاقليمية في الوطن العربي» منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٤.

٥ ـ توماس أدوارد لورنس «أعمدة الحكمة السبعة». دار الآفاق الجديدة الطبعة الرابعة. بيروت ١٩٨٠.

٦ ـ عجاج نويهض «بروتوكولات حكماء صهيون» المجلد الأول. الطبعة الثانية. منشورات «فلسطين المحتلة». بيروت ١٩٨٠.

٧ ـ فيليب نايتلي وكولين سمبسون «تقارير لورنس السرّية». منشورات نلسون لندن ١٩٦٩.

٨ ـ لورنس العرب (سلسلة «أعلام ومشاهير») بإشراف د. رؤوف سلامة موسى. دار المستقبل بالفجالة ـ الاسكندرية. ودار المعارف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣.

٩ ـ عمر أبو النصر «الجاسوسية حرب الخفاء والمخابرات والتجسس والأسرار بين دول العالم». دار الأمم للطباعة والنشر والتوزيع. دون تاريخ.

صهيونية سايكس بيكو ووعد بلفور وهربرت صموئيل

أثارت المنطقة العربية منذ وقت طويل شهية الدول الاستعمارية الطامعة ببسط السيطرة والنفوذ والتوسع، كما أسالت ثرواتها وخيراتها لعاب المتنافسين عليها باعتبارها عصب الحياة وشريان الوجود.

فبعد التركيز الصهيوني والاستعماري على المنطقة العربية وأهمية وحدتها بصورة خاصة، كان لأبد من العمل في اتجاه التجزئة والتقسيم، وتقطيع أوصال المنطقة وإبقائها مجزأة، ليسهل التحكم بها، وتجيير كل خيراتها وثرواتها لمصلحة هذين الاستعمارين، دون افساح المجال أمام شعبها للتقدم والتطور والاستقلال. ومن هذا المنطلق كان تقسيم المنطقة العربية وتجزئتها عام ١٩١٦ بموجب معاهدة سايكس بيكو على أساس صهيوني بحت كمقدمة لتبرير قيام اسرائيل العنصرية فيما بعد. وقد كان هذا الاتفاق لصالح الصهيونية تماماً وجاء ليخدم هدف الاستعماريين القدامى والجدد.

وقليلون جداً في الوطن العربي هم الذين أدركوا صهيونية مارك سايكس وجورج بيكو، كما يعترف كريستوفر (ابن مارك سايكس)، بصراحة في كتابه الذي صدر عام ١٩٥٣، ويتناول فيه ريتشارد سبثورب أحد رجال الكنيسة في القرن الماضي، كما تتناول دراسته الأخرى حياة والده مارك (وعنوان كتابه هذا دراسة مأثرتين) حيث يقول عن والده في جهوده نحو الصهيونية «كان قد اعتنق الصهيونية سنة ١٩١٥ (أي قبل توقيع المعاهدة بسنة واحدة) اعتناقاً لم يدر به العرب، وكانت مساعيه من أقوى العوامل في حصول اليهود على وعد

بلفور». وترك مارك سايكس وثائق وأوراقاً مختلفة مما يعد كله مصدراً مهماً في أخبار النشاط الصهيوني في لندن بعد ١٩١٤ حتى نهاية الحرب. وحسب قول مارك سايكس نفسه فإن الدكتور موسى غاستر، وهو صهيوني بريطاني، هو الذي أدخله في الصهيونية بعيد تعيينه وزيرا مساعدا لوزارة الحرب في خريف ١٩١٥. أما فيما يتعلق بجورج بيكو ممثل فرنسا فإن بعض المراجع يشير الى سوكولوف بشأن إدخاله وتحوله الى القضية الصهيونية، بيد أن المؤرخ الكبير عجاج نويهض يقول إن لويد جورج لم يدخله أحد وإنما أعطى وجارى. ولا شك أن مارك سايكس يعتبر من الأوائل الذين خدموا الصهيونية خدمات ثمينة، دفعت بوايزمن الى الاعتراف بفضله على الحركة قائلاً: «لا أستطيع أن أفي خدمات سايكس حقها من القول، فهو الذي أرشدنا في عملنا الى مداخل ومخارج أبعد مدى في صبغتها الرسمية، ولولا المشورة التي كان يقدمها لنا رجال من أمثال سايكس واللورد روبرت سيسل في وقت لم تكن لنا فيه خبرة في المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة لارتكبنا أخطاء كثيرة ولا شك».

وقد برهنت هذه المعاهدة عن النوايا الاستعمارية وأسلوب الخداع لتحقيقها حيث كانت بريطانيا تفاوض العرب واعدة إياهم بالاستقلال والتخلص من الحكم العثماني، وكانت مراسلات «الحسين ـ مكماهون» تدخل جوهرياً في هذا الاطار. وكان للثورة البلشفية في روسيا بقيادة لينين الفضل الأول في الكشف عن هذه المعاهدة وأسرارها.

وانطلاقاً من إدراك بريطانيا لأهمية المنطقة العربية وموقعها المتحكم في العالم، توجت تحالفها وعلاقتها العضوية بالحركة الصهيونية بإصدار وعد بلفور، بعد أن شعرت بتعرض مصالحها الشرق أوسطية للخطر، وبعد أن لاحت في الأفق جهود الصهاينة الألمان للحصول على وعد الماني بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين عام ١٩١٧، حتى أن هذا العامل كان من جملة العوامل الضاغطة على الحكومة البريطانية للتعجيل بإعلان وعد بلفور. كما أن أميركا لعبت دورها في هذا المجال عن طريق سفيرها في اسطنبول

مورغنتو عندما ألقى خطابه في مدينة سين سيناتي الأميركية في مايو عام ١٩١٦ وجاء فيه أنه بالامكان وضع ترتيبات شراء فلسطين من الأتراك لصالح اليهود، بعد انتهاء الحرب. ثم كان دخولها الحرب رسمياً في ابريل ١٩١٧ ضد ألمانيا وحليفتها تركيا.

وهناك عامل مهم لعب دوره في الاسراع في اعلان وعد بلفور وهو انخراط الشبان اليهود في روسيا في صفوف الحزب البلشفي بقيادة لينين الذي وقف ضد استمرار روسيا في الحرب، حيث كان في نتيجتها توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي بعد انتصار ثورة اكتوبر ١٩١٧. وهذا ما دفع الجنرال ماكدونف قائد المخابرات البريطانية الى طلب الاسراع في اعلان فلسطين وطناً قومياً يهودياً لكي يتجه الشباب اليهودي نحو العقيدة الصهيونية الرجعية، الموالية للإستعمار، عوضاً عن الانخراط في صفوف الأحزاب الثورية المعادية لبريطانيا.

وقد أوضح هايمان لومر رئيس تحرير مجلة الشؤون السياسية الأميركية في كتابه عن الصهيونية توافق ظهور الصهيونية مع موجة جديدة من العداء للسامية مرتبطة بظهور الامبريالية الحديثة وتطويرها للعنصرية الى أقصى حد، باعتبارها أداة إيديولوجية للقهر. وقد استجابت جماهير الطبقة العاملة اليهودية وبخاصة في روسيا بالانضمام الى الحركة الثورية والصراع دون هوادة ضد الصهيونية.

ويعتبر وعد بلفور من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ، اذ منحت بموجبه دولة استعمارية أرضاً لا تملكها هي (فلسطين)، الى جماعة لا تستحقها [الصهاينة] على حساب من يملكها ويستحقها وهو الشعب العربي الفلسطيني، مما أدى الى اغتصاب وطن وتشريد شعب بكامله على نحو لا سابقة له في التاريخ، ولم يكن ذلك ليتحقق بهذه السرعة، لو لم يحل لويد جورج محل اسكويث كرئيس للوزراء، ولو لم يعُين بلفور وزيراً للخارجية، ولتصبح المراكز الحساسة في الحكومة الانكليزية في أيدي صهيونيين

متسلحين بالهوية البريطانية.

كما يعتبر هذا الوعد المشؤوم بمثابة «جواز السفر» و«تذكرة المرور» لمشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين الى حيز الواقع العملي بإضفاء الصفة الرسمية الدولية عليه، وهذا ما سعى الصهيونيون طويلاً لتحقيقه، حتى أنه أقر كهدف صهيوني أعلى في مؤتمر بال عام ١٨٩٧ مع التأكيد على أن هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي، يضمنه القانون العام، ومن المؤكد أن هذا القانون العام كان حكراً على الزعامة الدولية التي كانت تمثلها بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة.

وكما كانت وثيقتا سايكس بيكو ووعد بلفور صهيونيتي التوقيع والهدف، فقد كان لمؤتمر الصلح والسلام الذي عقد في باريس عام ١٩١٩ دوره الأكبر في تحقيق المزيد من أهداف الحركة الصهيونية عن طريق الأربعة الكبار: الرئيس ويلسون عن أميركا، ولويد جورج عن بريطانيا، وكليمنصو عن فرنسا، وأورلندو عن إيطاليا. لكن انسحاب ويلسون من المؤتمر فيما بعد وهامشية الدور الإيطالي جعل من العالم رهينة تحكم المنتصرين (بريطانيا وفرنسا) ومن ورائهما الصهيونية العالمية خصوصاً لأن للمستشارين والمساعدين دورهم الأساسي في أية قضية مصيرية يتوقف عليها مصير العالم، فكيف بمؤتمر كمؤتمر باريس ١٩١٩؟ وقد لعب هؤلاء دورهم المهم الى جانب الصهيونية حيث كان الى جانب لويد جورج الصهيوني سكرتير يهودي اسمه ساسون.

حتى أن لويد جورج نفسه كان رئيس الحكومة البريطانية التي أصدرت وعدها بإعطاء فلسطين وطناً قومياً يهودياً عن طريق بلفور. كما كان لكليمنصو سكرتير اسمه مندل روتشيلد له أهميته أيضاً على هذا الصعيد. أما الرئيس ويلسون الأميركي صاحب المبادىء الأربعة عشر المتضمنة حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، فإنه لعب دوره الخطير الى جانب الوطن القومي اليهودي من خلال وعد بلفور وهو الذي قال عن اتفاق سايكس بيكو إنه ظاهرة من ظواهر الاستعمار وعمل مناقض لحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وعن طريق

المفاوضات التي جرت بين بريطانيا وأميركا بصدد وعد بلفور والنص الذي يجب أن يصدر به كان للرئيس ويلسون دوره الأول في اختيار الكلمات التي تضمنها هذا التصريح حيث انتقاها كلمة كلمة، فأتت بما هو معروف اليوم بوعد بلفور، وبشكل كتاب رسمي موجه من بلفور وزير الخارجية البريطانية الى اللورد روتشيلد الصهيوني. وقد تلقى ويلسون رئيس الولايات المتحدة من لويد جورج ومن وايزمن نص ما اتفق عليه من عبارات وعد بلفور فوافق على ذلك وباركه قبل أن يصدر الوعد رسمياً في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧.

ومن المؤكد أن الرئيس الاميركي لم يوافق على ذلك دون استشارة كبير أخصائييه ومساعديه، والذي كان يعتبر الابرة المغناطيسية في دماغ ويلسون، وهذا المستشار الأول هو القاضي الاميركي اليهودي «برانديز» المشهور بقوله عام ١٩١٦ «إن القصد من طلب اليهود تسهيل الهجرة الى فلسطين، هو أن ايصبح اليهود أكثرية السكان فيها، وأن يرحل العرب عنها الى الصحراء». كما كان الى جانبه أيضاً بالاضافة الى «براندیز» إثنان من مستشاريه الأقوياء وكانا من اليهود أيضاً وهما مترجم لم يعرف إلا باسم منتو وآخر اسمه كيش، وجميع هؤلاء يرمون عن قوس واحدة بسهام مختلفة الى هدف واحد.

ولعبت أميركا أيضاً دوراً مهماً في مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس عام ١٩١٩ الى جانب الصهيونية، وكان ممثلها لنسننغ متفهماً وداعماً لما كان يطرحه وايزمن حول الوطن القومي اليهودي حيث بعد أن أرفضت جلسة مؤتمر الصلح وخرج الناس، سأل الممثل الأميركي لنسننغ وايزمن «انك قد طلبت وطناً قومياً يهودياً في فلسطين فماذا تعني بالوطن القومي؟» فأجاب وايزمن: «إني أعني خلق إدارة نابعة من أحوال البلاد الطبيعية ـ ودائماً مع المحافظة على مصالح غير اليهود ـ حتى مع إطراد الهجرة تصبح فلسطين يهودية كما هي انكلترا انكليزية»، ثم سأله وايزمن: «هذا واضح؟» فقال لنسننغ «بالتأكيد». وبقيت علاقة الصهيونيين بالرؤساء الاميركيين على أحسن ما يرام، حتى ولو حافظ بعضهم على العلاقة بين أميركا والمنطقة العربية. ومن

الواضح أن الرئيس الاميركي ترومان أعلن جهاراً تأييده للحركة الصهيونية بعد تحفظ الرئيس روزفلت حيث «انتقلت قيادة الحركة الصهيونية الى أميركا واتخذت منها مركزاً فعالاً لنشاطها بفضل نفوذ اليهود الدعاوي والمالي والسياسي». وبدأت الولايات المتحدة بتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين لاستعمارها واستيطانها وإقامة الوطن القومي اليهودي فيها مع التركيز على تهويد الأرض العربية الفلسطينية وإقامة المستوطنات وتشجيع أعمال العنف والاجرام ضد العرب، وأصبحت العلاقة وثيقة جداً بينهما حيث عند انسحاب بريطانيا في ١٥ مايو ١٩٤٨ أعلن اليهود استقلالهم، واعترف الرئيس ترومان بذلك الاستقلال، بعد دقيقة واحدة من إعلانه، وقبل أن تتقدم اسرائيل رسمياً بذلك الى الحكومة الاميركية. وبذلك كانت الولايات المتحدة أول دولة تعترف بإسرائيل ثم قبلت إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة في مايو ١٩٤٩، ويبدو أن اتفاقاً مسبقاً كان قد جرى بين إسرائيل وأميركا برسالة أرسلها وايزمن الى ترومان في ١٣ مايو يخبره أنه في منتصف ليلة ١٥ مايو ستظهر دولة إسرائيل، ويقترح عليه أن تأخذ أميركا المبادرة بالاعتراف بها. وهكذا تحولت هذه الدولة الجديدة الى ولاية أميركية خارج حدود الولايات المتحدة وكقاعدة مهمة لها وضرورية.

والجدير بالذكر أنه مع إطلالة العام ١٩٢٠ بدأ التحول الكبير في تاريخ المنطقة العربية، بموجب انتقال الصهيونية الى مرحلة أرقى من ذي قبل، تلك المرحلة التي حملت في أحشائها روح العقيدة الصهيونية، المتمثلة بالتجمع والاقتحام. تلك العقيدة التي تعني فيما تعنيه سفك الدماء واستخدام السيف والدمار وتشكيل الهيئات السرية التي تمثلت بالهاغانا أو (الدفاع القومي) «يوم النبي موسى» وحزب جابوتنسكي، ومناحيم بيغن وابراهام شترن. وهو العام الذي يطلق عليه اسم «عام الدماء الاولى» حيث قتل في هذا التاريخ يوسف ترمبلدور ورفيق جابوتنسكي، والذي يعتبر من اليهود المغامرين بعد اشتباكات مع العرب قرب الحدود الشمالية، وحزن عليه اليهود حزناً كبيراً كما تعاهدوا على الأخذ بثأره. وهذا ما دفع جابوتنسكي لاقتراف

مـذبحة «يـوم النبي موسى» في ٤ ابريـل حيث كـان تـرمبلدور من المـدربين الأسـاسيين للعصـابـات الصهيـونيـة ومن المؤسسين لتنـظيمـاتهم المسلحـة، وأشهرها الهاغاناه، حتى أن الحركة الصهيونية كانت تعتبـره أحد كبـار رؤوسها المدبرة. بعد هذه المـذبحة، مـذبحة يـوم النبي موسى، اعتقـل جابـوتنسكي وحوكم من قبل البريطانيين لتسلله وتهريبه السلاح، ثم أفرج عنـه أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين، وهو الصهيوني هربرت صمـوئيل الـذي وصل من لندن الى يافا في الأول من يوليو ١٩٢٠، وقد تلقاه اليهود بالهتافـات: «أهـلاً بأمير إسرائيل الأول. أهلا بعزرا الثاني». هذا وقد أورد صموئيل في مذكـراته التي كتبها عام ١٩٤٥ مايلي: «لما وصلت الى دار الحكـومة في جبـل الطور وكـانت قبلاً مقـر الحكـومـة العسكـريـة، واعتبـاراً من هـذا اليـوم أمست دار الحكومة المدنية، استقبلني مضيفي الجنرال لويس بولز، الذي كنت ضيفاً عليه من قبل، وهو متهيىء للترحيب بي وتسليمي مقاليد الحكومـة. وكان فيـه طبع المرح والنكتة مما سبب حادثة فكاهية نشرتها الصحف فيمابعد، لكن نشرهـا في الصحف لم يكن بغاية الدقة فأحببت إيرادها هنا. فلما انتهى دور التسليم وقبل أن يخرج الجنرال بولـز من المكتب قال لي: والآن أريـد منك أن تـوقع لي وصلاً بالاستلام فسألته: «وصلاً باستلام مـاذا؟» قال: فلسـطين. فقلت لا أستطيع ذلـك ولعلك لا تعني هذا من قبيـل الجد، فـأجاب: أعني هـذا بكل تأكيد. وهذا هو مهيأ ومطبـوع. وناولني قصـاصة ورق صغيـرة، هذا مـا فيها: استلمت من المايجور جنرال سير لويس بولز فلسطينا واحدة بالتمام والكمال. وبعد هذا التاريخ فسحة للتوقيع. فعدت أتردد فأصـر فوقعت وأضفت عبـارة: ما عدا السهو والغلط؛ جريا على عادة لغة الوصولات التجارية»..

والواقع أن هربرت صمـوئيل يعـد من رؤوس الصهيونيـة العنيفة. وكمـا ألمح في مذكراته فإنه عين في المنصب المذكور مـع معرفـة حكومـة صاحب الجلالة التامة بعواطفه الصهيونية، بل دون شك بسبب هذه العواطف الى حد كبير. ويعترف حاييم وايزمن نفسـه بمسؤوليته المبـاشرة والشخصيـة عن تعيين صمـوئيـل في هـذا المنصب. ويقـول في معـرض تعليقـه على ذلـك: «كنت

مسؤولاً بشكـل رئيسي عن تعيين السير هـربرت صمـوئيل حـاكماً لفلسـطين. فالسير هربرت صموئيل صـديقنا وقـد قبل ذلـك المنصب الصعب نزولاً عنـد طلبنا. نحن عيّناه في ذِلك المنصب..أنه صموئيلنا».

ونحن بـدورنا نقـول ونؤكد على أن فلسـطين وشعبها اعتبـرا سلعـة في السوق البريطاني والدولي وتم التعامل معهما على هذا الأساس. وكأن مصيـر الشعوب والأوطان صك تجاري لا يحتاج إلا توقيع البائع (أو السارق لا فرق) والشاري فقط. ومع ذلك يعودون بعدها للتوقيع على شرعة حقوق الانسان.

ومن يعمل على تقطيع الأوطان وتمزيق الشعوب فإنه معـرض لأن يمزق ويقطع في كل لحظة؛ والتاريخ يمهل ولا يهمـل. والشعب لا يرحم. والـظلم الى زوال.

المراجع

١ ـ عجاج نويهض: «بروتوكولات حكماء صهيون». منشورات «فلسطين المحتلة» المجلد الأول. الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠.

٢ ـ آلن تايلر: «تاريخ الحركة الصهيونية» ترجمة بسام أبو غزالة. دار الطليعة. بيروت ١٩٦٦.

٣ ـ قسطنطين خمّار: «الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية». منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦٦.

٤ ـ عبد الوهاب كيالي: «تاريخ فلسطين الحديث». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٧٣.

٥ ـ حسان حلّاق: «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية» الطبعة الثانية. منشورات الدار الجامعية. بيروت ١٩٨٠.

جاسوس " البلّوطة الملكية " البريطانية .

تمثل عملية تدمير البارجة البريطانية المعروفة بـــ " البلّوطة الملكية " حدثاً هاماً في تاريخ الجاسوسية والجاسوسية المضادة . كما تمثل في الوقت نفسه درساً لكل " مزاولي المهنة " في هذا الفن بما تحمله من عِبَرٍ يجب الإستفادة منها في الوقت المناسب والمكان المناسب ، إذ ليس بمقدور كل إنسان أن يتحمل ما تحمّله الضابط الألماني " ألفريد ويهرينغ" (المعروف بـــ" ألبرت أورتيل ") من صبر وجلد ومثابرة في عمله التجسسي لتحقيق النجاح في تلك العملية المكلّف بتنفيذها .

فما هو سرّ هذه العملية ؟. وكيف تمّ تنفيذها ؟

وما ترتّب عليها من نتائج ؟.

أدار الأميرال (كارل دونيتز) قائد أسطول الغواصات الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية ، ظهره الى الخارطة المعلقة على الجدار والتي كان يقوم بدراستها ، ليركز نظراته الباردة الحادة على الكابتن ، الشاب قائد إحدى الغواصات الذي كان يقف الى جواره وقفة عسكرية بالإستعداد التام وكان ذلك في صباح يوم من أيام الآحاد في شهر تشرين الأول من عام ١٩٣٩ ، ولم يكن قد مضى على بدء الحرب سوى شهر واحد ، وهتف (دونيتز) أن العامل الأول للنجاح

في تنفيذ المهمة هو الإستفادة من الذهول الناجم عن الهجوم المفاجئ الذي يمكن القيام به من أحد المداخل السبعة لميناء (أسكابافلو) ولقد قرر قائد إحدى الغواصات المرور من أحدها على الرغم من التيار السريع والمتبدل باستمرار ، بينما كانت شفتاه تفتران عن إبتسامة خفيفة .

تعتقد البحرية البريطانية بأن هذه الناقلات الثلاث والتي تطفو هنا في مداخل ميناء (كيرك) الضيقة تؤمن حماية كاملة للبوارج الكبيرة الراسية في الميناء ، هذا ما قاله الأميرال وهو يشير الى نقطة على الخارطة ، بينما كان الكابتين قائد الغواصة والذي كان يسمى بـــ(غانتر برين) يوافق على أقواله بايماءة من رأسه ، ولقد كان هذا الكابتين قد نضج وأصبحت له نفس عقلية قائده ونفس أسلوبه وردد لنفسه وهو في نشوة :سيكون نصراً جريئاً لو حالفه النجاح وسيحصل إذا ما تمكن من إحراز هذا النصر على أرفع وسام مع تهاني الفوهور الخاصة .

واستمر (دونيتز) في حديثه : إن الإمكانيات متوفرة للنجاح في تنفيذ هذا الواجب ، وأعتقد بأنك الرجل الملائم للقيام به ثم اقترب من مكتبه وأخذ من فوقة مجموعة من المخططات والرسوم البحرية والخرائط المتضمنة للمعلومات الدقيقة والكاملة عن وسائل الدفاع المتبقية لتأمين حماية القاعدة البحرية الإنكليزية (إسكابافلو) حيث

كانت ترسو فيها البارجة(البلّوطة الملكية).كما كان يبدو على هذه الخرائط بوضوح المواضيع الإستراتيجية للناقلات الثلاث التي كانت عائمة عند المداخل والتي كانت ترتبط مع بعضها البعض بحبال معدنية قوية ، وتابع حديثه : أحمل معك كافة المعلومات وهذه الوثائق ، وقم بدراستها بانتباه فالمعلومات التي تحملها مؤكدة تماماً ،وقد قام بتزويدنا بها أحد عملائنا وأمهرهم،ثم عليك تحليل كل ذلك وإعلامي عن رأيك يا (كابتين براين). كما يجب أن تعرف بأن لك الحرية التامة في اتخاذ قرارك ، فإذا كان من رأيك عدم القيام بهذه العملية لتعذر تنفيذها فنحن لا نريدها ، ولكن إذا وافقت فمعك مهلة زمنية حتى يوم الثلاثاء لتعطي إجابتك ، وبهذا أنهى الأميرال حديثه بعد فترة من الصمت .

وعكف ، الكابتين (براين) على دراسة الرسوم والخرائط خلال اليومين التاليين لهذه المقابلة ، وكان إنهماكه في هذه الدراسة يشبه إستغراق العالم في تجربة دقيقة . وكان كلما ازداد تفكيراً بالمشروع كلما ازداد حماسة لتنفيذه . وعندما أقبل موعد تقديم التقرير الى الأميرال (دونيتز) في يوم الثلاثاء أظهر له رغبة قوية للقيام بتنفيذ هذه المهمة .

تدمير " البلّوطة الملكية " البريطانية :

تحتل عملية تدمير (البلّوطة الملكية) بواسطة الطوربيدات ، والتي ذهب ضحيتها ٨٣٣ رجلاً في الساعات الأولى من يوم ١٤ تشرين

الأول ١٩٣٩ ، مكانتها بين أجرأ عمليات الحرب ، ولم تكن الجرأة تقتصر على التنفيذ بقدر ما تتعداها لتشمل الوسائل والإمكانيات التي بذلها الأميرال (دونيتز) والقيادة البحرية الألمانية للحصول على أسرار (إسكابافلو) من مخططات وخرائط تمّ إعدادها بعناية مما ساعد الغواصة (ي ٤٧) للتسلل الى ميناء (كيرك) وتقذف بطوربيداها الى مجنبة البارجة ذات الـــ ٢٩٠٠٠ طن (التسعة والعشرين ألف طن) وهناك بعض وجهات النظر التي تسلّط الضوء على العمل التحضيري للعملية فتحجب النور عن أهمية العملية ذاتها ، فترى بأن العبقرية وحدها ، للجاسوس الصبور ، الذي قضى سنوات طويلة بالتقاط المشاهد والملاحظات وتسجيلها وبذلك هيأ فرص النجاح الملائمة لتنفيذ العملية .

ولنعد الى الوراء :

في يوم من أيام عام ١٩٢٧ وقبل أن يبدأ هتلر محاولته للسيطرة على العالم بإثني عشر عاماً ، تقدم بهدوء رجل قصير القامة الى رجال الجمارك البريطانية وهو يضع على عينيه نظارات غليظة وكان ذلك الرجل ، قادماً من سويسرا يحمل إسم (البرت أورتيل) وقد صرح لضباط الهجرة بأن عمله هو صناعة الساعات ، وأنه قدم الى المملكة المتحدة ليزاول مهنته فيها ، وقد أدلى تصريحه وهو يبتسم إبتسامة بريئة.

ـ هناك عدد كبير من صانعي الساعات في سويسرا ، ولقد قيل لي بأنني أكفأ محترف سأجد مكاناً ملائماً لي هنا في إنكلترا . وأنني أرغب في أن أجد عملاً إذا كان ذلك ممكناً في جزيرتكم الساحرة التي تشبه في جبالها وبحيراتها ما يذكرني بوطني الأصلي سويسرا .

في الواقع ، لم تكن سويسرا موطن هذا الساعاتي ، على الرغم مما كان إسمه مكتوباً على جواز سفره كما أن إسمه الحقيقي لم يكن (ألبرت أورتيل) إنما كان إسمه في الواقع (ألفريد ويهرينغ) وهو ضابط قديم من ضباط البحرية الألمانية ، في زمن القياصرة وأثناء الحرب العالمية الأولى .

وعندما تمّ توقيع معاهدة الصلح في عام ١٩١٨ لم يكن لدى المانيا ماتتمكن من تقديمه الى ضباطها القدامى ، فقضى (ويهرينغ) الأربع سنوات التي تلت ذلك دون أي عمل . وبعد ذلك ، وفي عام ١٩٢٣ عندما أنيط الى الأميرال (كاناري) أمر إعادة تنظيم أجهزة الجاسوسية الألمانية ، تذكر ذلك الضابط الشاب في البحرية والذي كان يحمل له تقديراً كبيراً ، وقدم له مركزاً في منظمته . وقد كان هذا النوع من العمل جديداً على (ويهرينغ) ولكنه كان سعيداً بأن يعاود نشاطه وعمله .

أصبح (ويهرينغ) بموجب أوامر (كاناري) الوكيل المعتمد لأحدى شركات الساعات الألمانية ، ولقد قادته هذه المهنة الجديدة الى

أسفار متعددة في أكثر بلدان أوروبا حيث كان يقوم بجمع كافة المعلومات الممكنة عن المنشآت البحرية الحديثة أو التي هي قيد الإنشاء، وبعد ثلاثة أعوام (من الخبرة) أرسل الى سويسرا لإتقان مهنته كساعاتي وهذا ما سيؤهله للحصول على واجهة رائعة يختفي خلفها ويخفي معه نشاطه كما سيسمح له بذلك أيضاً ، أن يطيل مدة اقامته في إحدى البلدان إذا ما لزم الأمر ، لمزاولة مهنته الفنية .

ولقد حملت المعلومات السويسرية ثمارها بسرعة ، وعندما أصبح (ويهرينغ) مستعداً لحمل أعباء مهمة جديدة على جانب من الأهمية بعد أن تمّ تزويده بجواز سفر سويسري كان قد أعده له الأميرال (كاناري) تحت إسم (ألبرت أورتيل) ووصل (ويهرينغ) الى بريطانيا العظمى ، حيث إستأجر في (كيركويل) وهي إحدى المدن الجميلة والصغيرة مسكناً له وكانت هذه المدينة لا تبعد كثيراً عن (سكابافلو) .

عمل (أورتيل) في البداية كصانع مجوهرات في أحد ا لمحال ثم تمكن من إكتساب الزبائن لإصلاح الساعات وساعات الحائط بعد أن كان أهالي المدينة يرسلونه الى (ليث) وكانت حجته أن أهالي (كير كويل) بحاجة الى مصلح للساعات ، ولما كان عمله متقناً فلقد تمكن من إكتساب شهرة واسعة في مدّة قصيرة ، ولم تمض عليه فترة طويلة حتى تمكّن من إفتتاح مخزن لحسابه الخاص في أحد الشوارع الفرعية ذات الطابع الشمالي في (كير كويل) .

ولم يكن هذا المخزن في الواقع أكثر من دكان صغير يشبه الى حدّ كبير دكاكين بيع التحف والآثار القديمة ، وكان (ويهرينغ) ألبرت أورتيل ، يبيع من هذه الجواهر الجميله مع بعض التحف الجميلة التي تصلح كتذكار بالإضافة لمزاولته لمهنته في عمل الساعات .

لقي (أورتيل) في الوسط الجديد الذي بدأ يعيش فيه كل التشجيع وذلك لما كان يتمتع به من التهذيب والرقة والنبل الظاهر في معاملته لزبائنه. ولم تمض فترة طويلة حتى وجد في عدد من زبائنه أصدقاء شخصيين له يقومون بدعوته الى منازلهم ، كما أن الحياة في مدينة ساحلية تعتبر جميلة وبقي أمره كذلك حتى عام **١٩٣٢** عندما أكمل دورة في إكتساب الجنسية البريطانية .

ولعل سكان (كير كويل) لو عرفوا بأن هذا الساعاتي لم يكن في السابق إلا ضابطاً من قدامى ضباط الإستخبارات الألمانية في زمن قصير، لكانوا أكثر تحفظاً في إظهار عواطفهم تجاهه ، ولكنهم كانوا يجهلون الكثير عنه وكان من بين ما يجهلونه عنه أن أية معلومات يتفوهون بها أثناء حديثهم تأخذ مكانها في دفتر مذكراته الصغيرة وكان من بين زبائنه ضباط في البحرية البريطانية وعدد من العاملين في القيادة البحرية، يأتون الى دكانه لشراء الهدايا أو لإصلاح ساعاتهم .

ثم يصار الى تسجيل هذه المعلومات وتثبيتها ثم إخفائها بعد ذلك في أحد الدواليب الموجودة في غرفته الواقعة فوق دكانه .

كما كانوا يجهلون أيضاً ، بأن هذا الدولاب يحتوي على جهاز لاسلكي للإرسال على الموجات القصيرة قد أتقن إخفاؤه وتمويهه بمظهر بريء على شكل جهاز قديم من أجهزة الراديو ، هذا بالإضافة للجولات الليلية القصيرة التي كان يقوم بها الساعاتي في بعض الأمسيات وكان (أورتيل) بعد أن يقوم بإقفال دكانه ، يجلس ليكشف الستار عن جهازه ويعمل على إحكامه على تردد معين حيث تتمّ إتصالات التعارف والتأكد وبعد ذلك إرسال المعلومات الهامة التي أمكنه الحصول عليها بشكل رمزي ليستقبلها الملحق البحري الألماني في هولندا الكابتن (فون بيلو) أما الرسائل التي كانت تصله من سويسرا والتي كانت بريئة في مظهرها فقد كانت تحمل تعليمات الأميرال (كاناري) وتوجيهاته ببعض الإجراءات التي يعدها له رجال المخابرات السرّية النازية .

حرص (أورتيل) دائماً بألا يثير أية شبهات من حوله سواء كان ذلك في أحاديثه أو في تصرفاته حتى أن جلسته للبحر والمراكب الكبيرة التي تدخل الى ميناء (سكابافلو) وتخرج منه ، لم تكن غريبة على أحد من المواطنين بل كانت تبدو وكأنها شيء عادي ، وكان من يعرفه يبتسم له ويتبادل معه كلمات المجاملة الودية عندما يصادفه وهو يتنزه على طول رصيف الميناء أو هو ينظر الى الأفق البعيد من خلال منظاره المكبر ، لقد كانت الحياة في (كير كويل) بسيطة جداً كما هي

حياة الريف دائماً ولذا فليس من المستغرب بألا يتساءل المواطنون إطلاقاً عن نشاط ذلك الرجل الذي كان يبدو وكأنه واحد منهم .

وفجأة ، وفي صباح يوم من أيام الأحد التي لا تنسى ، وعندما كانت كافة نواقيس بريطانيا العظمى ، تقرع معلنة قيام الحرب ، كان ساعي البريد يحمل الى (أورتيل) رسالة واردة من سويسرا ، وقد أعلم الساعاتي أولئك المواطنين الذين كانوا قد وجهوا اليه الدعوة في ذلك اليوم لتناول طعام الغداء معهم بأن والده أرسل له رسالة وصلته اليوم ليعلمه فيها بمرض والدته التي تبلغ من العمر ثمانين عاماً وأنها في حالة خطر كما وأنها راغبة في رؤية ولدها الوحيد .

بعد ذلك بيومين فقط. كان (أورتيل) يستقبل باخرة تقلع من (ليث) في إتجاه (روتردام) حاملاً معه تحت بطانة معطفه الخفيف وسترته كافة الرسوم من مخططات وخرائط بعد أن قام برسمها بدقة كبيرة في الأمسية السابقة في غرفته.وعمل على تمويهها وإخفائها بشكل جيد .

كانت الرسالة التي تلقاها (أورتيل) في الواقع رسالة رمزية من الأميرال (كاناري) يطلب فيها إيداع كافة الوثائق الى (فون بيلو) رئيس الجاسوسية النازي الذي كان يعرف بأن عمله في الجزيرة البريطانية قد انتهى من وضع مخططاته ، وبأن وصول هذه الرسالة في ذات اليوم الذي أعلنت فيه إنكلترا الحرب على ألمانيا ليس إلا مصادفة

غريبة إذ كان من الممكن أن تصل الرسالة قبل أو بعد هذا اليوم ، وعندما وصل (أورتيل) الى(روتردام)إتجه رأساً الى فندق(التجارة) حيث طلب مقابلة (الهر فريتز بيرلو) ولقد كان الإصطلاح الرمزي لهذا الأخير هو " هـ-٤٣٢ " وكان يزاول عمله كرئيس لمنظمة الجاسوسية السرّية للنازيين في (هولندا) ولقد إستقبل (بيركو) زائره باحترام كبير ، واصطحبه بسيارة الى (لاهاي) حيث كان المقر الخاص (للبارون تون بيلو) وتصفح الملحق البحري الألماني بسرعة الوثائق التي أخرجها (أورتيل) من مخبئها ، وهتف بنبرة كلها إعجاب (كابتن ألفريد ويهرينغ) إنني أهنئك وأن هذه المخططات ذات قيمة لا تقدر بثمن ، لقد أكملت عملاً رائعاً ، وسأعمل لإيصال هذه الوثائق ونقلها الى الأميرال (كاناري) بأسرع ما يمكن (عاش هتلر) . وأجاب (أورتيل) بدوره على التحية النازية فإنه لم يكن في اللحظة ذلك الساعاتي القصير المتحفظ والذي كان يعرفه سكان (كير كويل) ذلك أن إبتسامته الوديعة كانت قد إختفت مع إختفاء إحديداب ظهره قليلاً فأصبح منتصب القامة ، ذو قسمات وجه قاسية ، وقامة مشدودة كالوتد ، ولم يَبْقَ من هيئته القديمة سوى نظاراته ذات الحامل الذهبي لتلمع عيناه من خلفها ببريق حاد .

ووصلت الوثائق ذات الأهمية الكبرى الى المكان الذي ينتظرها ويمكن للخيال أن يتصور بأن مهمة (أورتيل) قد انتهت عند هذا

الحد، وأن هذا الأخير سيذهب ليتوارى عن المسرح ، ولكن السلطات النازية أذكى وأخبث من أن تترك الخوف يحجب تألقه ، فقد كان من الخطر تغيبه في هذه الفترة لأن ذلك قد يكون سبباً لإثارة الشكوك التي قد تؤدي الى قلب كافة المخططات ، كما كان أمام (أورتيل) الكثير من العمل للقيام به ، وذلك لاستكمال المعلومات حتى الدقيقة الأخيرة التي تسبق البدء في وضع الخطة موضع التنفيذ .

بعد ذلك بأقل من أسبوع عادت الملابس السوداء ، والهيئة الحزينة لتأخذ طابعها على الساعاتي المزيف ، الذي عاد الى مقرّ فتوحاته ، ولقد بدى التأثير على أصدقائه عندما أعلن لهم بأنه وصل بعد ساعتين فقط من وفاة والدته .

لاحظ المارة في اليوم التالي أن العلم الإنكليزي خفاقاً فوق دكان الساعاتي الصغيرة ولقد قال لزبائنه باعتزاز :

ـ إنني بريطاني ، وعليّ أن أظهر ولائي تجاه أصدقائنا الحلفاء .

عكف (أورتيل) مباشرة على إكتشاف آخر الأسرار المتعلقة بالدفاع عن (سكابافلو) وكذلك البواخر التي تستخدمها هذه القاعدة البحرية الهامة ، فلقد كان يعرف ، بأن البريطانيين ، قد أعادوا تقدير موقفهم منذ البداية لإعلان الحرب فأدركوا بأن الأفخاخ المعقدة والشبكات المعدنية المضادة للغواصات والتي كانت تقوم على حراسة مداخل الميناء قد ضعفت بتأثير الصدأ والرطوبة وأنها لم تعد تأمن الحيطة

الكافية ، ولقد وافقت السلطات العليا على إعادة إصلاح وسائل الدفاع هذه ، وكان على (أورتيل) إذاً أن يكشف هذه الإصلاحات وإذا كان قد تمّ إحكام إغلاق مداخل الميناء السبعة ، ولم يكن ليلزمه وقت طويل لكي يستخلص المعلومات التي كان يرغب بالحصول عليها، ولقد تأكد من أن مدخل أحد محاور الميناء الشرقية لا يزال مفتوحاً . ولم يتمّ إغلاقه بواسطة الحبال للغواصات ، كما أن الحاملات الثلاث قد وضعت جانباً وإذاً فلا شيء يعيق غواصة من إجتياز القناة الضيقة والعميقة الى حدّ ما .

بعد ظهر احد أيام تشرين الأول ، وبعد أن تمكن (أورتيل) من جمع بعض المعلومات الهامة، أغلق دكانه قبل الموعد المعتاد بقليل ، وصعد السلم أربعاً أربع ثم قفز الى غرفته حيث فتح دولابه الذي كان يختبئ فيه جهاز الإرسال . فلقد أقبلت اللحظة الكبرى ، وقاربت سنواته الطويلة في التعلم ، وجمع المعلومات بصبر من نهايتها ، وأذنت عقارب ساعة المصير من إرسال ضرباتها .

وأذاع (أورتيل) نداء التعارف ، وانتظر بفارغ الصبر الإجابه ، ثم أرسل برقيته الرمزية ، التي يعلم فيها سلطات النازي بأن الدفاع عن الميناء (سكابافلو) لا يزال كما هو دون تعديل .

ونقلت البرقية بسرعة الى الاميرال (دونيتز) في القيادة العامة للقوى البحرية ، فأدرك هذا بأن اي تأخير في تنفيذ المهمة سيكون له نتائج

خطيرة ، ليس فقط لأن ميناء (كيرك) سيغلق مداخله ويستعد للدفاع فحسب بل لأن البارجة (البلوطة الملكية)وكذلك القانصات الاثنتين وهما من البواخر الكبيرة التي ترسو الآن في الميناء للقيام ببعض الاصلاحات، سوف تغادر الحوض لتصبح في عرض البحر بين لحظة واخرى حسبما جاء في برقية (اورتيل) لكي تنضم الى بقية القوات البحرية التي تقوم بتمشيط المحيط .وإذاً فيجب تنفيذ الضربة في الايام القريبة المقبلة .وتحرك (دونيتز) للعمل بعد إستخلاص هذه النتائج .

في مساء الثالث عشر من شهر تشرين الأول من عام ١٩٣٩ كانت مداخن وصواري الغواصة السوداء الألمانية " ي _ ٤٧ " تشق طريقها بين الأسطول في ميناء (كييل) وكان الوقت ملائماً ، والسماء صافية تماماً . وكان الكابتن (براين) قائد العملية هو الشخص الوحيد الذي يعرف الهدف المقصود ، ولم يكن بإستطاعته كشف النقاب عن المهمة الى رجاله قبل أن يبدأ بتنفيذها عند دخوله الى ميناء (سكابافلو) في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي .

وحسب المعلومات التي قدمها (ألبرت أورتيل) فقد كان الكابتن الشاب قائد الغواصة يعرف بالضبط مكان الناقلات التي كانت تطفو أمام مداخل ميناء (كيرك) وكيف كانت الحبال المعدنية تمتد لإغلاق هذه المداخل بصورة آلية .

وعندما كانت الغواصة تقترب من المحور الشرقي لميناء (سكابافلو) صدر أمر قصير بلهجة صارمة :

" وضعية الغوص " ورددت الصافرات في غرف الأجهزة هذا الإنذار ، فاندفع شكل الغواصة الأسود والمستطيل ليغوص بين مرتفعات الزبد في أعماق المحيط .

لقد دقت ساعة العمل ليضع (براين) كافة خبراته ومعلوماته بالملاحة موضع التنفيذ .

كان المدّ يثير في القناة الضيقة دوامات مائية ، وكادت الحبال المعدنية التي تربط الناقلات بعضها ببعض توقع الغواصة بالفخ عندما لامست فجأة أسفل الغواصة " ي ـ ٤٧ " بين ناقلتين بينما وقع مؤخرة الغواصة تحت قبضة خطرة لأحد الحبال .

ولكن (براين) لم يفقد صوابه . كانت أعصابه متوترة ولكن عقله كان ككتلة من الجليد فنقل أوامره الى غرفة أجهزة المحركات :

ـ أوقف محركات اليسار ، المحركات اليمنى ببطء والى الأمام ، الدفة الخلفية الى أقصى اليسار . وتغير صوت هدير المحركات القوية شيئاً فشيئاً ، وبدأت الغواصة " ي ـ ٤٧ " في وضع العوم ، وتخلى الحبل عن قبضته . وهكذا أمكن تجاوز هذه اللحظة الحرجة ، وأصبح بإمكان القبطان إعطاء الأمر التالي : الى السطح .

وعندما كانت الغواصة تهتز وهي تصعد الى السطح ، إرتفع المنظار المكبر " بيرسكوب " وألقى (براين) نظرة سريعة دائرية الى القاعدة الكبيرة (سكابافلو) ، ودمدم : لقد مررنا . والآن ، الى الهجوم. وركز مراقبته بانتباه الى الأمام ، حيث شاهد البارجة الضخمة التي كانت ترسو قرب الرصيف ، إنها دون شك (البلّوطة الملكية) . واقتربت الغواصة بهدوء حتى أصبح الهدف تام الوضوح ، وهتف : نار؟

وأحس (براين) بالهزة التي اعتاد عليها والتي تنجم عن إطلاق الطوربيد وانتظر خمسة ثوان ، عشرة ، خمسة عشر . ثم حدث إنفجار مريع إختفى على أثره مقدم البارجة تحت حزمة كبيرة من الماء والزبد .

ـــ نار ..

وانسحق الطوربيد الثاني وهو يدمر منتصف البارجة ، ولحق به وبسرعة طوربيد ثالث . ولم تكد قمة الصدمة تنفجر لدى ملامستها للبارجة حتى اختفت هذة الاخيرة تحت ستار من الماء وكأن البحر قد انشق فجأة ، فانطلقت الشهب الزرقاء ،البرتقالية والحمراء القاتمة ، والمندفعة من الحطام المحترق تخترق سواد الليل في كل اتجاة ، وكانت القطع الضخمة المتطايرة مع المداخن والكتلة الكبيرة من الجسر العلوي ترتفع في الهواء وسط دخان الابخرة والمياة ، بينما كان صوت انفجار مستودع الذخيرة يرتفع ليصم الاذان . لقد كان مشهداً فريداً ومرعباً،

وكأن جهنم قد انفتحت على مصراعيها في هذا اليوم هنا في (سكابافلو) .

وأضيأت السماء فجأة بالأنوار الكشافة ،وكانت اشعتها المرتجفة تكشف الظلمة التي مزقتها أنوار اللهب وتنير سطح المحيط .وابتدأت قاذفات الطوربيد السريعة وقانصات الغواصات بإجراء دوريات في كل اتجاة وكانت مقدماتها تثير امامها حرم المياه بينما كان قادتها يبحثون عبثاً عن العدو الذي قام بهذا الهجوم المفاجئ . وفي نفس الوقت كان (براين) من جهته يحاول اقتناص اللحظات ليستفيد منها ،فأعطى محركات غواصته اقصى سرعه ممكنه وانزلق من بين ناقلتين وبذلك امكنه الاختفاء تحت ستار البحر العريض مخلفاً وراءه (البلّوطه الملكيه) تموت بغيظها . وكان ذلك في تمام الساعة الواحده والدقيقه السابعة عشرة عندما انطلق الطوربيد الاول .

وبذلك أكمل (براين) نصراً فريداً خارقاً للطبيعة . ولقد كان هذا النصر في الواقع ثمرة لجهود (ألفريد ويهرينغ) ذلك أن هذه العملية لم تكن لتنفذ لولا الجهود الطويلة والعمل الدؤوب الذي قام به هذا الجاسوس. فماذا تمّ بعد ذلك لكل من هذين الرجلين اللذين لعبا الدور الرئيسي في تدمير (البلّوطة الملكية)؟

لقد قضى (براين) نحبه عندما كان يقوم بإحدى الدوريات في ربيع عام ١٩٤١. أما إستكمال تاريخ ذلك الرجل الذي عرف بإسم (ألبرت أورتيل) قد أصبح غير ممكن لأن الغموض قد لفه في طياته فقد أصبح من المعروف بأنه ترك " كير كويل " فجأة ، وبعد وقوع الكارثة بقليل ، دون ان يعطي أي تفسير لذلك بعد أن كان قبل يوم واحد يقوم بخدماته لزبائنه وفي اليوم التالي لم يعد له من أثر .

ويقول البعض بأن إحدى الغواصات الألمانية قد التقطته في احدى الليالي وحملته الى (كييل) ، ولكن لم يعثر على أي تقرير يؤكد ذلك من بين كافة التقارير التي وضع الحلفاء أيديهم عليها .

كما لا يوجد أي أثر يشير الى أنه قد أُرسل لأداء مهمة أخرى في مكان آخر .

المرجع

(١) كيرت سنجر " أعلام الجاسوسية العالمية ". ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية . بيروت ١٩٦٥. ص ٩١- ١٠٢.

" كريستوف لورد "
بين المقاومة الفرنسية والإستخبارات الألمانية.

قليلون جداً هم الجنود المجهولون في تاريخ المقاومة الفرنسية ضد الإحتلال النازي الألماني لفرنسا. ومن بين هؤلاء الجنود المجهولين يأتي ضابط المنظمات السرّية البريطانية كريستوف لورد .

فمن هو هذا الجندي البريطاني المجهول ؟

وماذا عن دوره ومهماته ؟

كانت طائرة وحيدة من طراز لانكستر تخترق العاصفة التي كانت تمتد كالسلسلة المحيطة بشواطئ فرنسا في ليلة شؤم من ليالي شهر أيار عام ١٩٤٣ ولقد قال الملاح وهو يحكم أجهزة الطائرة التي كانت تحلق على إرتفاع كبير فوق الغيوم الكبيرة التي كانت تبدو وكأنها تهرب بعيداً خلال خليج غاسكينا .

_ أنه من الصعب الوثوق بطقس شهر أيار .

ولقد وافق ربان الطائرة على قوله عندما ردد قائلاً :

_ إنها ليلة رديئة حقاً ولكنه بطل خبير ذلك الرجل الضخم . كما أن الألمان لا يتوقعون بالتأكيد مشاهدتنا في هذا الطقس الرديء ولم يكن جوف الطائرة المقنبلة يحتوي على أية قذيفة ، وكان ذلك الرجل الضخم الذي جاء في حديث الطيار ذا أهمية بالنسبة

لإنكلترا وحلفائها تزيد على انزال وقذف أي قنبلة متفجرة فوق أحد الأهداف المعادية . وكان ذلك الرجل وإسمه كريستوف لورد يقبع في جوف الطائرة ، وهو ضابط في المنظمات السرّية البريطانية، تلقى أمراً بالقفز مستخدماً مظلّته للنزول فوق فرنسا التي كانت تحتلها القوات الألمانية ثم الوصول الى تانوس وهي قرية من قرى تارن تقع الى الشمال الشرقي من تولوز وعلى بعد ثمانين كيلو متراً تقريباً منها .

كانت مهمة النقيب لورد دقيقة للغاية ، ذلك أن المنظمات السرّية النازية كانت منذ وقت مضى على إطلاع مسبق بكافة المخططات التي يتمّ وضعها في لندن والتي تهدف الى مساعدة عناصر المقاومة الفرنسية . ونتج عن ذلك وقوع كميات من الأسلحة والمتفجرات في أيدي السلطات النازية ، بالإضافة لعدد لا بأس به من رجال الإستخبارات الذين كان يتمّ إسقاطهم بواسطة المظلات في عدد من المواضع داخل الحدود الفرنسية بمهمة تأمين الإتصال مع عناصر المقاومة. ونتيجة لذلك فقد كان هناك وبالتأكيد وجود بعض الخلل في بعض منظمات المقاومة ، ولكن الفرصة لن تسنح للنقيب الإنكليزي كي يستكمل مهمته التي جاء من أجلها . وعوضاً عن ذلك وقع هو ذاته في الفخ وأصبح ممثلاً رئيسياً لقصة غريبة انتهت بمأساة قاسية ، لم تتضح خيوطها وترى

النور إلا بعد زمن طويل وبعد أن تمّ تحرير فرنسا . ولقد كان الكشف عنها صدفة من أكبر الصدف الطارئة . على الرغم من أن النقيب لورد كان من مواليد بيرمنغهام ، فلقد نشأ وترعرع في فرنسا حيث كان يقيم أبواه هناك منذ كان صغيراً ، وكان يعرف معرفة دقيقة بالإضافة لهذه البلاد كل من بلجيكا وهولندا وكان يتكلم عدداً من اللغات بطلاقة تامة ، كما كان قد أتمّ دراسته في الإقـــتصاد والمال. وكان في أيار من عام ١٩٤٠ عندما قام الألمان باجتياح فرنسا متزوجاً من إمرأة فرنسية جميلة جداً ، كما كان يشغل منصب المدير لإحدى المؤسسات المصرفية في باريس .

كان لورد ذا تقاطيع مميزة ، شعر أشقر انقلب الى شعر أبيض أثناء الفرار اليائس أمام القوات النازية في عام ١٩٤٠ . وكانت ترافقه زوجته وإبنته ، ثم وصل الى إنكلترا عن طريق أفريقيا الشمالية الفرنسية ، وقد شاهد بأم عينه عدداً من البواخر التي كانت تدمرها الطوربيدات وتفرقها الألغام .

وبعد أن وصل لورد الى إنكلترا إتصل بالمؤسسة المصرفية التي كان يعمل بها ووجد عملاً هناك ، ثم إتصل به بعض الأشخاص بعد ذلك ، وابتدأ عمله في خدمة المنظمات السرّية البريطانية . ثم أتبع دورة للتدريب على القفز بواسطة المظلات الواقية ، وقفز عدة مرّات فوق أرض فرنسا وأمريكا . ولكن مهمته الجديدة كانت

تختلف تماماً عن تلك الواجبات التي نجح في تنفيذها حتى ذلك التاريخ .

ذلك أنها قد تتطلب منه العمل لمدة أشهر طويلة وهو مضطر لذلك الى العيش والحياة بشكل خفي متظاهراً وكأنه لاجئ من شمال فرنسا . وكان وهو يجلس في جوف الطائرة وقدماه تستندان الى جدار هيكلها ، ولفافة التبغ تبعث دخانها من بين شفتيه ، يسرح بفكره وهو يستعرض الأوامر الأخيرة التي كان قد تلقاها وهي كالتالي : عليه الذهاب الى فندق صغير في تانوس وهو ملك لأحد عناصر المقاومة وإسمه ليون غوليسك ، ويتقدم الى صاحب الفندق ليعرفه بنفسه بعد ذكر كلمة السرّ وهي : لقد أصبحت الدجاجات جاهزة لإرسالها الى السوق .

وعندما يسأله صاحب الفندق وكم عددها ؟ .. عليه أن يجيب إثنيّ عشرة . كما كان هناك إثنان من عناصر الإستخبارات البريطانية يحملان أسماء مستعارة : شيدو ولوفيغر وسيتم إنزالهما تقريباً في ذات الوقت الذي سيهبط فيه لورد وفي نفس المنطقة ولكن بواسطة طائرة أخرى . وسيعمل هذان الإثنان بناء على أوامر النقيب لورد وتحت قيادته .

ومن المحتمل أن يكون لورد قد فكر أيضاً وهو جالس بأهمية الواجب الملقى على عاتقه ، وضرورة الإسراع في تنفيذه للكشف عن هوية ذلك المخبر العميل الذي يعمل مع رجال المقاومة لكي يتمكن من خيانتهم . وكان لورد قد حفظ عن ظهر قلب كل المعلومات التي أعطيت اليه ، كما عمل على تثبيت نطاق جلدي فوق ثيابه وكان يحتوي على أوراق نقدية فرنسية وذلك قبل أن يصعد مباشرة ليركب على متن الطائرة التي يجب أن تقلع به من أحد مطارات إنكلترا .

كان لورد يرتدي بنطال اللباس العسكري الإنكليزي ، كما كان يضع فوق كتفيه سترة مدنية ذات طراز فرنسي ظاهر ، ووضع قميص سترته العسكرية الى جانبه ، بعد أن عمل على طيه تحت معطفه وذلك قبل أن يغادر الطائرة ويقفز الى الفضاء مباشرة. وكان هدفه من ذلك بأن الحظ إذا ما خانه فوقع في أيدي إحدى الدوريات الإلمانية في لحظة وصوله الى الأرض فسيتم إعدامه رمياً بالرصاص فوراً كجاسوس فيما لو كان يرتدي الثياب المدنية ، أما إذا تمّ إعتقاله وهو يرتدي الألبسة العسكرية الإنكليزية فسيتم إعتقاله كأسير حرب وذلك حسب الإتفاق الدولي . وكان من البديهي بأن السلطات النازية لو عثرت عليه لما ألزمت نفسها بأي شيء تجاهه .

ودخل الملاح الى جوف الطائرة وكور جسده ليجلس الى جانب لورد وصرخ بأعلى صوته لكي يصبح صوته مسموعاً على الرغم من هدير محركات الطائرة وقال له :

إننا سنصل فوق هدفنا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة ، فهل تريد مني أن أساعدك على إرتداء مظلتك ؟

ووافق لورد بايماءة من رأسه وسحب آخر نفس من لفافة التبغ التي كان يضعها بين شفتيه ثم صرخ بأعلى صوته وهو يبتسم وقال:

إن مفارقات هذا العالم تستدعي السخرية ، فلقد كنت أكره دائماً الخروج من المنزل عندما يكون الطقس ماطراً ، ولكنني اليوم أشعر بالسعادة لأنني آمل بأن يجبر المطر الألمان على الإختفاء وأن يحجب عنهم الرؤيا .

وابتسم الملاح لهذا التعليق ، ثم تناول المظلة الواقية التي كان قد تمّ طيها بعناية من على رف الطائرة ونهض لورد بعد أن سحق عقب لفافة التبغ ، وارتدى قميصه العسكري فوق سترته ، ثم ثبت أحزمة مظلته ، والتقط طرداً عتيقاً ترتسم عليه ملامح القدم كان قد أحضره معه ، واقترب من فتحة الطائرة التي سيقفز منها الى الفضاء حيث ستلفه الظلمه والأمطار ، وقال الملاح في اللحظة

التي كان فيها شراع المظلة ينفتح بشكل طبيعي ، حظاً سعيداً وهبوطاً موفقاً .

أما الكابتن لورد ففي اللحظة التي غادرت فيها الطائرة وشعر بأنه أصبح في الفراغ عمل على لصق رأسه بصدره ثم أخذ الهواء يعبث به وكأنه كيس من القش فعمل على سحب قبضة المظلة وعندئذٍ أحسّ فجأة وكأنه وقف عن السقوط كما لو أمسكت به يد عملاق بقسوة .

ولم تكد المظلة تنفتح حتى شعر بأنه في وضع طبيعي تماماً ، رأسه الى الأعلى وقدماه الى الأسفل . وكان لورد يشعر بالغثيان والدوار نتيجة لانتقاله من جو الطائرة الحار الى الجو البارد . ولذا فعندما وصل الأرض لم يكن بحالة طبيعية ، فسقط على ظهره فوق الأعشاب النامية فوق وحل إحدى المزارع بين حفرتين متجاورتين ، وكان المطر قد إنقطع عن الهطول ، كما كان الضباب يغطي الحقول بشكل غطاء خفيف .

عمل النقيب بسرعة على طي أطراف مظلته وأسرع بدفنها في إحدى الحفر ، وآنئذ وصله من مسافة ليست بعيدة عنه صوت طرقات أجراس ساعة كبيرة تعلن أن الوقت أصبح الثالثة صباحاً .

وتمكن لورد من التقدم وسط هذا الضباب ، حيث اجتاز بحذر أحد الحقول ، ولم يتوقف إلا عندما وصل الى إحدى الطرقات الرئيسية ، حيث مكث هادئاً لبرهة وجيزة بدون أن يأتي بأية حركة ، ثم أمعن النظر فيما حوله _ ولكنه لم يشاهد أي شيء يثير شبهته _ فلقد كان كل شيء هادئاً ، والصمت مطبق تماماً .

ونظر باتجاه الشرق ، حيث مولد فجر اليوم الجديد من خلف الغيوم الكبيرة السوداء ، ورفع لورد الأمان عن مسدسه ، وتابع سيره في ذلك الإتجاه الذي سمع منه صوت الساعة وهو إتجاه تانوس حيث كان ينتظره الفندق الصغير الذي يشرف عليه ويديره ليون غوليسك . ولم يكن من الصعب الوصول الى الساحة الرئيسية للقرية النائمة ، وهناك توقف أمام منزل شبه متهدم ، تغطيه الأعشاب ذات اللون البني، ولم يكن هناك غير باب واحد . ولقد قال لنفسه عندما شاهد هذا المنزل بأنه مبالغة مفرطة أن يسمى هذا المنزل فندقاً .

ودفع لورد غطاء فتحة مستطيلة في الباب كان الصدأ يغطيها ، وكانت تلك الفتحة لصندوق بريد الفندق ، ثم نظر من خلال تلك الفتحة فشاهد شعاعاً خفيفاً من الضياء يتسرب من فوق فتحة باب ربما كان يقع في نهاية الممر ، ثم نظر النقيب بحذر الى ما حوله مرة أخرى فرأى أن الشارع لا يزال مقفراً كالمعتاد فطرق على الباب ثلاث طرقات قوية متتالية . ووصل الى سمعه صوت صراخ ديك من الطرف

الآخر من المنزل ، ثم انفتح الباب بعد ثوان قليلة وهمس ذلك الرجل الذي انتصب أمامه بصوت خشن:

ـ من أنت ؟...

فأجابه لورد :

ـ لقد أصبحت الدجاجات جاهزة لإرسالها الى السوق .

وكم عددها ؟ ...

ـ إثنتي عشرة .

حسناً . تفضل بالدخول ، يا صديقي .

وانفتح الباب أكثر من ذي قبل ثم انزلق الرجل الانكليزي الى داخل المنزل وتبع صامتاً خطوات الشيخ الضخم الذي كان يتقدمه الى أن وصل الى غرفة تقع في آخر الممر المظلم . إنها غرفة الجلوس ذات أثاث عتيق ، يقع في زاوية منها موقد يعمل على الفحم الخشبي ويؤمن للغرفة حرارة مناسبة ودفئاً مريحاً . ثم فتح المضيف دولاباً وأخذ منه قدحين ملأهما خمراً ثم قدم أحدهما الى لورد وقال له :

ـ في صحتكم ، ومرحباً بكم ، يا سيدي .

ورفع ليون غوليسك قدحه ثم أفرغه في جوفه دفعة واحدة .

وقد كان ليون غوليسك رجلاً ضخم الجثة ، جريئاً مقداماً ، عريض الكتفين ، ذا عينين زرقاوين لامعتين وحاجبين كثيفين وأهداب سوداء كثيفة طويلة .

وأفرغ لورد قدحه ثم قرّب يديه المتجلدتين ووضعهما بجانب الموقد وقال :

إنها ليلة رديئة ، وقد كانت الأمطار تهطل بغزارة عندما غادرت إنكلترا.

وعندئذ أجابه الفرنسي وهو يبتسم بعد أن ملأ قدحه مرة ثانية :

ـ ولكنها ليلة ملائمة بالنسبة لكم . فإن الألمان يكرهون النزهة في الطقس الرديء ، حتى ولو كان ذلك بأوامر هتلر .

وأخرج لورد لفافات التبغ من جيبه وقدم واحدة منها الى غوليسك الذي أخذها وقد التمعت عيناه فجأة وهو يقول :

ـ إنها سجائر إنكليزية ، أليس كذلك ؟.. شكراً ، يا سيدي .

ثم نهض ففتح باب الموقد وأدخل ورقة لثوان قليلة ثم إستخدمها لإشعال لفافات التبغ .

وعندئذ جلس لورد في أحد المقاعد الوثيرة ووجه سؤالاً الى ليون :

ـ وهل وصل آخرون ؟ هه ، من الدجاجات ؟ ...

وأجابه ليون غوليسك ، وهو يزفر غيوماً من الدخان بقوله :

ـ نعم ، وصل إثنان الليلة الماضية . وصل أولهما حوالي الساعة الحادية عشرة ، أما الثاني فقد وصل في مثل هذا الوقت . وإسم هذين السيدين شيدو ولوفيفر ،وستقابلهما في الصباح .

ـ حسناً ، وكيف تسير الأمور هنا ؟.. وهل هناك عدد كبير من النازيين والمتعاونين معهم في ضواحي هذه المنطقة ؟..

وأجابه ليون ، وهو يبصق علامة إستيائه وإحتقاره ، وهزّ برأسه وهو يقول :

ـ لقد أقام الغستابو هنا مركزاً أمامياً سريّاً فيجب العمل بمنتهى الحذر.

وقضى الرجلان زهاء نصف ساعة معاً وهما يتحدثان عن الأوضاع العامة ، بحيث أن لورد عندما ذهب الى النوم لفترة ساعات قليلة لكي يأخذ قسطاً من الراحة التي كان يستحقها كان قد كوّن فكرة واضحة عما كان يجري في تلك القرية وضواحيها .

واستلم إدمون تاياك عمدة قرية تانوس في صباح اليوم التالي رسالة هذا نصها :

" وصلتنا ثلاث دجاجات صغيرة ". وتمّ نقل هذه البرقية الى لندن بواسطة جهاز لاسلكي للإرسال على الموجات القصيرة ، كان العمدة قد نجح بإخفائه عن القوات الإلمانية .

ولم يساور الشك أحداً ممن شاهد النقيب لورد ، وهو يهبط لتناول طعام إفطاره الذي كان يتكون من قطع صغيرة من الخبز وما يستعيض به عن القهوة في أنه فرنسي عريق ، كما إنضم اليه شركاؤه في مهمته شيدو ولوفيفر . وجلسوا جميعاً في غرفة جلوس غوليسك حيث كان بإمكانهم تبادل الحديث بحرية وطمأنينة لدراسة التدابير الواجب إتخاذها لوضع حدّ للخطر الذي كان يتهدد كل عناصر المقاومة في هذه المنطقة.

وقال لورد لزملائه :

" ستبقى شبكة تجسسنا في خطر دائم اذا لم نكتشف الخائن . ومن المحتمل ان يكون هناك عدد من الخونة ، ولا احد ما يستطيع اعلامنا فيما اذا كان هذا الخائن يقيم في تانوس او في ضواحيها ، وقد يكون ذلك الخائن مزارعاً او موزعاً للبريد ، او تاجراً او عاملا بسيطاً .. وعلى كل حال فان من المؤكد بأن هذا الخائن على علاقه بنقل الاوامر الى عناصر المقاومه من مكتب الجنرال ديغول في لندن ".

ثم القى لورد نظرة خاطفة على خارطه الاقليم والتي كان وضعها تحت تصرف صاحب الفندق، واستمر في حديثه إلى شركائه :

" وهكذا ... وكما تشاهدون فقد عملت على تقسيم القطاع الى ثلاثه اقسام وسيكون اكثر امناً بالنسبه لنا فيما اذا عملنا بشكل منعزل كلي عن الآخرين ، ويقوم كل منا في عمله في قطاعه الخاص به"

واقترب كل من شيدو ولوفيغر من الطاوله التي كانت الخارطه قد نشرت فوقها ، وابتدأ لورد يشرح ويوزع الاعمال :

" سأكون مسؤولاً عن الجنوب الغربي والذي يتضمن القرية ذاتها ، أما أنت يا لوفيغر فتستطيع الإهتمام بالقطاع الشمالي الشرقي ، أما أنت يا شيدو فستعمل في القطاع الشمالي الغربي ، وفي هذا القطاع الكثير من الأكواخ والمزارع . وإذا إضطررنا للإتصال ببعضنا البعض فسيتمّ ذلك عن طريق غوليسك ، وسنستفيد منه كوسيط فيما بيننا .. كما أنكم من البديهي بحاجة للنقود " .

وعند ذلك عمل لورد على فك أزرار سترته ، وأخرج قميصه خارج بنطاله وفك نطاقه وأخرج منه قطع من ذات الألف من الفرنكات الفرنسية . وهتف شيدو وهو ينظر أمام عينيه نظرات جشعة الى قطع النقود المغرية قائلاً : إنهم لم يتخلوا عنا كي لا نقع في عوز وحاجة للنقود . وعقّب لورد على قوله " إنه من المستحيل التنبؤ عن حاجاتنا للنقود في هذه المهمة وما يتطلبه العمل من أجلها وأكثر من ذلك ، فمن الممكن بأن نبقى محتجزين هنا في هذا الإقليم لمدة عدد من الأشهر ".

وبعد ذلك بيومين قام ليون غوليسك بتسليم رسالة مستعجلة تلقاها من شيدو الى لورد وكان شيدو يعمل على مقربة من مزرعة تبعد مسافة ستة كيلومترات من تانوس والى الشمال منها . وقد إشتبه في

إحدى المزارعين على أنه الرجل الذي يجري البحث عنه فأرسل رسالة يطلب فيها حضور لورد واللحاق به مباشرة بعد أن حدد موعداً للمقابلة في هضبة تقع على مقربة من كنيسة تانوس .

ولم يعرف إطلاقاً بعد ذلك فيما إذا ذهب النقيب الى الموعد أو لا ، فلقد شوهد وهو يغادر الفندق في الوقت الملائم والمتفق عليه ، ثم إختفى كل أثر له بعد هذه اللحظة ، الى أن عثر عليه جثة هامدة بعد ذلك بحوالي الشهر ، وذلك بتاريخ ٢٣ حزيران بالضبط ، وقد انتشلت الجثة من قعر أحد الآبار ، بعد أن إخترق ظهر الجسد أربع رصاصات .

فماذا حدث له ؟ ... ومن قام بإغتيال كريستوف لورد ؟ ... وبقيت كل هذه الأسئلة أحجية ولغزاً إستعصى على الحل الى أن تدخلت الصدفة بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وكان الإستقرار قد عاد الى تانوس التي أصبحت تزاول نشاطها المعتاد وهي تنعم بفترة السلم .

كان شقيق أرملة لورد يجتاز التارن في ربيع عام ١٩٤٦ عندما أصيبت سيارته بعطل طارئ في تانوس مما إضطره الى المبيت وقضاء ليلة في تلك القرية ، وكان من البديهي بأن يلتجئ الى المبنى الوحيد الذي يستطيع أن يقضي ليلته فيه وهو الفندق الذي يمتلكه ليون غوليسك . وفي تلك الأمسية عمل النزيل رغماً عن إرادته على الدخول في حديث مع صاحب الفندق وقال له وهو يحتسي كأس شراب من البيرنو :

_ كم هي جميلة قريتكم هذه وكم هي هادئة ؟ إنني أفترض بأن الحياة هنا خالية من الأحداث الهامة .

فما كان من صاحب الفندق إلا أن عقب على ذلك بقوله :

" لقد تعرضنا الى ما يكفينا من الأحداث الهامة أثناء الحرب . ولو كنت هنا في تلك الفترة لما قلت ذلك. لقد كانت تانوس مركزاً من مراكز المقاومة الهامة ، كما كان يتم إسقاط العناصر السرّية من الإنكليز بواسطة المظلات في الضواحي ، وقد عثرنا على جسد لجاسوس إنكليزي . وقد تمّ قتله لأن أمره إفتضح لكونه كان يعمل لمصلحة الحلفاء والألمان في وقت واحد . وقد ألقي بالجثة في بئر من آبار القرية . وكان من المحتمل بألا يعثر عليه أبداً لولا أن أصاب جسده الفساد وأصبح ذا رائحة كريهة ، لذا هبط إثنان من الرجال الى البئر للبحث عن سبب فساد الماء وعندئذ أمكن العثور على الجثة " .

وسأل السائح وقد استيقظت فيه روح الفضول فجأة :

_ ومتى تمّ ذلك ؟...

_ في عام ١٩٤٣ ... وفي شهر حزيران على ما أعتقد . ولقد ترددت بعض الشائعات في تلك الفترة بأن هذا الشخص قد قتل بيد عميل آخر جاء من لندن أيضاً ، ولم يكن وجود عدد كبير من العملاء المزدوجين الذين يعملون لإتجاهين في وقت واحد ، أثناء تلك الفترة المضطربة ، شيئاً غريباً . لقد كانت هناك مبارزة حقيقية حتى الموت .

_ وكيف كانت ملامح الجاسوس الذي عثر عليه في قاع البئر ؟...

ورفع صاحب الفندق رأسه ونظر الى السقف وهو يفكر للحظة قصيرة، وأجاب سائله بقوله :

" لقد كان رجلاً عادياً تماماً من ذلك الطراز من الرجال الذين يصعب الشّك في أمرهم . ولكن بعض التفصيلات هي التي أذهلتني ، لقد كان شعره أبيض كالثلج ، فإذا كانت تلك الشائعات صحيحة وإذا كان ذلك الشخص هو عميل مزدوج فعلاً ، فإن إغتياله عمل جيد ، لأنه كان سيتسبب في محنة تترل على الحلفاء ، بالإضافة الى أنه سيعرض حياة رفاقه من الإفرنسيين والإنكليز الى الخطر ".

وفي تلك الليلة كان من الصعب أن يجد النوم سبيله الى عيني شقيق السيدة زوجة لورد وقد تقلّب في فراشه عشرات المرات وهو يسترجع تلك القصة التي رواها له صاحب الفندق ، لقد كانت الشارة المميزة ، وهي الشعر الأبيض ، تدلّ بوضوح على أن الجثة هي جسد النقيب كريستوف لورد .

وفي صباح اليوم التالي إتصل هاتفياً بشقيقته التي كانت تقيم في لندن وشرح لها كل ما سمعه ثم حثها على القدوم الى فرنسا ، وطلب الإذن باستخراج الجسد . وصرخت شقيقته ، لا يمكن أن يكون كريستوف عميلاً مزدوجاً . فكيف يمكن ترديد مثل هذا القول بحقه ؟ ... لقد كان يكره النازيين كرهاً دفيناً ، فكيف يعمل على مساعدتهم ؟ ...

إنني سأحضر فوراً ويجب أن يعاد الإعتبار لشرف زوجي ، ولكي تبقى صفحته مشرفة ناصعة .

ولم تتأخر زوجة لورد في إضاعة الوقت سدى ، بل توجهت الى باريس مباشرة وحصلت على إذن بإستخراج الجثمان ، ورافقها شقيقها وهي تجتاز بتصميم وحزم مقبرة تانوس الصغيرة ، ونظرت إلى بقايا الجثة المتناثرة وقالت :

_ إنه بالتأكيد جثمان كريستوف وكان شاحباً كما كان شعره أبيض ومماثلاً تماماً لما كان عليه عندما كان على قيد الحياة ، كما كانت هناك علامات فارقة أخرى تؤكد بأن ذلك الجثمان هو جسد زوجها ،فلقد كان أحد أسنانه مصنوعاً من الذهب ، كما كان رسغ أحد قدميه مكسوراً منذ بدأ تمرينه على الهبوط في المظلات الواقية .

وعادت بعد ذلك السيدة لورد الى لندن ثم طلبت مقابلة إحدى الشخصيات التي لها مكانتها في وزارة الشؤون الخارجية ، وعندما تمت المقابلة طلبت بإلحاح وتصميم فتح تحقيق جديد وكان مما قالته :

" إنني أريد إعادة الإعتبار لشرف زوجي وغسل الإتهامات الدنيئة التي علقت به . إنه رجل نبيل ، وشجاع ، وقد إستشهد وهو يؤدي واجبه في خدمة بلده . وإنه لمن المؤلم حقاً أن يدّنس إسمه بالوحل ".

وأعطى ذلك الموظف الكبير في وزارة الشؤون الخارجية أوامره بالبدء في التحقيق مباشرةً . وسافر ضباط من السكوتلانديارد الى

فرنسا لإجراء التحريات حول هذه الأحجية القديمة التي مضى عليها ثلاثة أعوام . وقدمت عناصر الأمن كل مساعدة في التحقيق وقد تمّ إلتقاط كافة الكلمات والأقوال المتعلقة بهذا الموضوع من تانوس كما أمكن إستجواب عناصر المقاومة القديمة والمزارعين وسكان القرية ولم يتمّ إهمال أية كلمة حتى تلك القصة التي تذكر بأن لورد قتل بأيدي الألمان فقد تمّ تسجيلها ، وأخيراً أصدر وزير الشؤون الخارجية البريطانية البيان التالي بعد أن كان قد مضى عام كامل في تحريات وأبحاث دقيقة :

على أثر التحريات التي تمت في فرنسا من قبل السلطات الفرنسية وبمعونة رجال سكوتلانديارد ، فقد تمّ إثبات هوية الجثة التي امكن العثور عليها في أحد الآبار في تانوس قريباً من تولوز ، وذلك في شهر حزيران من عام ١٩٤٣ ، وكانت تلك الجثة هي جثمان النقيب كريستوف جيمس لورد الذي كان قد إختفى منذ شهر مارس ١٩٤٣ وهو في سبيله لتنفيذ مهمة عسكرية سرّية تلقى أوامرها من وزارة الحرب البريطانية .

وقد نشرت عدد من المقالات آنذاك في الصحف الفرنسية ، وهي تذكر بأن الكابتن لورد قد تمّ إعدامه رمياً بالرصاص على أثر صدور أمر سرّي عن وزارة الحرب لأنه كان قد عرّض مهمته التي ذهب لتنفيذها للخطر وكذلك حياة رفاقة .

ونتيجة لذلك ، فإنه لمن الممكن التأكيد بأن الكابتن لورد لم يقتل على أثر إصدار أوامر سرّية قطعية ، أو لأية شكوك راودت وزارة الحرب البريطانية ، التي لم تعلم بوفاته إلا قبل فترة قصيرة من الزمن من القيام بتحرياتها التي نتج عنها إصدار هذا التصريح ، كما إنه لا يوجد أي دليل مطلقاً عن أن الكابتن لورد كان قد خان مهمته أو عمل على خيانة رفاقه .

ولقد أعاد هذا البيان الإعتبار لشرف لورد ومكانته ، ولكن هذا البيان لم يلق شيئاً من الضوء ولم يضع حلاً لتلك الأحجية . فمن هو قاتل الكابتن لورد إذن ؟ .. إنه لمن المحتمل بأن يكون اغتيال لورد قد تمّ على أيدي رفاقه ، أو على أيدي رجال الغستابو ، أو بواسطة أحد من الذين أغراهم المبلغ المادي الضخم من النقود الفرنسية التي كان يحملها لورد معه .

وإذا كانت هذه الفرضية الأخيرة صحيحة ، والتي لا يمكن تكذيبها، كما لا يمكن تأكيدها رسمياً ، فإن شيدو شريكه في مهمته هو أفضل شخص يستطيع معرفة الحقيقة عما حدث له فعلاً ، ذلك لأنه هو الذي حدد في الواقع مكان الإجتماع السرّي في تلك الليلة التي إختفى فيها لورد كما أنه هو ذاته الوحيد الذي يعرف مكان النقود ويعرف بأن اللورد كان يحملها معه .

ولكن شيدو لم يكشف شيئاً عما يعرف ، وبقيت شفتاه مغلقتان أبداً، لأنه كان قد ترك تانوس بعد أن حدث إغتيال لورد بزمن قصير ، ولكن رجال السكوتلانديارد إنتهوا من أبحاثهم عنه عندما علموا بأن الغوستابو كانوا قد علقوا جسده في باريس .

ومن المحتمل كثيراً بأن تبقى هذه الأحجية لغزاً لا حل له ولكن ما هو أكثر أهمية في هذا الموضوع هو إعادة الإعتبار وغسل العار الذي علق بشرف لورد ودنّسه ، وقد تمّ ذلك بشكل نهائي وبذلك لم يبق أي شيء يمكن قوله عن تلك القصة التي كان يتناقلها سكان قرية تانوس والتي كانوا يسمونها بقصة كريستوف لورد .

المرجع

(١) كيرت سينجر " أعلام الجاسوسية العالمية ".ص ٤٠١- ٤١٥.

خدعة الحرب

بين مونتغمري الحقيقي والمزيّف

كم كـان مصيباً ذلـك القول بـأن «الحـرب خـدعـة»، وسيـاسـة المكـر والمـراوغة تحـرز في كثير من الاحيـان انتصارات مصيـريـة، تنعكس آثـارهـا مباشرة على حيـاة الشعوب والأوطـان. وكثيرة هي فنـون الخداع التي عـرفتها الحرب العالمية الثانية، تبدأ من خـطط وهمية لتنتهي في انتحـال الشخصيات وتقـريـر المصـائـر. ولم تكن عمليـة انتحـال شخصيـة الجنـرال الانكليـزي «مونتغمري»، من قبل الممثل «كليفتون جيمس» سوى احـدى هذه العمليـات الشهيرة والأكبر غرابة وأهمية في تاريخ هذه الحرب.

فما هي أسرار هذه الحادثة؟ وكيف كانت مراحلها ونتائجها؟.

في ربيـع سنة ١٩٤٤ كـان الجيش البريـطاني في غليان. وكـان الجنود يشعرون باقتراب اليوم «ج»، بالرغم من جهلهم خطط قادة الحلفاء الكبرى.

وعلى الساحل، بالقرب من بورتسموث، كانت تجارب الانـزال المقبل تجري على نطاق واسع بحضور وزيـر الحربيـة والجنرال «مونتغمري»، الـذي كان يستعرض فرق جيشه، وعلى رأسه «البيريـه» السوداء، غير مكترث بـرقيب يتبعه خطوة خطوة، ويحدق فيه بإمعان.

فمن هـو هذا الـرجـل؟ لم يسبق لأحـد من معـاوني الجنـرال أن رآه أو عرفه، ومع ذلك فرجال الشرطة يسمحون له بـأن يذهب ويجيء كيفمـا شاء.

انه يقترب من القائد الكبير، يفحص تقاطيعه بدقة، ويراقب كل حركة من حركاته، فتستبد الدهشة بالجنود، ولكن يبدو أن الجنرال مونتغمري لا تزعجه هذه المراقبة.

ان هذا الرقيب هو «كليفتون جيمس» الذي يشبه الجنرال كثيراً، وهذا الشبه في الواقع يثير الدهشة: فله نفس القامة، ونفس تقاطيع الوجه، ونفس النظرة، وفضلاً عن ذلك، فهو ممثل أصيل يستطيع بقليل من الجهد، أن يزيد في هذا الشبه المدهش..

علمت مصلحة الاستخبارات البريطانية بهذا الأمر، فقررت الاستفادة من هذه الظاهرة الغريبة، لتخدع مصلحة الاستعلامات الالمانية، فعمدت الى إجراء تحقيق سريع عن كليفتون جيمس.

كان كليفتون جيمس ضابطاً في الحرب العالمية الأولى. وفي سنة ١٩٣٩ تطوع في مصلحة المالية، وبقي أياماً طويلة يدوّن أرقاماً، وهو يبذل الجهد لكي لا يغفو أثناء عمله الممل. وقد نجح في الحصول على اذن لإخراج بعض المسرحيات في أوقات فراغه، وهكذا تمكن من الترفيه عن الجنود أثناء راحتهم..

وكان شبهه الشديد بمونتغمري سبباً لتسلية رفاقه. حتى أنه في أحد الأيام ظهر على المسرح وعلى رأسه «بيريه» عريضة سوداء. وفي يوم آخر طلب منه أحد المصورين أن يقف أمام عدسته وعلى رأسه «البيريه» العريضة المشهورة، فلبّى الممثل الطلب، وهو مضطرب يسائل نفسه، عما اذا كانت جريمة احتقار الرؤساء لن تكلفه غالياً. وظهرت الصورة في «النيوكرونيكل» وقد كتب تحتها «كلا انك على خطأ، انه الليوتنان كليفتون جيمس». ولم تمضِ مدة طويلة حتى دعي كليفتون الى لندن من قبل المصلحة السينمائية في الجيش. فتوهم أنهم يستدعونه ليظهر في بعض الأفلام، فكان فرحه عظيماً. ولما وصل الى العاصمة وجد زوجته «ايفا» في انتظاره، فصحبها معه الى المقابلة، وتركها أمام الباب، ثم دخل مكتباً فوجد نفسه وجهاً لوجه مع

الكولونيل «ليستر» الذي قال له بدون مقدمات:

ـ اننا لم نستدعك لتظهر في أفلام.

وقبل أن يستفيق من دهشته، تابع الكولونيل حديثه قائلاً:

«إن الجنرال مونتغمري يستعد لشن هجوم عنيف، ولكي ينجح هذا الهجوم تمام النجاح، يجب أن نجعل الالمان يعتقدون أن الجنرال يدرس الخطط في أرض غير الأرض الحقيقية التي اختارها للمعركة. والأفضل أن يرى الجواسيس الالمان شبيهاً لمونتغمري في أفريقيا الشمالية، أو في جبل طارق. وقد كلفني الجنرال مونتغمري شخصياً أن أجد الشبيه الذي سيقوم بهذا الدور».

وأضاف الكولونيل: «أرجو أن تقبل عذري. لا علاقة لي بالمصلحة السينمائية في الجيش. انني تابع لمصلح الاستخبارات».

وبقي كليفتون جيمس مدهوشاً، فقال له الكولونيل: «لقد اخترناك لتلعب دور الجنرال مونتغمري حتى اليوم «ج». ونحن مكلفون بخداع العدو، وبإنقاذ حياة الألوف من الرجال. لم يعد لدينا وقت نضيعه. سوف نبدأ بتدريبك، وفي اليوم المعين تصبح الجنرال مونتغمري»..

وطبيعي أنه لم يكن مجال لمناقشة هذا الأمر..

ولم يبق أمام كليفتون إلا أن يحني رأسه للأوامر. فراح يصغي باحترام الى تعليمات الكولونيل التي تقتضي السرية التامة. فهو يستطيع أن يختلق لزوجته أية قصة يريدها، أما الحقيقة فيجب أن تبقى سراً. وطلب اليه أن يختفي لبعض الوقت وأن ينقطع عن أصحابه القدماء. وجرى كل شيء كما كان يتمناه الكولونيل. فودع كليفتون جيمس زوجته وداعاً حاراً. وبعد مدة من التمرين قضاها في وزارة الحربية، ارتدى ثياب رقيب في مصلحة الاستخبارات لأنه بهذا الزي يستطيع أن يقترب من الجنرال كما يحلو له. وفي صباح اليوم التالي لارتدائه هذا الثوب، اقتيد الى «بورتسموث» حيث

سنحت له الفرصة لدرس مونتغمري عن كثب. فراقب كل حركة من حركاته، وحفظ لهجة صوته. وبقي بضعة أيام يولي هذا العمل انتباهه التام، لأنه كان يعي المسؤولية المترتبة عليه، بعد أن أوضح له أنه باتقانه هذا الدور، يساهم مساهمة فعالة في النصر النهائي..

وبعد مدة قصيرة كان عليه أن يتبع الجنرال الى كورسيكا. وفي هذه المرة دخل مكتب القائد الكبير. وكانت دهشة الرجلين عظيمة عندما وقفا وجهاً لوجه. وقد قال جيمس فيما بعد: «شعرت بأني أقف أمام المرآة».

ودارت بينهما محادثة طويلة، فكان الممثل يستوعب كل كلمة من كلمات القائد. قال له مونتغمري: «ان المسؤولية التي تقع على عاتقك كبيرة جداً، فهل أنت على ثقة من نفسك؟».

وتردد كليفتون في الجواب، فأضاف الجنرال: «إني متأكد أن كل شيء سيتم على ما يرام، وأنك ستلعب دورك باتقان».

وسرعان ما انتهت مدة المراقبة، وحفظ الدور تماماً، ولم يبق الا أن تقدم التمثيلية..

ارتدى جيمس بزة الجنرال التي فصلت خصيصاً من أجله، ونظر الى نفسه في المرآة فأعجبته قامته. ومع ذلك فقد كان ينقصه شيء هام: سلسلة ساعة، حيث كان مونتغمري يعلق سلسلة في جيب صدرته، فأسرع ضابط الى السوق واشترى له هذه السلسلة التي لم يزد ثمنها عن نصف«كورن»... ولم يكن كليفتون جيمس يحمل ساعة جيب يعلقها بالسلسلة، فاكتفى بأن علق في طرفها مبراة صغيرة وضعها في جيب صدرته الصغيرة، وكان يأمل ألا يسأله أحد عن الوقت.. وبقي أمر هام يجب أن تبذل له عناية خاصة: فقد كان الممثل قد خسر في الحرب العالمية الأولى الاصبع الوسطى من يده اليمنى، وكان يمكنه أن يخفي هذا العيب بأن يلبس قفازاً، ولكن مونتغمري لا يستعمل القفازات، فصنعوا له اصبعاً علقوه بيده برباط خفي، ولم ينسوا أن يعطوه عدة مناديل طرزت فوقها هذه الحروف B. M. L وأوصوه بأن يرميها هنا

وهناك، أمام أنوف الجواسيس.

وما أن تمّ تنكّره على هذا الشكل حتى قادوه الى المطار، وهناك أدت له التحية شلة من الجند، وخفقت القلوب فخراً لبطل بريطانيا العظيم. وجد كليفتون في الطائرة الجنرال «هيود» وكان هذا القائد مكلفاً بأن يتبع الممثل خطوة خطوة، ليساعده عند الحاجة، وليجنبه ارتكاب الأخطاء.

وبعد انقضاء بضع ساعات وصل المسافرون الى جبل طارق، وكان حاكم القلعة «السير رالف أستوود»، صديق مونتغمري قد أحيط علماً بالأمر. وهبطت الطائرة، فخرج كليفتون منها، وحيا بكل ارتياح الضباط الذين هرعوا الى استقباله. وحين التقى بالجنرال «استوود» لم يستطع هذا الأخير أن يخفي دهشته أمام صورة صديقه مونتغمري الحية.

وقال الحاكم: «لقد عرفت صديقي طوال سنين عديدة، ولكنني لبعض لحظات، ظننت أنه غيّر «خططه وقرر أن يحضر هو بنفسه».

وأصبح من الواجب الآن أن نصل الى الغاية الحقيقية التي بذل من أجلها هذا الجهد كله، وهي تضليل الالمان عن نوايا عدوهم الحقيقي.

وتطلع كليفتون من النافذة، فرأى رجلاً رابضاً على أحد السطوح، وبيده آلة يوجهها نحوه، فاضطرب. هل ينوون أن يقتلوا في شخصه قائد القوى البريطانية؟ وأخيراً تنهد ارتياحاً عندما ثبت له أن هذه الآلة التي أخافته، انما هي منظار يوجهه نحوه أحد الفضوليين. كانت المقابلة الأولى ناجحة تماماً ولكن اللعبة الحقيقية لم تكن قد بدأت بعد..

بعد بضعة أيام استقبل السير رالف والليدي استوود خطيبين قالا أنهما من اسبانيا، وقد أخرج هذا المشهد باعتناء..

ففي الوقت الذي سيصل فيه الخطيبان، كان السير رالف وضيفه الشهير يتنزهان، وهما يتحدثان بصوت مرتفع في حديقة قصر الحاكم الجميلة. وراح مونتغمري المزيّف يدلي لصديقه بتفصيلات عن الخطة (٣٠٣) التي اخترعها

من أجل هذه المناسبة. ولما لاحظ السير رالف الخطيبين أخذ بيد صديقه ليفهمه أنه يجب أن ينقطع عن الحديث. فسكت الجنرال المزيّف فجأة وعبس، كأنما وصول الغريبين المفاجىء أثّر فيه حقيقة. ومع ذلك تم التعاون وبدأت المحادثة عن أشياء عادية. واكتفى الجنرال المزيف بأن يلقي بعض عبارات مبهمة عن الحرب، ولم ينس أن يستعمل لهجة مونتغمري في الحديث، وكان واقفاً وهو يتكلم، ويداه معقودتان وراء ظهره ليخفي اصبعه المقطوعة. وبعد بضع دقائق نظر الى السماء وقال: «أرجو أن يبقى الطقس حسناً، إذ ما زالت أمامي ساعات طويلة من الطيران».

ثم حيا الغريبين وانصرف، فظن هذان أنهما تحدثا الى مونتغمري بالذات. والأهم من ذلك انهما اعتقدا أن مونتغمري سيقوم بجولة في الشرق الأوسط لكي يهيء هجوماً في المناطق البعيدة فنقلا معلوماتهما هذه على الفور.

وكان الجواب على هذه المعلومات أن تلقى جواسيس الالمان الذين يعملون في الخارج من مصلحة الجاسوسية برقية جاء فيها «اكتشفوا طبيعة الخطة ٣٠٣ مهما كان الثمن»، ووزعت أوامر أخرى للعمل على إسقاط طائرة مونتغمري. .

ركب كليفتون جيمس الطائرة بعد بضع ساعات، واتجه نحو الجزائر، ولم يكن يفكر كثيراً فيما يعترضه من أخطار. والحقيقة أنه لم يكن عرضة للكثير منها. إذ أن هتلر، في اللحظة الأخيرة قرر أن لا يتعرض للقائد البريطاني ما دام يجهل كل شيء عن خططه. .

وفي المطار شعر شبيه مونتغمري أنه محاط بالجواسيس من جديد.

ولكنه كان على ثقة بنفسه. فقد ناقش ضباطه في مسائل عدة، ولم ينس أن يذكر الخطة (٣٠٣). وكان الجواسيس يصدقون كلامه.

ودارت نفس اللعبة في أفريقيا الشمالية. فقد استقبل القائد ضباط فرنسيون وأميركيون وبريطانيون فحيّاهم برقّة، ولكنه لم يكن يجهل أن بعض

الجواسيس يمكن أن يختفوا تحت هذه الثياب.

وكـانت مصلحة الاستخبـارات قـد اكتشفت جـاسـوسـاً المـانيـاً تختفي شخصيته الحقيقية تحت اسم فـرنسي معروف جيـداً في الأوساط العسكـرية. غير أن مصلحة مقاومة الجاسوسية لم تلق القبض عليه، بـل تركتـه يقترب من مونتغمري المزيف، وقدم للجنرال باسمه الفرنسي، وبدأ الحديث.

وكان على كليفتون أن يستعين بكل قواه أثناء هذه المقابلة. فبينما كـان يقوم بدوره على أكمل وجه، لاحظ أن يد محدثه اليمنى في جيبه. ألن يشهـر الجاسوس مسدسه ويـطلق عليه النـار؟ إنه ليس مغـرياً دائمـاً أن يكون المـرء بديلاً لمونتغمري. ولم يحدث شيء لحسن الحظ وتمكن كليفتون من متـابعة رحلته.

وتحدث كليفتون فيما بعد عن هـذا القسم من الرحلة فقـال: «انطلقت الدراجات النـارية الأربـع عشرة بسـرعة البـرق، ولن أنسى طوال حيـاتي هذا السباق نحو مدينة الجزائر. وكان الاميركيـون الذين أوكـل اليهم أمر حـراستي قد أحيطوا علماً بمحاولـة لاغتيالي، واذا نجحت هـذه المحاولـة وقتلت، فلن يخبيهم شيء من المحـاكمة أمـام المجلس الحربي. ولم يكن لـديهم قـوات كـافية لتؤمن الحـراسة في طـريق طولهـا عشرون كيلو متـراً، فانـطلقـوا بهـذه السرعة الجنونية حرصاً على حياتي».

وزار كليفتون مدناً عديدة في أفريقيـا الشماليـة، وكان يعـرف دائماً أنـه محـاط بالجواسيس. وكـان يـود لـو ينـطلق على سجيتـه عنـدمـا يلتقي بنسـاء جميلات، فيطلبن اليه أن يهديهن صورته مذيلة بتوقيعه. وقد حرصت مصلحة الاستخبـارات في الـواقـع على أن تـوزع صـور مـونتغمـري المـزيـف، ولكن كليفتون كان يجيب المعجبات بخشونة، لأنه يعلم أن مـونتغمري لا يبـدو أبداً لطيفاً مع السيدات اللواتي لا يعرفهن.

وبعـد جولـة وصل كليفتـون الى مقر القيـادة العامـة في الجزائـر. وقـد انطلت هذه الخدعة على الجميع..

وعندما انتهت مهمـة الممثل عنـد هذا الحـد، فإنـه أرسل الى القـاهرة وحظر عليه أن يظهر. ومرت أسابيع على اقامته في هذه المدينة، بدت له مدة طويلة جداً، واعتقد أن رؤساءه قـد نسوه. ولمـا أعادوه الى وطنـه، سر كثيـراً بلقاء زوجته. أما في فرقته فقد أخذوا ينظرون اليه بازدراء اذ انتشر أثناء غيـابه خبر سجنه في برج لندن بتهمة الخيانة. .

وفي الوقت الذي ستضـع فيه الحـرب أوزارها، سيستـطيع كليفتـون أن يشرح لأصحابه سبب اختفائه الفجائي. ولكنـه وجد صعـوبة كبيـرة في العودة الى شخصيته الحقيقية، وبقي الممثل سنوات طويلة يقلد مونتغمـري، وبدون إرادة منه. وكان الناس الذين يرونه ماراً يخلطون دائماً بينه وبين مونتغمري. .

وقالت له زوجته ذات يوم:

«هل تعرف دكان بائع التبغ الذي يقع عند منعطف الشارع، بالقرب من محطة الأوتوبيس؟».

ـ فأجاب: نعم.

ـ لقـد دخلت حانـوته في هـذا الصباح ـ قـالت الـزوجـة ـ وسـألتـه عن الساعة، فأجابني: «انها الساعـة الحاديـة عشرة والنصف. وأنـا متأكـد من أن ساعتي مضبوطة. لأنني أضبطها دائماً كلما مرّ مونتغمري في السـاعة السـابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، في طريقه ليركب الأوتوبيس». .

وقـد يدهش هـذا البائـع بالـطبع اذا قيـل له أن الشخص الـذي يـظنـه مونتغمري ليس سوى ممثل ممتاز، تابع لمصلحة الاستخبارات.

قضية الجاسوس " ويليام جويس "
والمذياع النازي.

تمثل قضية الجاسوس البريطاني ويليام جويس ، المشهور بـــ "اللورد هاو هاو " إحدى قضايا الجاسوسية المثيرة للإهتمام في هذا العالم .

فما هو سرّ هذه القضية ؟

ومن هو ويليام جويس ؟

وكيف كانت نهايته ؟

ـ إنه خائن ، فأجبروه على السير ، وسيهتمون بأمره .

هذا ما كان يتردد على شفاه بعض العسكريين البريطانيين المتحلّقين حول إحدى عربات نقل الجرحى العائدة للصليب الأحمر الدولي ، عندما توقفت مساء أحد الأيام الأخيرة لشهر أيار عام ١٩٤٥ ، على مقربة من القيادة العامة للجيش في لينبورغ .

كان يتمدد على إحدى ناقلات الجرحى لعربة الإسعاف رجل تحيط به الأغطية مربوع القامة ، قد تشوه وجهه بندبة جرح تمتد من اذنه اليمنى حتى زاوية فمه الدقيق والحاد . إنه ويليام جويس الذي اشتهر باسم اللورد هاو هاو ، ذلك اللقب الذي منحه إياه الشعب الإنكليزي

بسبب أسلوبه المتصنع السمج الذي كان يتحدث به من إذاعة ألمانيا النازية . وتبعاً لتفاوت تمسك العسكريين بأسس الإنضباط ، فقد كانت حدة تعليقات الجنود تزداد أو تنقص في إستقبال جويس صاحب الصوت الساخر الذي كان يعلن نداء ألمانيا والذي أصبح صوته مألوفاً عند عدد كبير من المستمعين ، طوال سنوات الحرب التي كان يحاول أثناءها باستمرار تقويض الروح المعنوية للشعب الإنكليزي عن طريق الكذب والسباب والتهويل والخداع عبر موجات الأثير . ولقد خانه ذات الصوت الساخر قبل يومين فقط عندما قفز رجل من الغابة أمام ضابطين بريطانيين وهما يسيران عبر طريق من طرق الغابة المتاخمة للحدود الألمانية _ الدنماركية ، وكلمهما بالإنكليزية وعندئذ صرخ أحد الضابطين .

_ إنه هاو هاو ، هذا القذر الوضيع ، رجل مذياع غوبلز .

وقام الضابطان باستجوابه ، فمدّ جويس يده الى جيبه كما لو كان يريد إستخراج مسدس منه ومن المؤكد إنه أسيء فهم هذه الحركة ، ذلك أن جويس لم يكن مسلحاً وإنما أدخل يده الى جيبه ليستخرج منها جوازاً ألمانياً يحمل إسم ويليام هانسن ، ذلك الإسم الذي حمله منذ عام ١٩٤٠ بعد أن إكتسب الجنسية الألمانية . وبما أنه لم يكن لدى الضابطين أي إستعداد لأية مجازفة مع تلك الشخصية ، فقد سارع

أحدهما في إطلاق النار ، محدثاً جرحاً في إلية جويس قبل أن يتمكن هذا الأخير من سحب يده من جيبه.

وكان أول ما سمعه عندما وصل الى لينبورغ تلك الصرخات التي صدرت عن الجنود ، الى أن تمّ حمله بعد ذلك الى خارج عربة الإسعاف حيث وقعت عيناه على تلك النظرات التي تفيض بالحقد .وعندئذ إتخذ الخائن والدعائي في إذاعة هامبورغ هيئة الإزدراء التي حملت اليه سخرية واحتقار بريطانيا بأكملها ، وقال بصوت متعجرف ، وهو ينظر الى الجنود نظرات تدل بوضوح على أنه كان يعتبرهم كما لو كانوا متشردين أغبياء .

ـ إنهم لا يسمحون في البلاد المتحضرة بترك رجل جريح عرضة للنظرات الفضولية .

تلك كانت اللوحة الأولى في المشهد . أما المنظر الحقيقي فإنه لم يبتدئ في الأولدبيلي ، مجلس القضاء في لندن ، إلا بعد ذلك بأربعة أشهر ، عندما صدر الحكم بالخيانة العظمى على ويليام جويس الطالب السابق في المعاهد الملكية في لندن ، والإنكليزي الفاشي سابقاً . ولقد تمّ الكشف عن سيرة ويليام جويس أمام محكمة يرأسها القاضي نوكر وتضم نخبة رائعة من الخبراء ، بينهم السير هارتلي شوكروس والسيد ديريك كورنيس بينيشار مستشار البلاط .

إنه متمرد مغرور ، حقير ودنيء نتيجة للعمل الذي أراده في سوق النازية مدفوعاً الى ذلك بحقده على إنكلترا إنه تاريخ للخيانة والغدر تجاه بلد تفيأ بظلاله منذ عام ١٩٢١، عندما وصل الجزيرة البريطانية قادماً حسبما يقال من إيرلندا ، أما الواقع فقد ولد ذلك الرجل الذي عرف باللورد هاو هاو عام ١٩٠٦ في بروكلين من الولايات المتحدة الأميركية .

كان جويس ذا نفسية حاقدة ، كما كان في حرب مستمرة مع التقاليد والعادات أو ما يسمى بثبات النظام الإجتماعي . وكان يفرغ حقده العدائي باتباع ما يسمونه سياسة الشارع . وبعد أ ن إنتسب الى جامعة المعاهد الملكية إنضم الى الإتحاد الفاشي البريطاني الذي كان يوجهه السير وولد موسكي وأصبح من أوائل الخطباء لحركة ذوي القمصان السوداء . وفي أثناء أحد الإجتماعات التي كانت تعقد في فندق المدينة في لامبيت ، أصيب بضربة آلة من آلات الحلاقة تلك الضربة التي تركت أثرها ندبة كريهة تشوه الجانب الأيمن من وجهه .

كان الصنم الحقيقي الذي يتعبده جويس في الواقع هو آدولف هتلر باعث الرايخ الثالث الجديد ، والذي كان يجد فيه أحلام الطموح ، والقدرة فلا عجب إذا ما أصبحت ألمانيا ما قبل الحرب موطنه الروحي.

لقد صرّح جويس كذباً بأنه من مواليد غالوي في إيرلندا وإنه نتيجة لذلك من أهالي بريطانيا ، وهذا ما مكنه من حيازة جواز سفر إنكليزي، وأعطاه الفرصة ليسافر إعتباراً من عام ١٩٣٣ عدة مرات الى فاتيرلاند قبل أن يتمكن من دراسة أساليب الفوهرر في موضعها على أرض ألمانيا .

وفي ٢٤ آب عام ١٩٣٩، قام جويس بتجديد جواز سفره للمرة الثانية. وبعد ذلك بقليل سافر الى ألمانيا بعد أن حزم أمره وقرر عدم العودة الى بريطانيا نهائياً . وصرح أمام أحد ضباط الإستخبارات الإنكليزية الذي كان يستجوبه أثناء إقامته في مستشفى لامبورغ ، وذلك بعد إعتقاله بعدة أيام ، بأنه عندما إتخذ قراره بمغادرة إنكلترا الى ألمانيا لم يكن يسعى وراء أي مغنم مادي ، انما كان مدفوعاً بتأثير مفاهيمه السياسية . وكان مما قاله :

بما أنني كنت قررت أثناء تلك الفترة العصيبة بأن أحيد عن شرف خدمة إنكلترا ، فلقد توصلت الى النتيجة المنطقية في إنه لم يعد لي الحق في أن أعود الى بريطانيا بإرادتي الخاصة ، وأنه من المفضل أن أطلب الجنسية الإلمانية لكي أقيم في ألمانيا بصورة نهائية .

ولكن في الواقع هو أن إسم ويليام جويس كان مدرجاً بين الأسماء التي تضمنتها القوائم التي كان يقوم هتلر بتزويدها بالمال . فمنذ عام ١٩٣٧، وبعد أن إنفصل عن موسلي وتشرد أعضاء الحزب الفاشي

أصبح جويس عميلاً من عملاء النازية ، وعلى علاقة وثيقة بإحدى شبكات الجاسوسية التي كان يقوم على توجيهها مكتب سرّي في لندن. وكانت هذه الشبكة تضم أكثر من ثلاثمائة عميل مزودين جميعاً بالأسماء الرمزية ومصنفين حسب الأحرف الهجائية ويتخاطبون بالنصوص الرمزية ، وهذا ما كان يمكّنهم من التأكد من شخصيات بعضهم بعضا . وكانت الشبكة على إتصال دائم مع أعضاء السفارة الالمانية التي كانت تقيم في تلك الفترة في كارلتون هاوس تيراس على مقربة من وزارة الحربية البريطانية. ولقد أذيعت بعض الدقائق عن اعمال جويس في شبكة التجسس هذه منذ عام١٩٤١ على اثر التقارير التي عملت على تقديمها فتاة ممثله كانت قد انتسبت كعميله سريه ثم إنفصلت عن المنظمة.

وكان سبب إنفصالها هو ما بدأت تشعر من شكوك راودتها حول الأهداف الحقيقية لتلك المنظمة . ولقد صرحت الممثلة السينمائية الناشئة أمام رجال الصحافة فقالت :

ـ عندما انتسبت للعمل معهم ، لم تكن لدي أية فكرة عن خيانة جويس ورفاقه . فلقد قيل لي أن البلاد تتعرض للخطر بحيث جعلوني أتوهم في البداية أن روسيا هي الدولة التي يجب الحذر منها .

وكان التبرير الذي قدموه لتلك الفتاة الشابة هو أن المنظمة ترغب في جمع المعلومات للتأكد من إمكانيات الدفاع عن الوطن ، وكفايته

لمواجهة التطورات العاجلة . ولقد بدا لها ذلك غريباً ومبهجاً ، ولقد صرحت آنئذ بأنه لأمر مفرح حقاً أن يزاول الإنسان عملاً فيه الكثير من المغامرات . وأعطيت الفتاة إسماً رمزياً كي تستخدمه فيما إذا كان لديها من التقارير الخطية ما يتوجب عليها إرساله . وكان كل حرف بالأبجدية يتمثل بحرف رمزي ، كما بولغ في إفهامها بضرورة المحافظة على السر بشكل مطلق، وحذرت بأن أي خطأ تقع فيه أثناء مزاولتها لعملها كعميلة سرّية ستضطر المنظمة الى فصلها . ولقد تمّ تكريسها للعمل بشكل دقيق للغاية بحيث لفتها دوامة هذه الأعمال الجديدة تماماً بشكل أصبحت معه غير قادرة على التساؤل لمصلحة من تجازف ، ولماذا تقوم بعملها ؟.

ولو تمكنت هذه الفتاة البريئة من إدراك عملها منذ البداية لعرفت أية حيلة خدعت بها وأية هوة تردت فيها . ومن هنا أدرك رجال الشرطة ورجال المباحث البريطانية أهمية هذه الزاوية المهملة في أعمالهم .

لم يكن العمل بحد ذاته مثيراً ، بقدر ما كان الجو المحيط به غامضاً . وهذا ما جعل تلك الفتاة تعيش جو المغامرة التي كانت تطالعها في الكتب وتتعرف أكثر فأكثر على الحيل الشبيهة بتلك الأدوار الصغيرة التي تعمل فيها عند إنتاج الأفلام السينمائية . وكان ما قالته تلك الفتاة:

ـ كانت التعليمات غالباً ما تصلني بطريقة غريبة .ففي ذات مساء ، وبعد أن تناولت العشاء في أحد مطاعم الطرف الغربي من لندن ، وجدت بطاقة علقت على معطفي الذي كنت قد تركته في غرفة المعاطف . وكان مضمون الرسالة يطلب مني الذهاب والإنتظار أمام مخرج إحدى دور السينما في وقت محدد . وقد تأكدت أن جويس على إتصال بعدد من المستخدمين الذين يعملون في فنادق الطرف الغربي من لندن . ووصلت دار السينما في الموعد المحدد حيث سلمني رجل رسالة لأحملها الى سيدة تقيم في أحد فنادق الطرف الغربي .

ولقد اعترفت الفتاة أثناء حديثها بأنها التقت بذات الرجل عدداً من المرات بعد ذلك ، وعرفت أنه ألماني الجنسية .

وفي مرة أخرى طلب من تلك الفتاة الحصول على معلومات عن أحد المطارات الجديدة للقوات الجوية الملكية ، فيما إذا كان ذلك بمقدورها . وصرحت أمام رجال الصحافة فقالت بالضبط : لقد ضايقني ذلك الطلب وأزعجني ، لأنني لا أحمل في نفسي أي شعور عدائي لبريطانيا ، وقد وجدت أنهم ذهبوا بي بعيداً وخشيت أن يذهبوا بي الى أبعد من ذلك فيطلبوا مني الحصول على معلومات تزيد على حدود مطار جديد ..

علمت الفتاة بعد ذلك بقليل بأن جويس وشركاءه على إتصال وثيق مع بعض أعضاء السفارة الالمانية، وأن من عاداتهم الإجتماع في

دار سيدة تتصرف ظاهرياً وكأنها من نبلاء العائلات الإيطالية . وتأكدت شكوك الفتاة أخيراً عندما اكتشفت أن جويس نازي صميم ، وأنه ينتظر بفارغ الصبر وصول ذلك اليوم الذي يتمكن فيه هتلر من فتح بريطانيا والتغلب عليها . واعترفت الفتاة فقالت :

ـ عندئذ أدركت ذلك الخطأ الفادح الذي وقعت فيه ، فقررت أن أقطع فوراً كل إتصال مع جويس وزمرته . ولحسن الحظ فقد توقفت عن الإستمرار معهم في الوقت المناسب ، فالحمد لله .

وذهب جويس بعد ذلك بقليل الى المانيا ، وكان يتخيل عندئذ أنها ستكون سفرة بلا عودة ، أو على الأقل حتى يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه أعلام الصليب المعكوف خفاقة ظافرة فوق مباني قصر بكينغهام والوايت هول . ولكن تلك الرحلة في الواقع كانت بداية الطريق الذي أوصله الى حبل المشنقة.

لم يعرف عن حياة جويس في المانيا بعد أن وصلها من إنكلترا وحتى أصبح عاملاً في الإذاعة الالمانية كدعائي رئيسي للإذاعة باللغة الإنكليزية الشيء الكثير ، وكانت زوجته الثانية ترافقه عندما غادر إنكلترا عام ١٩٣٩. وكانت هذه السيدة تفيض نشاطاً وحيوية ، ذات لون أسمر جميل ، تزوج منها بعد أن افترق عن زوجته الأولى عام ١٩٣٦ بعد أن كان قد أنجب منها إبنتين . وكانت الزوجة الثانية تعمل موظفة في وزارة الإعلام الالمانية ، وتنحصر مهمتها في تصحيح

النصوص الإنكليزية قبل تقديمها لتذاع على الهواء . وكانت هي المسؤولة على ما يبدو عن أكثر التفاهات الصادرة عن هاو هاو . وهي التي عملت على إذاعة تلك النشرة عبر الأثير ، والتي ذكرت فيها أنه تمّ تدمير قاعدتين إنكليزيتين ساحليتين هما دوفر وفولكستون . وكان لا بد لذلك الخبر الكاذب والمستحيل تصديقه من أن يعكس أثره على وجه الخائن ، عندما وقف وجهاً لوجه مع أخصامه الذين يحاكمونه على جريمته أمام المحكمة الرئيسية والمنعقدة في أولدبيلي للنظر في المواضيع الجنائية .

هرب جويس وزوجته من هامبورغ قبل وصول الدبابات الإنكليزية اليها بساعات قليلة ، واتجها شمالاً حتى وصلا أخيراً الى فايسنبورغ على مقربة من الحدود الدانمركية . وكان من المحتمل تماماً أن يتمكنا من الفرار والنجاة من قبضة الإعتقال لولا أن وقعت مشادة بين الزوجين وارتفع صراخ الرجل الذي كان صوته معروفاً ومألوفاً على آذان العسكريين البريطانيين . وفي الواقع ، وإثر تلك المناقشة الحادة ، غادر جويس مباشرة المنزل الذي كان التجأ اليه في كوفر موهلل للقيام بنزهة في الغابات بغية إراحة أعصابه المشدودة ، ووجد ذاته على حين غرة وجهاً لوجه أمام الضابطين البريطانيين ، وهما من ضباط الإستخبارات في الجيش المدرع الملكي ، وكانت الرصاصة التي انطلقت من مسدس الملازم بيري هي التي أصابت جويس في إليَته .

أما زوجته السيدة جويس فلقد تمّ اعتقالها بعد زوجها بفترة وجيزة . ولقد عثر في حقائبهما الثلاثة على عدد من الوثائق المتعلقة بالزوجين ، مع دفتر مذكرات وحوالي مئة وخمسين صورة فوتوغرافية للجنود الالمان من الوحدات التي كانت تقيم في كوربودا بألمانيا .

كانت السيدة جويس تحمل في أصابعها أربعة خواتم ، وقد سحبت هذه الخواتم منها لا سيما وأن أحدها يحمل حجراً كبيراً ، وذلك خشية أن يحتوي على السم . وقد أجبرها الضابط الذي كان يعمل على استجوابها على تسليم سوارها الذي كانت تحتفظ به لأنه كان ذا طرف قاطع يمكن إستخدامه إذا ما أرادت إيذاء نفسها . كما قامت سيدة من ضباط مصلحة الصحة بتفتيشها تفتيشاً داخلياً دقيقاً ، فلم يعثر على أي شيء قد تتمكن من استخدامه إذا ما رغبت في الإنتحار .

وتمّ استخراج الرصاصة من إليَة جويس ثم نقل هذا المتمرد الذي يكره إنكلترا الى لندن ، كسجين وضيع حقير ، وذلك بانتظار إستجوابه عن جريمة الخيانة العظمى ، ولذا لم يتحقق حلمه في العودة ظافراً في اذيال قوات العدو المنتصرة .

ولقد ثارت ذات الإنفعالات التي كانت في صدور الجنود عندما أحاطوا به حول سيارة الإسعاف في لينبورغ مرة أخرى في نفوس المواطنين البريطانيين ، ولكن بقوة تزيد مئات المرات عن السابق .

وكان الجمهور المتدافع يحتشد ليحيط ببناء المحكمة في مبنى أولدبيلي عند انعقاد المحمكة في يومها الأول ، والشعور بالحقد يطفح منه .

ولقد شهد قفص الإتهام ، أمام المحكمة المركزية للجرائم والجنايات في لندن ، عدداً كبيراً من الأشخاص الفاسدين والمجرمين ، ولكنه ربما لم يشهد أبداً فيما سبق متهماً اكتسب ذلك المقدار من الكراهية والحقد يماثل ما حصل عليه اللورد هاو هاو ، ذلك الخائن الذي كان يتراقص ويضحك وراء المذياع بينما كانت لندن طعماً للحريق والدمار .

وعند بدء المحاكمة ، أقرّت محكمة البلد" الذي غمره باحتقاره" حق المساعدة المشروعة ، تلك المساعدة التي تمنحها عادة لكل سجين يعجز عن القيام بالنفقات المالية للدفاع عن نفسه . فتمّ تعيين ثلاثة من أقوى المحامين في المملكة المتحدة للدفاع عن جويس وهم السيد جيم بورج وإثنين من مستشاري البلاط هما السيد ج او سيلاد والسيّد ديريك كورتي بينيت . وكان أمر تكليف هذه الزمرة من المحامين يتطلب نفقات باهظة حتى لو كانت الدعوة مدنية . ومن المؤكد بعد ذلك أن شعور جويس قد غمره الفرح والإمتنان لما قام به هؤلاء الخبراء من الخدمات في تلك الدعوى .

وأجاب ويليام جويس على اتهامات نواب الحق العام الثلاثة بأنه غير مذنب ، بينما كان يرتدي ثيابه الأنيقة ذات اللون الأزرق الفاتح . أما نبرات صوته فقدكانت تختلف عن تلك النبرات التي كان يستخدمها

عندما كان يتكلم من خلف أجهزة الإذاعة الالمانية . ولم تقابل إجابته هذه بأية بادرة من بوادر السخرية ، ولكن ملامح الذعر إرتسمت على وجهه عندما بدأ يستمع الى النائب العام السيد هارتلي كروس يعرض أعماله على مسمع من وزارة الأمور العامة .

ـ السيد رئيس محامي الدفاع ، كان من واجب جويس أن يكون وفياً ومطيعاً للملك ولكنه تعاون مع أعداء الملك أثناء إقامته في المانيا وقام بإذاعة النصوص الألمانية المعادية في الفترة الواقعة بين ١٨ أيلول عام ١٩٣٩ و ٢٩ أيار عام ١٩٤٥ .

ثانياً ـ إنه متهم بالتحالف مع أعداء الملك وذلك بتاريخ ٢٦ أيلول عام ١٩٤٠ عندما استبدل جنسيته بالجنسية الألمانية .

ـ أما الإتهام الثالث فكان مماثلاً للإتهام الأول ما عدا بعض التعديل في تاريخ وقوع الحوادث المحصورة بين ١٨ أيلول عام ١٩٣٩و ٢تموز ١٩٤٠ .وبالإختصار ، فقد كان الإتهام يرتكز على مبدأ ثابت هو أن جويس وهو مواطن بريطاني قد وضع نفسه تحت تصرف النازيين بينما كانت إنكلترا في حالة حرب مع النازية .

وأراد الدفاع دفع الإتهام فذكر بأن جويس أميركي ، وإن أباه إرلندي وأمه إنكليزية ، وقد أثار هذا الدفاع معركة في أصول إجراءات الدعوى خلال فترة تمكّن خلالها أعضاء المحكمة من الإمساك بأنفسهم المبهورة لمشاهدة هذه المحاكمة المثيرة .

وحسم الموقف هارولد غودرين الضابط المساعد في مصلحة الجوازات عندما جلس في مكان الشهود وصرّح أمام النائب العام بأن جويس كان قد تقدّم بطلب تجديد جواز سفره قبل إعلان الحرب بفترة قصيرة .

وقال السيد هارتلي وهو يبرز وثيقة الشهادة :

ـ أنظروا،أليست هذه الورقة هي نموذج لطلب تجديد جوازات السفر؟

وأومأ غودرين برأسه علامة الموافقة .

عندئذ تابع السير هارتلي فقال بصوت هادىء ونبرات واضحة : إسمعوا إذن المحتوى الذي تضمّنته هذه الوثيقة :

ـ إنني أقرّ وأعترف أنا المدعو ويليام جويس والمقيم حالياً بالبناء رقم ٣٨ بشارع أيردلي كريسنت في القطاع الجنوبي الغربي الخامس من لندن بأنني أطلب وجاهياً تجديد جواز سفري البريطاني رقم ١٢٩٤٣ الذي كنت قد تسلمته في لندن بتاريخ السادس من شهر تموز عام ١٩٣٣ بفترة أخرى مدّتها عام واحد، وأصرّح بأنني من مواليد بريطانيا ورعاياها ، وإنني لم أفقد هذه الجنسية ، وأن كافة هذه المعلومات التي ذكرتها في هذا التصريح هي صحيحة وثابته .

وأجاب غودرين : نعم هذا هو النص فعلاً .

ـ وهل يحمل هذا التصريح توقيع ويليام جويس ؟

ـ نعم . هو ذا !

_ هل تاريخه ٢٤ آب عام ١٩٣٩ ؟ ...

_ نعم .

_ هل تمّ تجديد الجواز حتى أول تموز عام ١٩٤٠ ؟...

وقال هارولد غودرين : نعم . حصلت الموافقة وتمّ تجديد الجواز .

وبذلك قوض النائب العام أول الدفوع الرئيسية في أقوال الدفاع ، ثم قام باستدعاء الشاهد الثاني وهو ألبرت هنت مفتش المباحث للفرع الخاص في السكوتلانديارد الجديد ، الذي قام بالإدلاء بشهادته بعد أن أخذ مكانه في منصّة الشهود ، وأكد أن جويس كان قد دخل في خدمة المنظمات النازية منذ ١٨ أيلول عام ١٩٣٩ عندما احتل مكانه كمذيع للأنباء الإنكليزية . ولقد صرّح هنت بأنه سمع صوت السجين لأول مرة قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة عندما وقف جويس يخطب كعضو في الإتحاد الفاشي البريطاني أمام جمع عام في لندن . ولذا فلقد كان المفتش يعرف تماماً لهجة صوته التي استمع اليها خلال عدد من المرات عندما كان يلقي جويس خطابه على الجماهير.وسأله السيد هارتلي :

_ وهل كنت في الخدمة في فولكستون بتاريخ الثالث من أيلول عام ١٩٣٩ ؟ .

_ نعم كنت هناك .

ـ بين هذا التاريخ وتاريخ العاشر من كانون الأول ، ترى هل استمعت الى إحدى الإذاعات وشعرت بصدمة خاصة عندما استمعت الى لهجتها ؟...

ـ نعم . إنني أذكر ذلك جيداً . لقد استمعت الى إذاعة وعرفت أن الصوت الذي أسمعه هو صوت جويس حتماً ، وذلك عندما كان يذكر إنه قد تمّ تدمير فولكستون ودوفر .

ـ شكراً ، أيها السيد المفتش ..

وأعاد السير هارتلي وضع الشعر المستعار الذي يحمله فوق رأسه ، والمتدلي على كتفيه بشكل مناسب ، بينما كان ذلك الرجل القابع في قفص الإتهام يعض بأسنانه على شفتيه ،في حين إرتمت زوجته التافهة والتي سمحت بمرور ذلك النص وإذاعته على ظهرها لأنها مكنّت النائب العام بالإفادة من تلك النقطة الحاسمة في قرار الإتهام .

ولم يترك السير هارتلي ذلك الموضوع يمرّ دون تعليق عندما وقف أخيراً أمام رئيس المحكمة والمحلفين ليقول :

ـ إنه لمن المؤكد بأن تصريح جويس الذي ذكر فيه إنه قد تمّ تدمير كل من دوفر وفولكستون تصريح لا أهمية له ، ولا يترك أي أثر في نفوس أولئك المقيمين في إنكلترا . ولكن نتائج ذلك تبدو خطيرة أثناء سير العمليات الحربية في نفوس الوحدات الإنكليزية المقاتلة خارج الوطن وفي المناطق التي لا يستطيعون فيها الإستماع الى محطات الدعاية

النازية، وكذلك أولئك الذين لا يستطيعون الحصول على المعلومات الدقيقة عما يجري داخل البلاد.

وبذل الدفاع قصارى جهده ليدعم ويدافع عن وضع السجين ، فوقف السيد ج. أو. سيلاد وابتدأ قوله ذاكراً أن جويس لو أراد اكتساب الجمهور ليستمع الى إذاعته بانتظام لما ابتدأ بتلك الاكذوبة الكبيرة التي لا يصدقها عقل من عقول المستمعين الذين بإمكانهم أن يتأكدوا من صحة الأنباء بعد مدة لا تزيد عن ثماني وأربعين ساعة من إذاعتها.

واستمر السيد سيلاد في دفاعه مدعياً أن جويس رجل أجنبي على كل حال ، وليس على الأجنبي واجب الطاعة للتاج إلا عندما يكون في حماية التاج ، وإن حيازته جواز سفر بريطاني لا يجبره بأية حال من الأحوال على إطاعة التاج البريطاني ، على الأقل في تلك الفترة التي كان يقيم أثناءها في ألمانيا .

ولم يكن هذا الدفاع إلا محاولة لإنقاذ الموقف . وفي اليوم الثالث من أيام المحاكمة أعلن رئيس المحكمة أمام المحلفين وهو يرتدي ثوبه الأحمر بأن واجب الطاعة والوفاء للتاج كان مفروضاً على جويس . وقد كان لزاماً علية أن يتقيد بذلك طوال الفترة التي كان يحمل فيها جواز سفره البريطاني .

ولم يتغيّب المحلفون أكثر من ثلاثة وعشرين دقيقة ، عندما عادوا وأعلنوا أن جويس مذنب . وهكذا صدر الحكم عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت ، ولقد رفض طلب الرحمة الذي بعث به جويس الى المحكمة أولاً ثم الى مجلس اللوردات ثانياً .

وفي نهاية الجلسات طلب رئيس المحكمة توكر بوقار من جويس فيما إذا كان لديه ما يضيفه ، أو إذا كان هناك ما قد يخفف عنه عقوبة الإعدام ، ولكن جويس لم يكن لديه شيء ليضيفه .

وأخيراً ، كان لا بد من أن يقول البلد الذي أظهر عداءه له كلمته ، وهي الكلمة الأخيرة ، فتمّ تنفيذ حكم الإعدام بجويس بتاريخ الثالث من كانون الأول عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين .

المرجع

(١) كيرت سنجر " أعلام الجاسوسية العالمية ". ترجمة بسام العسلي . دار اليقظة العربية . بيروت ١٩٦٥ . ص٢٢١ _ ٢٣٣ .

المخابرات السوفياتية
تتغلغل في نخاع بريطانيا

اهتز الغرب وتزعزعت أركانه في فترة الثلاثينات من هذا القرن، وفقدت الثقة به كمؤسسة قائمة على القهر والظلم والاستغلال والحرية المزيفة. وقد أصبح منظر الجياع بالألوف مألوفاً في الدول الغربية، وبشكل خاص في لندن وبقية المدن البريطانية. كما شهدت الحياة الثقافية في بريطانيا خاصة احدى أشد موجات النقمة على النظام القائم، متخذة من جامعتي اكسفورد وكمبردج مركزاً ومنطلقاً.

هذه الفترة بالذات أنتجت أقدر الجواسيس البريطانيين من طلبة هاتين الجامعتين. والذين ينتمون الى أرفع طبقات المجتمع الارستقراطي، والذين وضعوا أنفسهم في خدمة المخابرات السوفياتية. وقد كشف عن أربعة من هؤلاء الجواسيس في الوقت الذي بقي فيه الخامس ـ واسمه الحركي ايلي Elli ـ لغزاً حيّر المخابرات الانكليزية والاميركية حيث اكتشف بعد وفاته ليؤكد بأنه «نخاع» بريطانيا ورجلها الأول في السنوات الأخيرة من عمله المخابراتي، ومديرها العام والرجل المكلف بالتجسس على السوفيات.

هذا هو «روجر هوليس» الجاسوس السوفياتي، الذي عمل في المخابرات البريطانية مدة ٢٩ سنة ثم أصبح مديرها العام ولم تكشف حقيقة أمره حتى وفاته.

فمن هو هذا الرجل الذي وصفته المخابرات الاميركية بأخطر الجواسيس ضرراً في التاريخ؟ وما هو سر «حلقة الخمسة» التي كان أحد رؤوسها ومدبريها؟.

في الحقيقة، كان لتغلغل الاخطبوط السوفياتي «المخمّس الرؤوس» في المخابرات الانكليزية دور كبير في إحداث هزات وزلازل سياسية أثرت عميقاً في تلك الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، مؤكداً أن المخابرات تبقى ما بقيت الشمس تغيب وتشرق ومثلث حلقة شمس الاتحاد السوفياتي في بريطانيا وشملت الجواسيس التالية:

* دونالد ماكلين، الذي كان موظفاً رفيعاً في السفارة البريطانية في أميركا ومسؤولاً عن أدق أسرار الابحاث النووية الاميركية البريطانية المشتركة في الاربعينات.

* غاي بيرغيس، الموظف الكبير في الخارجية البريطانية واحد المسؤولين عن العلاقات الأميركية البريطانية حتى انكشافه في منتصف الأربعينات.

* انطوني بلنت، من كبار رجال المخابرات البريطانية ولم يكشف أمره إلا في السنوات القليلة الماضية.

* كيم فيلبي الذي كان رئيساً للقسم السوفياتي في المخابرات البريطانية وقد كشف كل أسماء العملاء الاميركيين والبريطانيين للمخابرات السوفياتية، وأحبط كل محاولات التسلل الى المعسكر السوفياتي، وأهمها كشفه لعملية ثورة مسلحة أعدتها بريطانيا في البانيا في الأربعينات.

* روجر هوليس، وكان اسمه الحركي «ايلي». فبعد الدراسة في كليفتون كوليدج في بريستول التحق روجر بجامعة أوكسفورد لمتابعة دراسته الجامعية عام ١٩٢٤. لكن حياة هوليس في مرحلة التعليم كانت تتسع لأكثر بكثير من مجرد النشاطات التعليمية. فقد نشط في نادٍ جامعي للإصلاح الاجتماعي والسياسي، وتعرف الى زميل له يعمل في جريدة «الدايلي ووركرز» الشيوعية هو «كلود كولكبرن» الشيوعي، والى شيوعي آخر هو «موريس ريتشارد سون».

وسرعان ما ترك هوليس حياة الجامعة للعمل في أحد مصارف لندن

لتأمين نفقاته ولتوفير بعض المال الذي يستطيع أن يذهب بـه الى الصين بعد سنة، حيث استطاع أن يجد مجالاً للعمل في قسم الاعلانـات في شركـة تبعُ أميركية بريطانية في شنغهاي.

ولهذه السنوات التي قضاها في الصين أهميـة أخرى في حيـاته بـالنسبة للمستقبل. فهناك التقى بصحافية أميركية يسارية هـي «أغنـيس سميـدلي» التي كـانت معروفـة بعلاقـاتهـا بـالكـومنتـرن (أي الشيـوعيـة الـدوليـة) وبحلقـات الاستخبارات السوفيـاتية في الصين، وفي أجـواء العلاقـات الصينية اليـابانيـة المتشنجة وسياسة «تشان كاي تشيك» المعـادية للشيـوعية ونشـاط المخابـرات السوفياتية لدعم النضال الصيني ضد اليابان، تعرف روجر الى أورسولا بيرتـون وهي شيوعية معروفة، كمـا الف أجواء الصـراع الطبقي المحمـوم الذي كـان المنـاخ السائـد في تلك الأيام. هـذا وأشارت الأنبـاء التي نشرتهـا عنه وكـالة المخابرات المركزية الاميركية بعد الشـك في أمره الى اشتغـاله آنـذاك عميلاً للقسم العسكـري في هيئـة الاستخبـارات السـوفيـاتيـة (K G B) بـإشـراف الجاسوس السـوفياتي ريتشـارد سورج. وعزت تجنيده في هـذا القسم الى أن المسؤولين عن الاستخبـارات السـوفيـاتيـة استغلوا ميـولـه الجنسيـة العنيفـة وانغماسه الشديد في حياة المغامرة مما يحمل على الاعتقاد بأن روجر أصبـح شيـوعيـاً أو عميـلاً للشيـوعيـة وهـو في الصين، أي أنـه دخـل في خـدمـة الاستخبارات السوفياتية قبل دخوله في خدمة استخبارات بلاده.

ومن المعروف أن الابتزاز الجنسي والتهديد بالتشهير والفضيحة كانا من الوسائل المجدية لاختراق المخابرات البريطانيـة، التي كانت تضم عـدداً كبيراً من أصحـاب العادات الجنسيـة المنحـرفـة المنتشـرة بين الانكليز، والتي هي الأخرى احدى الصفات المشهورة للارستقراطية البريطانية. ومن أشهر حوادث التجسس التي تعبق برائحة الجنس والشذوذ قضية الجاسوس البـريطاني «وليم فاسال» الذي باع للسوفيات أسرار البحرية البريـطانية، وهي التي تستّـر عليها هوليس فيما بعـد حين أصبح من أكبـر المسؤولين في المخابـرات الانكليزيـة

ومديرها العام. وأثناء وجوده في الصين أصيب هوليس بداء الصدر فانتقل الى سويسرا للإستشفاء، حيث التقى مرة أخرى «بأورسولا بيرتون» ذات الأهمية الكبرى في حياته.

وجاءت الخطوة التالية بعد ذلك والتي تمثلت بالتحاقه بالمخابرات البريطانية، ولا سيما القسم الذي يتناول عمليات مكافحة الجاسوسية الخارجية، والسوفياتية بصورة خاصة. فكيف تسنى له ذلك وهو العضو الشيوعي في جهاز المخابرات السوفياتية؟

من المعروف أن هناك أولويات عمل للمخابرات السوفياتية في خطتها لاختراق المخابرات البريطانية. فهي تفضل أن تزرع عميلها في المجالات التالية التي نذكرها بحسب أهميتها من وجهة النظر السوفياتية:

أولاً: في المخابرات البريطانية نفسها وفي قسم مكافحة النشاطات السوفياتية إن أمكن.

ثانياً: هيئة الاذاعة البريطانية (بي. بي. سي) أو في جريدة التايمز لما يوفره مثل هذا الموقع من صلات واسعة في السياسة البريطانية ومع كبار المسؤولين سواء في الحكومة أو في الجيش أو الاقتصاد أو المخابرات.

ثالثاً: وزارة الخارجية.

رابعاً: وزارة الداخلية.

والظاهر أن تحركات روجر هوليس في الصين وعلاقاته هناك كانت تتم وفق خطة موضوعة تمكنه من الالتحاق بالمخابرات البريطانية. لعل هذا ما أراده له الروس. وتمكن فعلاً من الالتحاق بهيئة مكافحة التجسس سنة ١٩٣٦، مساعداً لـ «جاين سيسمور» الموظفة الكبيرة في تلك المخابرات من غير أن يخضع للتحقيق الصارم المألوف بالنسبة لتعيين أمثال هؤلاء الموظفين، حيث من المؤكد أن بيئته الدينية بصفته ابن اسقف أوحت بالاطمئنان اليه.

وطبيعي أن لا يذكر روجر علاقاته اليسارية أثناء وجوده في الجامعة أو

أثناء عمله في الصين، حتى أنه لا وجود لملف له عن هذه النشاطات في القسم الذي عمل فيه بعد ذلك مدة ٢٩ عاماً بصفته موظفاً عادياً فيّ البداية ثم نائب مدير ثم مديراً في النهاية. وعلى الأغلب أنه هو نفسه قد أتلف ملفه وكانت مهمة روجر هوليس الرئيسية باعتباره المساعد الأول لجاين سيسمور أن يشرف على عمليات المخابرات السوفياتية في بريطانيا ومستعمراتها. وكان طبيعياً وهو في هذا المنصب أن يتعرف الى هذه المحاولات من جهة وأن يطلع من جهة ثانية على محاولات المخابرات البريطانية لاختراق الحزب الشيوعي البريطاني وتجنيد أعضائه أو زرع عملاء في داخله. والملاحظ هنا أن المخابرات الانكليزية كانت قد تمكنت قبل سنة ١٩٣٨ أن تفك رموز الشيفرة لاتصالات الكومنترن بالأحزاب الشيوعية وبرجال المخابرات السوفياتية.

ومن هنا كانت أهمية إصرار روجر على الدخول الى هذا القسم. والواقع أن كل الاتصالات المذكورة عبر تلك الرموز توقفت بعد انتساب هوليس الى هذا القسم.

على أي حال فإن نجاح روجر في التسلل الى المخابرات البريطانية يدل بوضوح على قصور اجراءات الأمن في المخابرات البريطانية، والتي كانت تعتمد على العلاقات الخاصة بين أفرادها الذين ينحدر معظمهم من الطبقات الارستقراطية والمحافظه، وهي صفة كانت تفتح الأبواب وتتيح الفرص دون تحقيقات جدية.

ولم تبدأ الشكوك بهوليس قبل الخمسينات، أي بعد أن التجأ الى الغرب عدد من ضباط المخابرات السوفياتية وكشفوا عن مدى التسلل السوفياتي في المخابرات الغربية والبريطانية بشكل خاص، وعن وجود حلقة من «خمسة» بريطانيين في خدمة المخابرات السوفياتية. وكان انتقال دونالد ماكلين وغاي بيرغس العاملين في المخابرات البريطانية الى روسيا في مايو ١٩٥١ بداية تشكيك قوي وتنبيه عنيف الى هذه الحلقة وضرورة معرفة بقية أفرادها، اعتقاداً

بأن العميلين المزدوجين الذين فرا هما اثنان فقط من بين الخمسة. والواقع أن المخابرات المركزية لم تكشف عن هذه الحلقة الخمسية قبل عام ١٩٦١. ومن الطريف أن نذكر هنا أن وكالة المخابرات المركزية الاميركية كانت واثقة من ضلوع هوليس بالخيانة، وقد قامت بالتحقيقات بمعاونة مكتب التحقيق الاتحادي (الاميركي) وفق خطة مدروسة خاصة بالمؤسستين. وفي العام ١٩٥٧ جاء شخص يدعى (اراغو) وهو موظف الشيفرة بسفارة تشيكوسلوفاكيا بواشنطن، وعميل سري لمكتب التحقيق الاتحادي بمعلومات عن وجود عميل مهم للروس في المخابرات البريطانية. والملاحظ هنا أن العملاء السوفيات عمدوا بعد ذلك الى تغيير طرقات سيرهم فيما يدل على معرفتهم بأنهم مراقبون.

وفي العام ١٩٦٢ أبلغ «غوليتسين» الموظف بالسفارة السوفياتية في هلسنكي (فنلندا) وكالة المخابرات المركزية بوجود عميل كبير للسوفيات في المخابرات البريطانية، وأشار الى «حلقة الخمسة» معززاً بذلك أنباء وشكوكاً سابقة.

في سنة ١٩٤٥ كشف «ايغور غوزينكو» الموظف في السفارة السوفياتية في أوتاوا في كندا لأول مرة عن وجود عميل سوفياتي في المخابرات البريطانية باسم ايلي Elli وقال عنه أنه موظف عالي الرتبة، واستطاعت المخابرات الغربية أن تكشف بالتالي عن حلقة من عملاء للسوفيات في الغرب. أما العميل العالي المكانة المسمّى بإيلي فظل مجهولاً لأن اتصال السوفيات به كان عبر رسائل سرية توضع له في أمكنة سرية في شقوق أو ثقوب. وباعتبار أن «روجر هوليس» مسؤول عن مكافحة المخابرات السوفياتية في بريطانيا والبلدان الأخرى التي كانت خاضعة لها، فقد انتدب هو بالذات للذهاب الى كندا للتحقيق بشأن «غوزينكو» وصحة معلوماته. وقد لوحظ هنا أن «ايلي» أبلغ السوفيات عن معلومات المخابرات البريطانية بشأن العملاء الروس في بريطانيا. والطريف في الأمر هنا أن «ايلي» قد أرسل للتحقيق بشأن «ايلي» بالذات.

وفي العام نفسه جاء أحد رجال المخابرات السوفياتية الى سفارة بريطانيا في اسطنبول وأبلغها نبأ وجود عميل للإتحاد السوفياتي في رئاسة المخابرات البريطانية. لم يستطع تحديد هويته لكنه أكد أنه رفيع المستوى.

وفي سنة ١٩٤٦ أراد مدير المخابرات البريطانية أن يقوم بحملة واسعة لمكافحة عمليات الدعاية والتخريب الشيوعية في بريطانيا. وطلب من روجر هوليس أن يجري تحقيقاً حول هذا الموضوع. لكن التحقيق الذي قام به جاء تافهاً، لا يتضمن أية معلومات ذات قيمة برغم اعتقاد رئيس مجلس الوزراء آنذاك بوجود مثل هذه العمليات.

وفي هذه الفترة وافق «هوليس»، المسؤول عن مراقبة النشاطات السوفياتية في بريطانيا، على استخدام العالم الذري كلاوس فوخس في المحطة البريطانية للأبحاث الذرية، وهو المعروف بميوله الشيوعية منذ لجوئه الى بريطانيا عام ١٩٣٣ بعد قيام النظام النازي في المانيا. وكانت السلطات البريطانية قد أجرت بشأن فوخس ستة تحقيقات في ١٩٤١ و١٩٤٨ ولكنها لم تسفر عن شيء. ولقد تجاهل هوليس علاقة فوخس بأورسولا بيرتون، وغض النظر عن قيامها بدور المراسلة له منذ عام ١٩٢٤ وعن علاقة الاثنين بحلقة مخابرات سوفياتية في سويسرا، وهي جزء من معلومات كان يفترض أنها معروفة جيداً لرجال المخابرات المتخصصين في مراقبة محاولات التسلل السوفياتية.

ولم يعترف العالم الالماني فوخس بدوره في المخابرات الشيوعية قبل سنة ١٩٤٨ الا بعد تحقيق عنيف متواصل من قبل أحد المحققين البريطانيين المعروفين بالحنكة والقدرة بمشاركة وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الاتحادي وفك رموز الشيفرة الروسية، مما كشف عن عمالة هذا العالم واضطر للإعتراف ولكن دون أن يتبين بصورة مباشرة أي دور لروجر هوليس في اخفاء حقيقته.

لقد كان افتضاح أمر كلاوس فوخس ضربة عنيفة لا من حيث القاء

الشك على قدرة المخابرات البريطانية، وإنما أيضاً من حيث أثرها على العلاقات الاميركية البريطانية. ذلك أن المخابرات الاميركية أصبحت لا تثق بالمخابرات البريطانية ولا تضمن أن لا يسرب العملاء السوفيات في الأجهزة البريطانية كل المعلومات التي تصلها من أميركا. وبالتالي فإن الاميركيين أصبحوا أقل تعاوناً مع الانكليز في مجالات المخابرات. ولم تمض فترة قصيرة حتى حدث ما يعزز المخاوف والشكوك الاميركية في المخابرات البريطانية بعد عملية فرار ماكلين وبيرغيس الى الاتحاد السوفياتي بإيحاء من روجر هوليس نفسه.

وتحصر دائرة الاتهام في هوليس وحده، أن عميلاً روسياً باسم «راستفوروف» رفض الذهاب الى بريطانيا بعد انقلابه على بلاده خوفاً من اختراق المخابرات السوفياتية للمخابرات البريطانية. وهناك قول لأنطوني بلنت الضابط في المخابرات البريطانية والذي كان عميلاً سوفياتياً، بأن السوفيات لم يطلبوا منه معلومات عن الدائرة التي عمل فيها روجر. وتفسير ذلك أن روجر كان ينقلها اليهم بنفسه. ثم إن نجاح المخابرات البريطانية بالنسبة للمخابرات غير السوفياتية بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦١ بالمقارنة مع فشلها المتواصل في هذه الفترة مع المخابرات السوفياتية بالذات تؤكد الشكوك حول روجر.

هذا بالإضافة الى أن الرأي الراجح حالياً في دوائر المخابرات الغربية هو أن تسهيل فرار ماكلين وبيرغيس كان يستهدف انقاذ الجاسوس الكبير «كيم فيلبي» الذي كان يتولى إدارة الدائرة السوفياتية في المخابرات البريطانية. وقد أرسله روجر الى بيروت بصفته مراسلاً لمجلة «الايكونوميست» وصحيفة «الاوبزرفر» لإبعاده عن مرمى بصر المرتابين في لندن أو في الولايات المتحدة، حيث كان الشك قد أخذ يساور وكالة المخابرات المركزية. بل ان نائب المدير فيها «بيدل سميث» كان يعرب عن تأكده من أن «فيلبي» جاسوس سوفياتي.

وفي عام ١٩٦٢ برز دليل جديد على علاقة كيم فيلبي بالسوفيات، حيث

وشت به احدى رفيقاته في الحزب في الثلاثينات وهي سيدة يهودية اسمها «فلورا سولومون» صديقة كيرنسكي، وكانت تعلم بصلة فيلبي بالسوفيات فأبلغت المخابرات البريطانية بعد سلسلة مقالاته الصحافية في جريدة الاوبزرفر التي كان يبعثها من بيروت منتقداً فيها اسرائيل أشد الانتقاد وتأخذ جانب العرب وعبد الناصر في تلك الفترة. وقد نجح فيلبي في الفرار الى موسكو من بيروت في شهر كانون الثاني/يناير١٩٦٣.

أما انطوني بلنت فقد وشى به زميل اميركي له اسمه «ميكل هوتني سترايت» بعد أن قال بأن ضميره الوطني استفاق بعد طول نوم ودفعه الى إبلاغ السلطات البريطانية معلوماته عن بلنت عام ١٩٦٣. وقد بذل روجر جهداً كبيراً لوقف فتح التحقيق معه بحجة أنه حافظ الاثريات الفنية لجلالة الملكة البريطانية. وتأجلت حكاية بلنت حتى انكشافها سنة ١٩٧٩. وكثيراً ما سخر هوليس من القول بوجود عملاء للروس في المخابرات البريطانية. ثم إنه وقف بوجه التوسع في التحقيق بشأن أحد رجال البحرية البريطانية «هاري هوتون» في ١٩٥٨ وعلاقته بالمخابرات السوفياتية، بعد أن تلقت وكالة المخابرات المركزية وشاية عنه من أحد عملائها في بولونيا باسم «القناص» أو «ميكل غولينفسكي» الذي أكد أيضاً وجود عميل كبير للسوفيات في المخابرات الانكليزية. وكان مبرر المدير العام هوليس لمعارضة التحقيق الموسع أن ذلك قد يضر بمنظمة حلف شمالي الاطلسي (ناتو) لأنه سيتناول أشخاصاً آخرين أيضاً ويفضح عدداً من كبار المسؤولين الغارقين في حياة الشذوذ الجنسي.

لقد وجدت دوائر المخابرات البريطانية صعوبة الى درجة الاستحالة في تجنيد مواطن سوفياتي واحد من الجالية السوفياتية في لندن ليعمل لمصلحتها. وتفسير ذلك أن روجر هوليس رئيس قسم مكافحة المخابرات السوفياتية كان يبلغ المخابرات السوفياتية عن مثل هذه المحاولات.

واذا لم نأخذ بمعلومات نقلها عملاء ومخبرون في سفارات غربية في

دول شرقية أو مواطنون سوفيات عاملون في المخابرات السوفياتية ثم انقلبوا ولجأوا الى الغرب عن وجود موظف كبير في المخابرات البريطانية عامل لمصلحة السوفيات، فمن كان يستطيع أن يعرف بوجود ثقب صغير بقدر رأس دبوس في جدار السفارة السوفياتية في لندن للتنصت على السفارة؟ اكتشاف ذلك بالصدفة مستحيل فكيف اذا كان اكتشافه قد تم بسرعة؟.

استقال روجر هوليس من منصبه عام ١٩٦٥ ليعيش حياة هادئة. ولكن ما يجدر ملاحظته أن المخابرات البريطانية ولأول مرة منذ استقالة هوليس من منصبه استطاعت أن تحقق بعض الانتصارات على المخابرات السوفياتية في حربهما السرية الدائمة والمستمرة الى اليوم، حيث تمكنت من اعتقال «جورج بلايك» العامل في المخابرات البريطانية والذي كان في حقيقته جاسوساً سوفياتياً. وكذلك في عام ١٩٧١ عندما عمدت السلطات البريطانية الى طرد أكثر من مئة ضابط مخابرات سوفياتي كانوا يعملون في السفارة السوفياتية في لندن عرفت أسماؤهم من عميل بريطاني في المخابرات السوفياتية. وهنالك من يعتقد بأنه لم يكن ممكناً الكشف عن الجاسوس السوفياتي «غانتر غليوم» الذي كان يعمل مساعداً أول للمستشار الالماني السابق ويلي براندت لو بقي روجر هوليس على رأس المخابرات البريطانية لصلة هذه المخابرات في كشف غليوم. وقد بلغ الأمر ببريجنيف الى الاعتذار من ويلي براندت عندما زار هذا الأخير الاتحاد السوفياتي في الثالث من يوليو ١٩٧٥ مدعياً أن غانتر غليوم كان جاسوساً لالمانيا الشرقية وليس للكرملين.

وفي سنة ١٩٧٣ توفي روجر هوليس اثر نوبتين قلبيتين وهو بالطبع عالم بما كان يدور حوله من شبهات ومن إصرار على اثبات هذه الشبهات. حتى أن رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر قالت بأن مبرر اجراء التحقيقات بشأن السير روجر هوليس كان وجود دلائل لا اثباتات. وقد اعتبرت جريدة «التايمز» اللندنية هذا التصريح اعترافاً رسمياً بشكوك خطيرة ومؤكدة في الوقت نفسه أن المخابرات البريطانية كانت في الواقع مخترقة حتى النخاع الشوكي.

هذا ونستطيع القول أن روجر هوليس وجه ضربات محكمة للجاسوسية البـريطانيـة والاميركيـة ولمنظمـة حلف الاطلسي برمتهـا. ولو استـطاعت هذه المخابرات مجتمعة أن تنبش قبر هوليس وتخفي عظامه في مكانٍ لا يصل اليه نـور الشمس لما تـأخرت في ذلـك لحظة واحـدة. فهي تخشى أن تكون لهـا المخابرات السوفياتية بالمرصاد حتى في قبر روجر، عندئذ تعيش الكارثة بشكل مضـاعف وتكبـر في البلعـوم الاطلسي وتضيق الأنفـاس تمهيـداً لمـرحلة الاختناق.

وعلى هذا الأساس عدلت عن القيام بهذه الخطة حتى لا يتحـول أمثال هؤلاء العمـلاء لـ«قـديسين» ثـوريين؛ وحتى لا تتحـول قبـورهم ايضـاً الى مزارات.

المراجع

١ ـ شـابمان بينشـر «صناعتهم الخيـانـة» تلخيص ميخـائيـل الخـوري. مجلة «الجيل» القبرصيـة. المجلد الخامس. العـدد الرابـع. ١٩٨٤، بعنوان «فضيحـة العصر: مـدير المخـابرات البـريطانيـة جـاسـوس سـوفيـاتي» ص ١٤٥ ـ ١٥٦.

٢ ـ شـابمان بينشـر «صناعتهم الخيـانـة» تلخيص ميخـائيـل الخـوري. مجلة «الجيـل» القبـرصيـة. المجلد الخـامس العـدد الخـامس. ١٩٨٤. ص ١٤٤ ـ ١٥٥.

شبكة التنصّت البريطاني
في فخّ الإبتزاز السوفياتي.

يعتبر "العقل" قيمة من أسمى القيم الإنسانية التي وهبها الله عزّ وجلّ لأعزّ مخلوقاته على وجه الأرض وهو : الإنسان .

لذلك فإن المحافظة على هذه النعمة هي واجب وفريضة في الوقت نفسه ، ولا يدرك أهمية هذه القيمة إلا من كان بها جديراً وخصوصاً في الأوقات التي تتطلب إمعان العقل في أمور تفرض التعقل والحكمة . فكيف والحال هذه بمن كان في موقع خطير وحسّاس،يلزمه بأن يكون دائماً حذراً ومتيقظاً وعاقلاً في كل تصرف من تصرفاته؟ لكن شهوة الإدمان على الكحول والشذوذ، لا تقيم للعقل وزناً ولا تعترف بقيمته ... وفي الوقت الذي " تذهب " فيه عقولهم في رحلة الملذات ، سرعان ما يستفيقون ليجدوا أنفسهم وهم في " فخّ " نصبه لهم محترفون في هذا الفنّ ،فيصعب الإفلات منه بسهولة، لأن " الصيادين البارعين " كانوا يدركون تماماً كل خيوط الخطّة المحكمة للإيقاع بـــ"الطريدة الطائشة".

وهذا ما حصل بالضبط مع رجال التنصت البريطانيين في قبرص على أيدي رجال المخابرات السوفياتية الـ (كي. جي . بي .) فكيف كان ذلك ؟ وماذا كانت النتيجة ؟ .

ففي لندن قدّم سبعة من البريطانيين العاملين في القوات البريطانية في قبرص الى المحاكمة . وهؤلاء البريطانيون " عملوا " في قسم التنصت والتجسس البريطاني المقام في قبرص منذ سنوات . وقدموا لمحكمة الجنايات التي لها صلاحية الحكم بقضايا التجسس بجرم التجسس الذي ارتكبوه أثناء عملهم على مدار عامين من شباط (فبراير) ١٩٨٢ الى شباط (فبراير) ١٩٨٤ . ففي شباط (فبراير) ١٩٨٢ دعي البريطاني " تومبسون وارد " لحضور حفل خاص سقي فيه مخدرات جرّدته من إرادته حيث تمّ تصويره من قبل عميل مخابرات أجنبي في حالة بغاء وشذوذ جنسي . بعد ذلك جرى تهديده بكشف أمره إذا لم يقدم بانتظام معلومات " سرّية " من موقعه في العمل ، فقام بتسليم العميل الكثير من الوثائق تحت التهديد أولاً وتحت الإغراء ثانياً ، حيث كان العميل يدفع له عن كل وثيقة بريطانية رسمية يحضرها له مبلغ خمسين جنيهاً إسترلينياً ثم طلب من تومبسون إستقطاب رفاقه البريطانيين المنغمسين معه في عمليات الشذوذ ففعل ما طلب واستقطب المزيد من رفاقه الذين تمّ تصويرهم أيضاً وابتزازهم وإرغامهم على التجسس . وبلغ عدد الوثائق المئات منها السرّية ومنها السرّية جداً

وتسلّم الجواسيس بدل هذه الخدمة النقود والمخدرات والمزيد من حفلات الشذوذ بدون سبب إيديولوجي أو سياسي .

وإعترف المتهمون السبعة بأن العملاء الأجانب الذين ورطوهم بالتجسس كانوا ثلاثة تمّ وصفهم كالتالي :

_ الأول عربي واسمه " يونس " .

_ الثاني روسي ضابط في المخابرات السوفياتية واسمه الكسي .

_ الثالث قبرصي واسمه " بابا أرتينا " .

كما اعترف تومبسون بأنه حضر الى قبرص في عام ١٩٧٩ منقولاً الى قسم التنصت والتجسس في القاعدة البريطانية ، وأنه التقى في شباط (فبراير)) ١٩٨٢ بشخص عربي يعمل تاجر خضروات وفواكه يدعى يونس في ناد ليلي بلارنكا . وبعد الشرب سوياً سكر تومبسون للثمالة وعلى الطريقة البريطانية . فذهب مع يونس الى منزله حيث أعطي مخدرات وكحوليات ذهبت بالبقية الباقية من عقله ، ولم يشعر إلا وقد تمت العملية معه كما يتمّ الأمر بينه وبين صديقه " كريستوفر" الذي يقيم معه علاقات شاذة . وبطبيعة الحال جرى تصويره بمختلف أنواع التصوير . فيديو ، سينما ١٦ مم ، تصوير ملون ، عادي . وفي اليوم التالي أخبر يونس تومبسون بأن لديه إثباتاً لما حصل تصويراً وشهوداً وأن عليه إحضار تفاصيل عن عمله وإلا فإنه سيطلع المسؤولين عنه على تفاصيل ما حصل ؟ وخاف تومبسون أن يطرد من

الخدمة في القوات البريطانية . وبدأ يسرب المعلومات السرّية الى يونس في منزله أو في النادي الليلي في لارنكا . عمل تومبسون شهرين لوحده حتى طلب منه يونس إحضار زملائه واحداً بعد الآخر لجرّهم " مثلما جرى معه " الى حفلات شاذة ثم تصويرهم وابتزازهم وتوريطهم للعمل في التجسس حتى وصل "عدد" البريطانيين الذين قبلوا بالممارسات الشاذة ثم قبول التجسس والخيانة الى سبعة وإن أحدهم متزوج وكان يسمح لزوجته بالمشاركة في الحفلات الشاذة المتكررة مع المجموعة ، والتي كانت تقام في منزل أحدهم ، وهو سكن للجنود غير المتزوجين داخل القاعدة البريطانية . ثم تحولت هذه الحفلات الشاذة الى منزل الجندي المتزوج وفي منطقة سكن الجنود المتزوجين في القاعدة . وبناء على اقتراح الزوجة الشاذة نفسها " بالطبع هذه الحفلات كانت تقام ضمن القاعدة دون مشاركة أجانب" والحفلات التي يقصد منها تسهيل عملية التجسس أو إصطياد عميل جديد كانت تقام في منزل يونس .

واستمرت الحفلات حتى خريف عام ١٩٨٣ حيث تعرف تومبسون العميل الشاذ على أرتيست فيليبينية تدعى " جوبي " كانت السبب فيما بعد بكشف الجميع .

إستمرت عملية التجسس لمدة سنتين . فألكسي السوفياتي هو زعيم الشبكة التي تحصل على المعلومات وأصبح تومبسون رئيساً للمجموعة البريطانية وقناة التوصيل ، وقبض النقود واستلام المخدرات ، وهو

المسؤول عن توزيعها على المجموعة ، فهو الذي أسسها أصلاً . عندما تعرف تومبسون على الفتاة الفيليبينية خافت المجموعة بأن يؤدي هذا التعرف لكشف سرّ أفرادها ؟ فعقدوا إجتماعات عديدة لمناقشة ماذا يفعلون إذا فضح الأمر . نصحوه أن يتركها وهو الذي ليس بحاجة الى الجنس فرفض لأنه متعلق بها . وحين ذلك " انتهت " مدة خدمته في قبرص واستلم بطاقة الطائرة للعودة الى لندن ولكنه لم " يغادر" قبرص لأنه أراد قضاء أطول مدة ممكنة مع جوبي لدرجة عرضه الزواج عليها بدون أن يعلمها بتورطه بالتجسس لصالح الـ " كي . جي . بي . " .

المخابرات البريطانية تكشف حلقة التجسس :

أطال تومبسون بقاءه في قبرص مما لفت نظر المخابرات البريطانية (الأنتلجانس سرفيس) في مقر عمله السابق الكائن قرب أيوس نيكولاوس بقبرص ، لأن دورياتهم كانت تعرفه جيداً . واستمرت هذه الدوريات تراه في المرابع الليليه مع صديقته الفليبنيه فراقبوه وعرفوا علاقته مع الفتاة الاجنبيه . وهذه العلاقه محرمه على موظف المخابرات او العاملين في اجهزة الأمن إلا إذا كانت بعلم رؤسائه ،أي أن تكون العلاقه للمصلحه العامه وخاصة المخابرات البريطانيه التي تحظر على العاملين في حقل التجسس البريطاني الاتصال بالفتيات الغربيات حتى لا يقعوا في حبائل العملاء الأجانب . اما الاختلاط "الشاذ" فلم يكن

يثير انتباه المخابرات البريطانية ويبدو انه ممارسه عاديه بين رجال القوات البريطانية .

إستمرت المخابرات البريطانية في مراقبة تومبسون مراقبة هادئة دون أن تعلم تورطه بالتجسس شيئاً ، وأخيراً استدعي الى مقر المخابرات وبعد مواجهته بالأمر " علاقته بجوبي فقط " تطّور التحقيق بعد أن وجد وا معه وثائق سرّية ، فانهار وبدأ يعترف على بقية الحلقة التجسسية . فتمّ ضبط الجميع وصودرت منهم العديد من وثائق التجسس فاعترفوا بما أقدموا عليه وجرى نقلهم الى لندن حيث قدموا الى المحكمة، وأثناء المحاكمة قال المدعي العام البريطاني أن هذه القضية تتداخل فيها كل عناصر الفضيحة والإثارة وإنها على غاية من الأهمية بالنسبة للدفاع عن بريطانيا . ويتابع المدعي العام حين يقول أن الإبتزاز هو السبب الرئيسي لوقوع المجموعة في فخ العملاء الأجانب وأن أسباب الإبتزاز هي حضور المجموعة حفلات الشذوذ الجماعية التي وصفها المدعي العام بأنهم كانوا يلبسون ملابس النساء ويتبادلون الفحشاء . وقد وصفت الصحافة البريطانية هذه الحفلات بتفصيل مثير نقلاً عن الشهادات في المحكمة . وقال المدعي العام موجهاً كلامه لرئيس المحكمة :

سيدي الرئيس إن رجالاً مثل هؤلاء عملهم في القوات المسلحة يفرض عليهم السرّية والكتمان ،يقيمون هذه الحفلات فيتركون

أنفسهم عرضة للإبتزاز ، وهذه الحفلات محرّمة عليهم خاصة وأنهم يعملون في مجالات حساسة . ونفس الشيء ينطبق على تناول المخدرات .. لقد عملت هذه المجموعة في قلب أهم المواقع العسكرية حساسيةً واستمر عملها دون انقطاع لعامين قدموا خلالها معلومات سرّية جداً لعملاء أجانب مما أحدث خسائر عظيمة للأمن العام البريطاني .وأضاف المدعي العام إن المجموعة كانت تعمل في قسم الاتصالات والتنصت حيث يتم التعامل مع وثائق خطيرة وإن ستة من السبعة كانوا قادرين على الوصول لأدق المعلومات في مجال عملهم ، وإنه لو لم تكن الثقة فيهم مطلقة لما وصلوا لمركزهم هذا أبداً . وأعرض لكم (أي لرئيس المحكمة) إن الحقيقة الثابتة الكبيرة أنه حتى شباط (فبراير) ١٩٨٤ قدم أفراد المجموعة الاسرار بحجم كبير وليس بشكل إقتصادي، ولكن في أكياس مليئة . ثم ذكر المحامي العام هيئة المحلفين بأن هذه المعلومات مستقاة من المتهمين فقط ويجب عدم أخذها وكأنها الحقيقة كاملة خاصة المعلومات المتعلقة بالدولة الاجنبية المستفيدة من هذا التجسس. إذ يعتقد أنهم لم يقولوا الحقيقة. وربما اتفقوا على أقوالهم قبل كشف أمرهم وإن الشيء الوحيد الواضح أن أقوال المتهمين بالتجسس نصف الحقائق والنصف الآخر أكاذيب صارخة وإن ذلك كان جزء من خطة محكمة معدّة لتضليل المحققين وحماية العملاء الاجانب من الكشف وإن ذلك "عقد" التحقيق واخره . وفي النهاية

طلب المحامي العام لهم أقصى العقوبات التي تسمح بها القوانين البريطانية ليكون ذلك رادعاً لهم ولغيرهم وقد وجدهم المحلفون مذنبين فجرى الحكم على كل من الرجال الستة بالسجن عشر سنوات لكل منهم والحكم على السابع بالسجن خمس سنوات نتيجة تجسسهم وعدم إبلاغهم لرؤسائهم لدى تورّطهم . إذ لو أنه قام كل منهم بالابلاغ عما تعرّض له حتى لجهة الشذوذ فإن المخابرات البريطانية تعلم ان الكثير من البريطانيين يمارسونه ويبقى موضوع الابتزاز فتخلصه منه بنقله أو اتخاذ أي إجراء يجعل العميل المهدد يشعر بأن لا قيمة لتهديده.

ولكن إنها المخابرات.

المرجع

(١) سعيد الجزائري "ملف الثمانينات عن حرب المخابرات". دار الجيل . بيروت . ودار دمشق ١٩٨٩ . ص .٢٧٨ _ ٢٨٣.

إغتيال "علماء حرب النجوم" البريطانيين والرعب في حلف الأطلسي .

ليس من السهل إطلاقاً أن يقدم " عالم في حرب النجوم " في أيّة دولة من دول العالم على "الانتحار" . فكيف إذا كانت القضية تتعلق بمجموعة من هؤلاء العلماء يصل عددهم الى حوالي ٢٢ عالماً بريطانياً في هذا الحقل ؟ . إنها قضية مثيرة ولا شك، لكنها ليست بعيدة عن عالم المخابرات والتجسس.

فما هي أسرار هذه القضية ؟

ولماذا أثارت الرعب في حلف شمال الاطلسي ؟

ولماذا دبّ الفزع في البنتاغون الاميركي ؟

أنيط اللثام مؤخراً عن حوادث مثيرة ذهب ضحيتها ٢٢ من العلماء البريطانيين والمشاركين بالبرنامج الاميركي المسمى (المبادرة الاستراتيجية الدفاعية) أو بالتسمية الصحافية الرائجة "حرب النجوم". وأهمية هذه الحوادث إنها وقعت في ظروف متشابـــهة أدّت الى مصرعهم وسجلت على أنها حوادث إنتحار، وأمام هذا السر الغامض لمقتل هؤلاء العلماء تحركت المخابرات الاميركية ومخابرات منظمة حلف الاطلسي للكشف عن لغز قتلى "حرب النجوم".

ولهذا فقد طلب "البنتاغون" من وزارة الدفاع البريطانية إشراكه في التحقيقات التي تجري في بريطانيا لكشف اللثام عن هذا اللغز ، وبعدما لقي ثلاثة من العلماء البريطانيين حتفهم في حوادث غامضة خلال شهر آب وأيلول ... وتبين أنهم _ أيضاً _ من المشتغلين ببعض جوانب البرنامج الاميركي لانتاج نظام أسلحة فضائي مضاد للصواريخ العابرة للقارات .

ويبدي المسؤولون في وزارة الدفاع الاميركية إصراراً على طلب الاشتراك في التحقيقات على الرغم من أن السلطات البريطانية تؤكد أنها لا ترى أي "سرّ غامض" وراء مقتل هؤلاء العلماء . فمعدل هذه الحوادث _ كما يقول المسؤولون البريطانيون _ أقل من معدل حوادث القتل بين الفئات الاخرى ، أي بين غير العلماء في بريطانيا. بالاضافة الى أن أربعة من العلماء العشرة الذين لقوا مصرعهم خلال السنتين الاخيرتين قد قيدت حالاتهم على أنها "حوادث إنتحار" ، ولا تزال الاحتمالات غير محددة في تفسير وفاة أربعة علماء آخرين ، أما الاثنان الباقيان فقد لقيا مصرعهما في حوادث عادية .

غير أن المسؤولين الاميركيين يلاحظون ان الحوادث العشرة وقعت خلال الفترة منذ بداية إشتراك بريطانيا في أبحاث برنامج "حرب النجوم" الاميركي... الذي أطلقه الرئيس ريغان في آذار (مارس) ١٩٨٣ . وقد لفت أنظارهم بشكل خاص آخر هذه الحوادث ، وراح

ضحيته أندرو هول وهو مهندس متخصص في علوم الفضاء يبلغ من العمر ٣٣ عاماً ويعمل في شركة "إيروسبيس" البريطانيه ، وهي في الواقع مؤسسة أميركية _ بريطانية مشتركة ، وقد عثر على هول مختنقاً داخل سيارته بعد تسرب الغاز من عادم السيارة الى داخلها، وقيدت السلطات البريطانية هذا الحادث على أنه إنتحار .

هذا وكانت الشرطة البريطانية قد عثرت على اليستير بيكهام وهو مهندس فضاء مرموق في شركة "بليسي" الاميركية ميتاً في كوخ صغير بحديقة منزله وقد قيد بأسلاك كهربائية ممتدة من داخل البيت.. وقد صعقه التيار الكهربائي. وفي هذه الحالة أيضاً إعتبرت سلطات "سكوتلانديارد" (الشرطة_ الجنائية البريطانية) أن وفاته كانت انتحاراً.. لكن أسرة المهندس البريطاني تصر على أنه قتل، "لأنه لم يكن يواجه مشكلات شخصية أو مهنية تدفعه للانتحار . كما أنه لم يكن يعاني من أي اكتئاب أو اضطراب. إن القتل هو التفسير الوحيد المعقول لموته".. هكذا أكدت أرملته .

فزع البنتاغون .

والواقع ان الممثلين العسكريين للولايات المتحدة لدى منظمة حلف الاطلسي كانوا قد طلبوا من سلطات الاستخبارات في مقر الحلف في بروكسل قبل أسابيع التدخل لدى السلطات البريطانية للحصول منهم

على تقرير عن مسلسل الاغتيالات ضد العلماء الذين يشتغلون على أبحاث برنامج حرب النجوم الاميركي.

وتقول مصادر "البنتاغون" أن استخبارات الاطلسي توصلت بالفعل الى معلومة أخرى تؤكد الشكوك الاميركية في هذا اللغز.. إذ تبين أن خمسة من العلماء المغدورين كانوا يشغلون مناصب حساسة لدى مؤسسة بريطانية معينة ـ إسمها "مؤسسة ماركوني البريطانية" .. وهي مؤسسة تلعب دوراً أساسياً في تنفيذ عقود لابحاث عسكرية أميركية في اطار برنامج "حرب النجوم". وتبين أنه في ثلاث من هذه الحالات الخمس كانت الوفاة تنتج عن تسرّب الغاز من العادم الى داخل السيارة.

وقد ذكر المسؤولون في شركة "ماركوني البريطانية" إنهم تحرّوا أحوال العلماء الخمسة الذين كانوا يعملون في الشركة ولقوا حتفهم في هذا المسلسل الغامض، ولم يجدوا حالة واحدة ينطبق عليها ما تقوله سلطات التحقيق البريطانية أنه من المألوف أن العلماء والباحثين الذي يشتغلون في "المؤسسات الدفاعية" يكونون تحت ضغط شديد في العمل.

وجدير بالذكر أن احد العلماء الخمسة الذين لقوا مصرعهم وكانوا يشغلون مناصب حساسة في هذه الشركة هو من أصل عربي أو ايراني ويدعى أسعد شريف. وفي حالته لم يكن ثمة مجال للاعتقاد بأنه انتحر،

لأنه وجد داخل سيارته مختنقاً بحبل لف حول رقبته ولف طرفه الآخر الى شجرة على الطريق. وقد وقع ذلك في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٨٦ .. ولا تزال السلطات البريطانية تعتبر بأن التحقيق في مقتله لم يتوصل الى نتيجة نهائية.

وتقول مصادر "البنتاغون" أن اثنين من العلماء القتلى البريطانيين يشتغلون بأبحاث البرنامج الاميركي_ مناصب رسمية في الحكومة البريطانية_ أحدهم_ وإسمه ريتشارد بوغ _ كان خبيراً في "الكومبيوتر" في وزارة الدفاع البريطانية ، والثاني جون بريتان من أساتذة الكلية العسكرية الملكية البريطانية .. وفي هاتين الحالتين فإن سلطات التحقيق البريطانية قيدت الوفاة على أنها "حادث عارض".

ويبدو ان فزع المسؤولين في "البنتاغون" من موقف السلطات البريطانية لا يقل عن فزعهم من مسلسل إغتيالات العلماء في حد ذاته (...).

المرجع

(١) جون وود "جواسيس للبيع". ترجمة لطيف الناصر .دار الحسام. بيروت.الطبعة الأولى ١٩٩٠. ص ١٣١_١٣٣.

ضابط المخابرات البريطاني
يهزّ عرش المملكة الانكليزية .

كثيراً ما يكون "إطلاق الافكار " أفدح خطراً من "إطلاق النار". فكيف إذا كانت هذه الافكار معلوماتٍ وأسراراً عن أعرق جهاز مخابراتي في العالم هو جهاز المخابرات البريطاني "إم ١٦ " ؟.
وكيف إذا كان فاضح هذه الاسرار والمعلومات ضابطاً في الجهاز نفسه؟أَلَيْسَ "صاحب البيت أدرى بالذي فيه " _ كما يقولون _.

هذا ما حصل بالفعل منذ أواخر شهر آذار عام ٢٠٠٢ ، عندما نشر خبر صغير في مجلة متخصصة بعالم التجسس تدعى "عين الجاسوسية" أثار الخوف والذعر في جميع قواعد جهاز المخابرات البريطاني "إم ١٦" في تقاطع فوكسهول في لندن إثر صدور كتاب ضابط المخابرات البريطاني ريتشارد توملينسون بعنوان : "التسريب الكبير: من فائق السرّية الى في غاية السرّية ".

فما هو سرّ هذا الكتاب الذي عرّى إستخبارات حكومة صاحبة الجلالة من أسرارها الحميمة ؟
ومن هو مؤلفه هذا ؟.

تقول مجلة "عين الجاسوسية" : "كان توملينسون ضابطاً سابقاً في جهاز" إم١٦" حاولت الحكومة البريطانية في مرات عدّة إسكاته

وإغواءه في العودة الى بريطانيا بعد أن طرد من جهاز "إم١٦" عام ١٩٩٦ لكن دون جدوى . فتوملينسون كان يتنقل من بلد الى آخر ويتجاوز محاولات أسره وإيذائه التي كانت تنفيها الحكومة البريطانية. وقصة توملينسون تبدأ منذ تجنيده في قوات المخابرات الخاصة (sis) بعد نيله درجة الامتياز في الهندسة الجوية من جامعة كامبريدج .ثم خدم فيما بعد في (فرع سلاح الجو الخاص ٢١) وحصل على أفضل العلامات في التدريب . وبعد ذلك تعرض للطرد بعد أن خدم في (البوسنة) أثناء أحداثها فاعتبر أن طرده تصرف غير عادل، لكن محامي الدفاع لا يمكنه القيام بشيء كبير طالما ان هذا الجهاز يمكن أن يضع السبب ضمن "أسباب أمنية" لا يمكن الكشف عنها . وحاول توملينسون تزكية نفسه وأصرّ عبر الكتابة على التحدث عن خدمته فاعتقله فرع " إم١٦" ووضعه في السجن لمدة عام بتهمة الكشف عن أسرار رسمية . ثم بدأ يعد كتاباً حول المخابرات البريطانية وتعرّض للتهديد والضغط لتسليم كل ما كتبه لأحد الناشرين الإستراليين . وفي أيار ١٩٩٨ أطلق سراحه فاضطر بعد ضغوط متزايدة من المخابرات البريطانية الى الفرار من بلد الى آخر لتجنب ما يمكن أن تفعله ضده المخابرات البريطانية . وأثناء ذلك حاولت المخابرات الألمانية ، وكذلك الفرنسية بذل جهود جبارة من أجل إغوائه بتزويدها بما لديه من حقائق عن جهاز

" إم ١٦ " لكن دون جدوى بسبب رفضه . ويقول توملينسون إنه تعرض للإعتقال والإعتداء والإستجواب في ١١ مناسبة دخل في بعضها رجال الأمن الى بيته وفي ٦ دول كان يتنقل بينهما . وهو الآن ممنوع من دخول الولايات المتحدة واستراليا ، وفرنسا وسويسرا وتعرض في المانيا للتهديد وكذلك في نيوزيلاندا مما دفعه الى العيش في إيطاليا الآن . وفي آذار عام ٢٠٠٠ إقتحمت الشرطة الإيطالية منزله وصادرت كمبيوتره الشخصي وهاتفه الجوال وأشرطة الكمبيوتر وأوراق أخرى وسلمتهم الى ضابطين مندوبين عن فرع " إم ١٦ " ولم تتمّ حتى الآن إستعادهم .

أما كتابه فقد تمّ تسريبه الى روسيا للمراجعة ولم تستطع الحكومة البريطانية ومخابراها منع دخول ذلك الكتاب الى داخل بريطانيا خصوصاً حين يتم عرضه على الأنترنيت . وفي مقدمة كتابه يقول توملينسون : " إن جهاز " إم ١٦ " إعتقلني وعذّبني باسم قانون أدانته الأمم المتحدة في ٢٠ / ٢٠٠٠/٧ حول سجل حقوق الإنسان في بريطانيا " . لكن الكثير من البريطانيين الذين يتعاطفون مع مهام " إم ١٦ " يبررون لهذا الجهاز محاولة إسكات توملينسون بسبب ما يعرفه وما كشفه حتى الآن. ففي هذا الكتاب يكشف توملينسون عن مؤامرة أعدها " إم ١٦ " لإغتيال سلوبودان ميلوسفيتش وعن شخصية هنري بول السائق الذي قتل مع الأميرة

دايانا . فالكتاب يعتبره ضابطاً في " إم ١٦ " وأنه عمل في باريس ، الأمر الذي يثير شكوكاً حول وجود مؤامرة في موت دايانا .

مقتطفات من كتاب " التسريب الكبير "

بعد صدور الكتاب وتوزيعه في روسيا أصبح من الواضح أن المخابرات البريطانية والحكومة فشلتا تماماً في محاولتهما عدم وصول مادة هذا الكتاب الى العالم . وحتى شباط الماضي تمّ إستيراد وبيع ما يقرب من ١٥٠٠نسخة من هذا الكتاب عن طريق الناشرين الذين كان بإمكانهم توزيع عشرات الأضعاف منه . وفي هذا الكتاب يعطي توملينسون تفصيلاً مهماً عن عمل جهاز (SIS) . ورغم أن قسماً من هذا التفصيل يمكن معرفته إذا أمعن الإنسان النظر جيداً ، إلا أن هناك الكثير من المعلومات المهمة . يقول توملينسون في كتابه : " إن ما يقوم به " إم ١٦" من عمل وما يحصل عليه من معلومات يعرف عادةً بالتقرير الذي يحمل إسم (سي إس) (cx) وهي اختصار بدىء باستخدامه منذ إنشاء فرع (إم ١٦) يدل على أول حرفين من عبارة وضعها رئيسه مانسفيلد كامينغ هي :" خاص جداً من كامينغ " (cumming- Exclusively)– أي (cx) إختصاراً ثم يتحدث عن وجود " ضباط إرتباط " من جهاز (إم ١٦) يعملون مع الشركات البريطانية ويقدمون لها تقارير تحمل صفة(cx). وهذا التقرير cx)يتمّ

جمعه على مستوى دولي من قبل خلايا صغيرة تعمل داخل السفارات البريطانية ويطلق عليها إسم " محطات " ، ويذكر أن " السي. آي . إي " تستخدم نفس التعبير . ويتم تصنيف التقرير الذي ترسله هذه الخلايا بموجب أهميته قبل أرساله الى بريطانيا بوضع نجمة أو إثنتين أو أكثر . فوضع نجمتين يشير الى تدني أهميته وعادة ما يطلع عليه الضباط الصغار ، أما الذي يحمل ثلاث نجوم فيمكن أن يطلع عليه رئيس مكتب خارجي أو وزارة الدفاع وما يحمل أربع نجوم يكون مهماً جداً لمن هو في منصب سكرتير دائم على سبيل المثال . ولا يطلع على التقرير الذي يحمل خمس نجوم إلا من هو في أعلى المناصب في الحكومة.

محطات " إم ١٦ " والموظفون فيها .

يقول توملينسون في كتابه المذكور إن هناك ٥٠ محطة تابعة لجهاز " إم ١٦ " في العالم تقريباً ، وعادة ما يكون رئيسها هو ضابط كبير في الأربعينات من العمر ، ويعمل تحت غطاء مثل مستشار ويصرح باسمه لمخابرات الدولة المضيفة عادة ، في حين أن الضباط الآخرين داخل المحطة لا يصرح عن أسماء معظمهم . وعلى محطة يتم ربطها وإدارتها عن طريق مقرّ " إم ١٦ " في تقاطع فوكسهول في لندن وتضم كل محطة رئيساً ومحاسباً يعد ترتيب المستلزمات الخاصة بالعمل . ويضم جهاز " إم ١٦ " ٢٣٠٠ موظف دائم منهم ٣٥٠ من فرع ضباط المخابرات التابع لدائرة المخابرات البريطانية (آي بي) ، و٨٠٠ من

الضباط الإداريين الذين يعملون في الشؤون الفنية والإدارية . وهناك حوالي ألف يعملون كموظفين للخدمات وحراس وسائقين وطباخين ، وميكانيكيين . والى جانب حديثه عن عدد من العمليات التي قام بها جهاز " إم ١٦ " في الكتاب ، يتحدث توملينسون بدقة فريدة عن الطرق التي يتبعها الجهاز في تجنيد المتطوعين وعن التدريب . ولعل قيادة المخابرات البريطانية كانت ترغب بعدم نشر مثل هذه التفاصيل. ويستشهد توملينسون بجزء من التدريب الذي خضع له في " مقر فورت مونكتون" في مدينة (بورتس ماوت) فيقول : " تشكل فورت مونكتون القاعدة المهمة للتدريب المتعدد وهي تقع في شبه الجزيرة البريطانية (غوسبورت) ولا يمكن الدخول اليها إلا عن طريق الجسر المتحرك وفيها ساحة كبيرة للتدريب على الإطلاق والتصويب من المسدسات وإستوديوهات تصوير وورشات فنية ، ومختبرات وقاعات محاضرات . وفيها موقع يمكن أن تهبط فيه طائرة مروحية " .

أما المهمة الأولى التي طلب من توملينسون القيام بها فهي إنشاء وكالة أنباء إحتيالية في قلب مدينة لندن بهدف جذب وإغواء أفراد من الجيش الروسي أو المخابرات الروسية للهروب الى بريطانيا . وبعد إنفاق ما يقرب من ٤٠ ألف جنيه بريطاني وجهود من ثلاثة أشهر لم تتمكن وكالة الأنباء هذه من النجاح في مهمة واحدة من هذا النوع . وقد تمّ إطلاق إسم " تروفاكس " على وكالة الأنباء هذه وتبين أنها

عملت في هذا الحقل حقاً ، وتأكد هذا الأمر من قبل محلل عسكري روسي حاول توملينسون تجنيده عام ١٩٩٢ . وبعد سنة من هذه المحاولة أبلغ توملينسون في الربيع بانتقاله الى قسم روسيا في جهاز" إم ١٦ " في لندن حيث تعين عليه القيام بعمل كثير في هذا القسم . ويتحدث توملينسون في أحد الفصول عن الدورة التي يطلق عليها إسم (ايونيك) وهذا إختصار يعني :" دورة الدخول لضباط المخابرات " . ففي هذه الدورة تلقى توملينسون والعملاء والضباط الآخرون معه مهمة غير عادية يقول عنها : " في أول سلسلة من الإمتحانات والإختبارات المتتابعة المعقدة طلب من كل واحد منا الجلوس في بار بريطاني لكي نقترب من أحد القادمين اليه ونستخلص منه (عبر الحوار) معلومات تدل على إسمه وعنوانه وتاريخ ميلاده ومهنته بل ورقم جواز سفره وحيث تعين عليّ القيام بذلك ذهبت الى أحد البارات في شارع (غريت ساوث إيست) فوجدته خالياً ثم بعد أن تناولت أول كأس دخل شاب وفتاة ثم فتاتان ورتبت الأمر معهما بطريقة ذكية قلت فيها إنني أملك يختاً وبحاجة الى من يعمل فيه . ولكي يتمّ خروج من يعمل فيه لا بد من ترتيب خروجه من البحر بجواز سفر. وهكذا حصلت على أرقام جوازي سفرهما . وزعم آخر أنه فرنسي وراهن على أن جميع الجوازات البريطانية تنتهي بثلاث ستات (٦٦٦) وكان الرهان على زجاجة ويسكي فذهب أحدهم وأحضر

جواز سفره لكي يكسب الرهان . وهكذا تعرف ضابط المخابرات على رقم جواز سفره .. " . وقد نوقش كتاب : " التسريب الكبير " في البرلمان البريطاني وقال توم كينغ رئيس اللجنة البرلمانية لشؤون المخابرات والأمن : " من السذاجة الإعتقاد بعدم وجود دعم لكتاب توملينسون من المخابرات الروسية " .

لكن توملينسون ينفي أن تكون له أي علاقة بالمخابرات الروسية ويبدي إستعداده للعودة الى لندن وإجراء محاكمة حول طرده من وظيفته لعدم توفر العدالة فيها .

ومهما يكن من أمر ، يبقى كتاب ضابط المخابرات البريطاني ريتشارد توملينسون من الكتب الهامة في هذا العالم ، باعتباره يتناول موضوعاً حساساً ، بل شديد الحساسية والخطورة في آن معاً . كما أنه يعتبر من المحظورات الممنوع المساس بها على الإطلاق ... وهذا ما يصح فيه القول أن " كل ممنوع مرغوب".

المراجع

(١)مجلة " عين الجاسوسية " . آذار ٢٠٠٢ .

(٢)مجلة "المحرر العربي".العدد ٣٣٩.من٥ – ١٢نيسان ٢٠٠٢ .ص ٢٠.

الفهرس

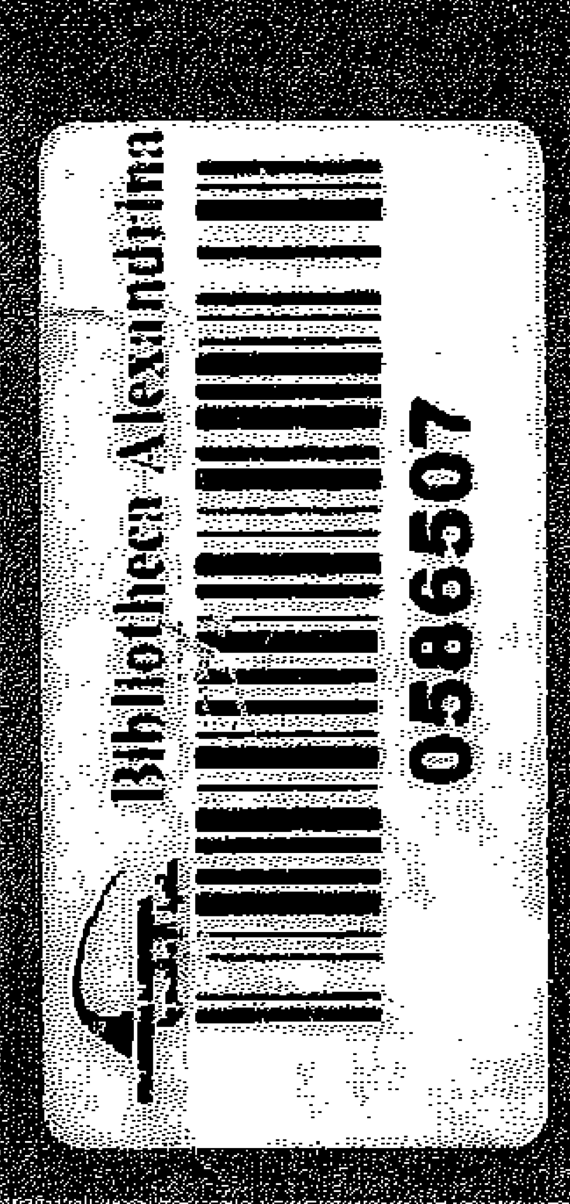
الفصل الاول

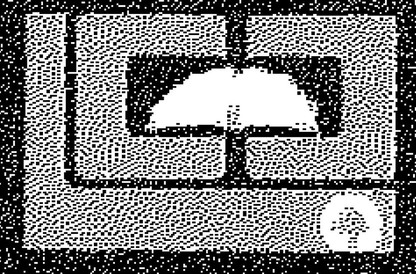
– ملف الاستخبارات الفرنسية ٥
– صراع العمالقة..........٦
– فوشية صانع المخابرات الحديثة..........١٥
– سليمان الحلبي..........٢٥
–محاكمة الماريشال بيتان..........٣٣
–مارغريت آندريان..........٤٢
– "قطة " الجاسوسية..........٦٩
– جان دايد..........٩٥
– المهدي بن بركة..........١١٢
– المحطة الباريسية..........١٢٠
– الإعلام الصهيوني في فرنسا..........١٢٨

الفصل الثاني

- ملف الإستخبارات البريطانية ١٣٥
- الاستخبارات البريطانية.................................. ١٣٦
- لورنس العرب... ١٤٢
- صهيونية سايس بيكو ووعد بلفور...................... ١٥١
- جاسوس "البلوطة الملكية" البريطانية................... ١٦٠
- كريستوف لورد ١٧٧
- خدعة الحرب.. ١٩٧
- قضية الجاسوس "ويليام الجاسوس"...................... ٢٠٦
- المخابرات السوفياتية تتغلغل في بريطانيا............. ٢٢٤
- شبكة التنصت البريطاني ٢٣٦
- اغتيال " علماء حرب النجوم"............................. ٢٤٤
- ضابط المخابرات البريطاني................................ ٢٤٩







المركز الثقافي اللبناني